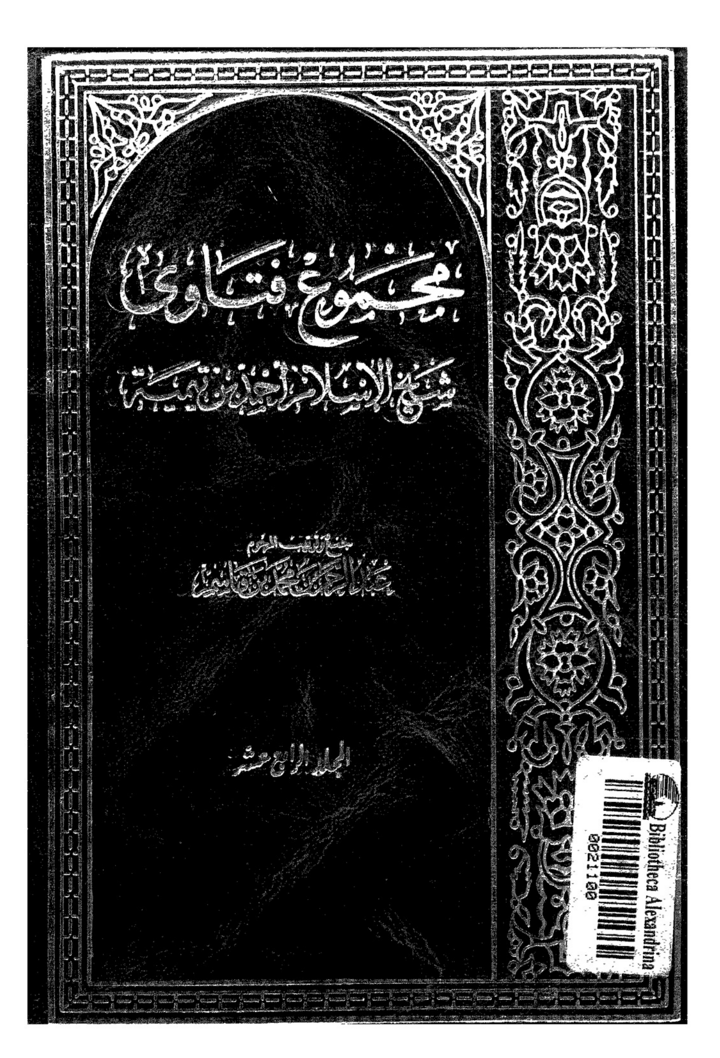

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
جمع وترتيب المرحوم
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
المجلد الرابع عشر
Bibliotheca Alexandrina
0021100



جمع وترتيب المرحوم

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

بمساعدة ابنه محمد

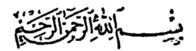
المجلد الرابع عشر

كتاب

التفسير

الجزء الاول

من سورة الفاتحة إلى سورة الاعراف



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه ونور ضريحه

فصل

اسماء القرآن

القرآن ، الفرقان ، الكتاب ، الهدى ، النور ، الشفاء ، البيـان ، الموعظة ، الرحمة ، بصائر ، البلاغ ، الكريم ، المجيد ، العزيز ، المبارك ، التنزيل ، المنزل ، الصراط المستقيم ، حبل الله ، الذكر ، الذكرى ، تذكرة (وانه لتذكرة للمتقين) (انه تذكرة فمن شاء ذكره) (مصدق لما بين يديه) و (تصديق الذي بين يديه) المهيمن عليه ، (تفصيل كل شيء) ، (تبياناً لكل شيء) ، المتشابه ، المثاني ، الحكيم (تلك آيات الكتاب

الحكيم) محكم ، المفصل (وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلاً) ، البرهان ، (قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبينا) على أحد القولين ، الحق (قد جاءكم الحق من ربكم) ، عربي مبين ، احسن الحديث ، احسن القصص على قول ، كلام الله (فاجره حتى يسمع كلام الله) ، العلم ، (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) ، العلي الحكيم (وانه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ، القيم ، (يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) (انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما) ، وحي فى قوله : (ان هو إلا وحي يوحى) ، حكمة فى قوله : (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة) ، وحكما فى قوله : (أنزلناه حكما عربيا) ونبأ على قول في قوله : (عن النبأ العظيم) ، ونذير على قول (هذا نذير من النذر الأولى) فى حديث ابى موسى شافعا مشفعا وشاهداً مصدقا ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم « حجة لك او عليك » وفى حديث الحارث عن على « عصمة لمن استمسك به » .

واما وصفه بانه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال : (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل) (هذا كتابنا ينطق عليكم) (قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب) أي يفتيكم ، أيضا (ان هذا القرآن يهدي للتى هي اقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون) .

فصـــــل

في الآيات الدالة على اتباع القرآن .

قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) فانه في التفسير المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الله[1] .

---

(١) بياض بالاصل .

وسئل رحمه الله

عن أحاديث هل هي صحيحة وهل رواها أحد من المعتبرين باسناد صحيح ؟ الخ . فقال :

فصـــــل

وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، فاذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدنى عبدي ، وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله : أثنى علي عبدي ، وإذا قال : (مالك يوم الدين) قال الله : مجدنى عبدي . وإذا قال : (إياك نعبد وإياك نستعين) قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فاذا قال : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »

وثبت فى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته » وفى بعض الأحاديث : « ان فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش »

فصل

قال الله تعالى : في أم القرآن والسبع المثاني والقرآن العظيم : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ وهذه السورة هى أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثانى والقرآن العظيم ، وهي الشافية وهي الواجبة فى الصلوات لا صلاة إلا بها ، وهى الكافية تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها .

والصلاة أفضل الأعمال . وهي مؤلفة من كلم طيب وعمل صالح ؛ أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها

بقوله تعالى : (إقرأ باسم ربك الذي خلق) وختمها بقوله : (واسجد واقترب) فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود .

ولهـذا قال سبحانه فى صلاة الخوف : (فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) والمراد بالسجود الركعة التى يفعلونها وحدهم بعـد مفارقتهم للامام ، وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح ، واستعاذة ، هي تحريم للصلاة ، ومقدمة لما بعده ، أول ما يبتدىء به كالتقدمة ، وما يفعل بعد السجود من قعود ، وتشهد فيه التحية لله ، والسلام على عباده الصالحين والدعاء والسلام على الحاضرين ، فهو تحليل للصلاة ومعقبة لمـا قبله ، قال النبي صلى الله عليـه وسلم : « مفتـاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التـكبير ، وتحليلها التسليم »

ولهذا لما تنازع العلماء أيما أفضل كثرة الركوع والسجود أو طول القيام أو هما سواء ؟ على ثلاثة أقوال عن أحمد وغيره : كان الصحيح أنهما سواء ، القيام فيـه أفضـل الأذكار ، والسجود أفضل الأعمـال فاعتدلا ؛ ولهذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم معتـدلة ، يجعل الأركان قريباً من السواء ، وإذا أطال القيام طولاً كثيراً ـــ كما كان يفعل فى قيام الليل وصلاة الكسوف ـــ أطال معه الركوع والسجود ، وإذا اقتصد فيه اقتصد فى الركوع والسجود ، وأم الكتـاب ، كما أنهـا القراءة الواجبة فهي أفضل سورة فى القرآن . قال النبي صلى الله عليه

وسلم فى الحديث الصحيح : « لم ينزل فى التوراة ولا الانجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » ، وفضائلها كثيرة جداً .

وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري رواه ابن ماجه وغيره ان الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع علمها فى الأربعة ، وجمع علم الأربعة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى أم القرآن ، وجمع علم أم القرآن فى هاتين الكلمتين الجامعتين (إياك نعبد وإياك نستعين) وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع فى هاتين الكلمتين الجامعتين .

ولهذا ثبت في الحديث الصحيح حديث : إن الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدى ولعبدي ما سأل . فاذا قال : (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدني عبدى ، وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى علي عبدى ، وإذا قال : (مالك يوم الدين) قال الله عز وجل : مجدني عبدى » وفى رواية : فوض إلي عبدى ، وإذا قال : (إياك نعبد وإياك نستعين) قال : فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، فاذا قال : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل »

فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده وأن هاتين الكلمتين مقتسم السورة ، ف (اياك نعبد) مع ما قبله لله ؛ وإياك نستعين مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال من قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة ، وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء .

وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين فى كل صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ؛ إذ إيجاب القول الذى هو إقرار واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له ، فان هذا لا يجوز أن يقع ؛ بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة ، فان ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب ، أو القلب والبدن ، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته . وتكليمه ومخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملا صورة ومعنى بالقلب وبسائر الجسد .

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً وغير إيجاب فى مواضع ، كقوله فى آخر سورة هود : (فاعبده وتوكل عليه) وقول العبد الصالح شعيب : (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وقول إبراهيم والذين معه : (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول : (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم

يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) .

فأمر نبيه بأن يقول : على الرحمن توكلت واليه متاب ، كما أمره بها فى قوله : (فاعبده وتوكل عليه) والامر له أمر لأمتـه ، وأمره بذلك فى أم القرآن وفى غيرها لأمتـه ليكون فعلهم ذلك طاعـة لله وامتثالا لأمره ، ولا يتقدموا بين يدى الله ورسوله ؛ ولهذا كان عامـة ما يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم والخـالصون من أمته من الأدعيـة والعبادات وغيرها إنما هو بأمر من الله ؛ بخلاف من يفعل مالم يؤمر به وإن كان حسناً او عفواً ، وهذا احد الاسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم ، وفضل الخالصين من أمته على المشوبـين الذين شابوا ما جاء به بغيره ، كالمنحرفين عن الصراط المستقيم .

وإلى هذين الاصلين كان النبي صـلى الله عليـه وسـلم يقصـد فى عباداته وأذكاره ومناجاته ، مثل قوله فى الاضحية : « اللهم هـذا منك ولك » فان قوله : « منك » هو معنى التوكل والاستعـانة ، وقوله : « لك » هو معنى العبادة ، ومثل قوله في قيـامه مـن الليل : « لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعـوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذى لا تموت ، والجن والانس يموتون » إلى امثال ذلك .

إذا تقرر هذا الأصل فالانسان فى هـذين الواجبين لا يخـلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة ، إما أن يأتي بهما ، وإمـا ان يأتى بالعبادة فقط ، وإما أن يأتى بالاستعانة فقط ، واما أن يتركهما جميعاً .

ولهذا كان الناس في هذه الاقسام الأربعة ؛ بل اهـل الديانات هم أهل هذه الاقسام . وهم المقصودون هنا بالـكلام .

قسم يغلب عليه قصد التأله لله ومتابعة الأمر والنهي والاخـلاص لله تعالى ، واتبـاع الشريعة في الخضـوع لأوامره وزواجره وكلمـاته الـكونيات ؛ لكن يكون منقوصاً مـن جانب الاستعـانة والتوكل ، فيكون إما عاجزاً وإما مفرطاً ، وهو مغلوب إما مع عدوه البـاطن ، واما مع عدوه الظاهر ، وربما يكثر منه الجزع ممـا يصيبه ، والحزن لما يفوته ، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره ، ويرى أنـه متبع للشريعة وللعبادة الشرعية ، ولا يعرف قضـاءه وقـدره ، وهو حسن القصـد طالب للحق ، لـكنه غـير عارف بالسبيل الموصـلة ، والطريق المفضية .

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيـات ؛ لكن يكون منقوصا من جانب العبادة واخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده

ان يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعاً لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ؛ بل قصده نوع سلطان فى العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير ، وإما سلطان كشف وإخبار ، او قصده طلب ما يريده ودفع ما يكرهه بأي طريق كان ، او مقصوده نوع عبادة وتأله بأي وجه كان همته فى الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده ، فيكون إما جاهلا وإما ظالما تاركا لبعض ما أمره الله به ، راكبا لبعض ما نهى الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوف ويتفقر ، ويشهد قدر الله وقضاءه ، ولا يشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه ، وإقامته لها ولا يشهد ما أمر به وما نهى عنه ، ومـا الذي يحبه الله منـه ويرضاه ، وما الذي يكرهه منه ويسخطه .

ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع انحلال عن بعض الشريعة ، ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل فى الاباحية والانحلال ، وربما صعد إلى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيد ، كما قد وقع لكثير من الشيوخ ، ويوجد فى كلام صاحب « منازل السائرين » وغيره ما يفضي إلى ذلك .

وقد يدخل بعضهم فى « الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود » فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق ، كما يقول صاحب « الفتوحات المكية » في أولها :

الرب حــق والعبد حــق　　ياليت شعري مــن المكلف

إن قلت عبــد فذاك ميت　　أو قلت رب أنى يــكلف

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعا .

وهم فريقان : أهل دنيا وأهل دين ، فأهل الدين منهم هم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون غير الله بظنهم وهــو اهم (إن يتبعون إلا الظن ومــا تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم مــن ربهم الهدى) وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون مــا يشتهونه مــن العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

واعلم أنه يجب التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه .

فصـــــل

قال الله عز وجل فى أول السورة : (الحمد لله رب العالمين) فبدأ بهذين الاسمين : الله ، والرب . و « الله » هــو الاله المعبود ، فهــذا الاسم أحق بالعبادة ؛ ولهذا يقال : الله أكبر . الحمد لله ، سبحان الله

لا إله إلا الله ، و « الرب » هو المربى الخالق الرازق الناصر الهادي ، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة .

ولهذا يقال : (رب اغفر لي ولوالدي) (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي) (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا) (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) . فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب .

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه ، وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله ، وهو عبادة الله ، والاسم الثانى يتضمن خلق العبد ومبتداه ، وهو أنه يربه ويتولاه ، مع أن الثانى يدخل فى الأول دخول الربوبية في الالهية ، والربوبية تستلزم الألوهية أيضاً . والاسم « الرحمن » يتضمن كمال التعلقين ، وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه .

ولهذا قال تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) فذكر هنا الاسماء الثلاثة : (الرحمن) و (ربى) و (الاله) وقال : (عليه توكلت واليه متاب) كما ذكر الأسماء الثلاثة فى أم القرآن ؛ لكن بدأ هناك باسم الله ؛ ولهذا بدأ فى السورة بـ (اياك نعبد) فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة ؛ لأن

تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن ، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية ، فانها علة فاعلية للعلة الغائية . وقد بسطت هذا المعنى فى مواضع ؛ فى أول « التفسير » وفى « قاعدة المحبة والارادة » وفي غير ذلك .

فصل

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم الى الاله المعبود ، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم اكثر من العبادة له ، والانابة اليه .

ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للاقرار بالربوبية ، وقد اخبر عنهم أنهم (لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)، وانهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه وقال : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) فأخبر أنهم مقرون بربوبيته ، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم

الضر في دعائهـــم واستغاثتهـــم ، ثم يعرضون عن عبادتـــه في حال حصول أغراضهم .

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهـــة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا اليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال إنمـا توجههم إلى الله من جهة ربوبيته ؛ لمـا يمدهم به فى الباطن من الاحوال التى بها يتصرفون ، وهؤلاء من جنس الملوك ، وقد ذم الله عز وجل فى القرآن هـذا الصنف كثيراً ، فتدبر هذا فانه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون فى الحقائق ، ويعملون عليها ، وهم لعمري فى نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الالهية ، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة ، وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به ، والله سبحانه أعلم .

فصـــــل

وذلك أن الانسان بل وجميع المخلوقات عباد لله تعالى فقراء اليه مماليك له ، وهو ربهـم ومليكهم وإلههم ، لا إله إلا هو ، فالمخـلوق ليس له من نفسه شيء أصلاً ؛ بل نفسه وصفاته وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك إنمـا هو من خلق الله ، والله عز وجل رب

ذلك كله ومليكه ، وبارئه وخالقه ، ومصوره .

وإذا قلنا ليس له من نفسه إلا العدم فالعدم ليس هو شيئا يفتقر إلى فاعل موجود ؛ بل العدم ليس بشيء ، وبقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل ، لا أن عدم الفاعل يوجبه ويقتضيه كما يوجب الفاعل المفعول الموجود ؛ بل قد يضاف عدم المعلول إلى عدم العلة ، وبينهما فرق ، وذلك أن المفعول الموجود إنما خلقه وأبدعه الفاعل ، وليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل ، فانه يفضى الى التسلسل والدور ؛ ولأنه ليس اقتضاء أحد العدمين للآخر بأولى من العكس ؛ فانه ليس أحد العدمين مميزاً لحقيقة استوجب بها أن يكون فاعلاً ، وان كان يعقل أن عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس ، فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى صار العقل يضيف عدمه إلى عدمه إضافة لزومية ؛ لأن عدم الشيء إما ان يكون لعدم المقتضى أو لوجود المانع . وبعد قيام المقتضى لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو الحالتين ؛ فلما كان الشيء الذي انعقد سبب وجوده يعوقه [ويمنعه] المانع المنافى وهو أمر موجود ، وتارة لا يكون سببه قد انعقد صار عدمه تارة ينسب إلى عدم مقتضيه ، وتارة إلى وجود مانعه ومنافيه .

وهذا معنى قول المسلمين : ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ؛ إذ

مشيئته هي الموجبة وحدها لا غيرها، فيلزم من انتفائها انتفاؤه لا يكون شيء حتى تكون مشيئته، لا يكون شيء بدونها بحال، فليس لنا سبب يقتضي وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده، بل مشيئته هي السبب الكامل، فمع وجودها لا مانع، ومع عدمها لا مقتضى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون).

وإذا عرف أن العبد ليس له من نفسه خير أصلاً، بل ما بنا من نعمة فمن الله، وإذا مسنا الضر فاليه نجأر، والخير كله بيديه، كما قال: (ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال: (أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم). وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى سيد الاستغفار الذي في صحيح البخاري: « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وقال فى دعاء الاستفتاح الذى فى صحيح مسلم:

« لبيك وسعديك ، والخير بيديك ، والشر ليس إليك ، تباركت ربنا وتعاليت »

وذلك أن الشر إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، فالمعدوم سواء كان عدم ذات أو عدم صفة من صفات كمالها أو فعل من أفعالها ، مثل عدم الحياة أو العلم ، أو السمع أو البصر ، أو الكلام أو العقل ، أو العمل الصالح على تنوع أصنافه ، مثل معرفة الله ومحبته وعبادته والتوكل عليه ، والانابة إليه ، ورجائه وخشيته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة ، من الاقوال والأفعال . فان هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات ؛ لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا ، حتى يكون له باريء وفاعل فيضاف إلى الله ، وإنما هو من لوازم النفس التي هي حقيقة الانسان قبل أن تخلق وبعد أن خلقت ؛ فانها قبل أن تخلق عدم مستلزم لهذا العدم ، وبعد أن خلقت — وقد خلقت ضعيفة ناقصة — فيها النقص والضعف والعجز فان هذه الأمور عدمية ، فأضيف إلى النفس من باب إضافة عدم المعلول إلى عدم علته ، وعدم مقتضيه ، وقد تكون من باب إضافته إلى وجود منافيه من وجه آخر سنبينه إن شاء الله تعالى .

و « نكتة الأمر » أن هذا الشر والسيئات العدمية ، ليست موجودة حتى يكون الله خالقها ، فان الله خالق كل شيء .

والمعدومات تنسب تارة إلى عدم فاعلها ، وتارة إلى وجود مانعها فلا تنسب إليه هذه الشرور العدمية على الوجهين :

أما « الأول » فلأنه الحق المبين فلا يقال عدمت لعدم فاعلها ومقتضيها .

وأما « الثانى » — وهو وجود المانع — فلأن المانع إنما يحتاج إليه إذا وجد المقتضى ، ولو شاء فعلها لما منعه مانع ، وهو — سبحانه — لا يمنع نفسه ما شاء فعله : بل هو فعال لما يشاء ؛ ولكن الله قد يخلق هذا سبباً ومقتضياً ومانعاً ، فان جعل السبب تاماً لم يمنعه شيء وإن لم يجعله تاماً منعه المانع لضعف السبب وعدم إعانة الله له ، فلا يعدم أمر إلا لأنه لم يشأه ، كما لا يوجد أمر إلا لأنه يشاؤه ، وإنما تضاف هـذه السيئات العدمية إلى العبد لعدم السبب منه تارة ، ولوجود المانع منه أخرى .

أما عدم السبب فظاهر ، فانه ليس منه قوة ولا حول ولا خير ولا سبب خير أصالة ، ولو كان منه شيء لكان سبباً فأضيف إليه لعدم السبب ؛ ولأنه قد صدرت منه أفعال كان سببا لها باعانة الله له ، فما لم يصدر منه كان لعدم السبب .

وأما وجود المانع المضاد له المنافى فلأن نفسه قد تضيق وتضعف وتعجز أن تجمع بين أفعال ممكنة فى نفسها ، متنافية في حقه ، فاذا إشتغل بسمع شيء أو بصره ، أو الكلام فى شيء أو النظر فيه أو إرادته ، أو اشتغلت جوارحه بعمل كثير اشتغلت عن عمل آخر ، وإن كان ذلك خيراً لضيقه وعجزه ؛ فصار قيام احدى الصفات والأفعال به مانعاً وصاداً عن آخر .

والضيق والعجز يعود إلى عدم قدرته ، فعاد إلى العدم الذي هو منه ، والعدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى ، وأما إن كان الشيء موجوداً كالألم وسبب الألم فينبغي ان يعرف ان الشر الموجود ليس شراً على الاطلاق ، ولا شراً محضاً ، وإنما هو شر فى حق من تألم به ، وقد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد .

ولهذا جاء في الحديث الذي رويناه مسلسلاً « آمنت بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره » وفى الحديث الذى رواه أبو داود : « لو أنفقت ملء الأرض ذهبا لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتعلم أن ما اصابك لم يكن ليخطئك ، وما اخطأك لم يكن ليصيبك » فالخير والشر هما بحسب العبد المضاف اليه كالحلو والمر سواء ، وذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شراً ، ومن تنعم به فهو في حقه خير ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن

يقول : « خيراً تلقاه وشراً توقاه ، خيراً لنا وشراً لأعدائنا » فانه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه ؛ فهو خير لهذا وشر لهذا ؛ ومن لم يكن له ولياً ولا عدواً فليس في حقه لا خيراً ولا شراً ، وليس فى مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائماً ، ولا ما يؤلم جمهورهم دائماً ؛ بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم فى أغلب الاوقات ، كالشمس والعافية ، فلم يكن في الموجودات التى خلقها الله ما هو شر مطلقاً عاماً .

فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص ، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن ، وهو أغلب وجهيه ، كما قال تعالى : (أحسن كل شيء خلقه) وقال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وقال تعالى : (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق) وقال : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا).

وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة ؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره ، ولا يكون فى المخلوقات شر محض لا خير فيه ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه ؛ وبهذا يظهر معنى قوله : « والشر ليس إليك » وكون الشر لم يضف إلى الله وحده ؛ بل إما بطريق العموم أو يضاف إلى السبب أو يحذف فاعله .

فهذا الشر الموجود الخاص المقيد سببه : إما عدم وإما وجـود ؛ فالعدم مثل عدم شرط أو جزء سبب ، إذ لا يكون سببه عدماً محضاً ، فان العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجود ؛ ولكن يكون سبب الخير واللذة قد انعقد ، ولا يحصل الشرط فيقع الألم ؛ وذلك مثل عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل وعـدم السمع والبصر والنطق الذي هو سبب الألم بالعمى والصمم والبكم ، وعدم الصحة والقوة ، الذي هوسبب الألم والمرض ، والضعف .

فهذه المواضع ونحوها يكون الشر ايضا مضافاً إلى العدم المضـاف إلى العبد ، حتى يتحقق قول الخليل : (وإذا مرضت فهـو يشفين) فان المرض وإن كان ألمـاً موجـوداً فسببه ضعف القوة ، وانتفـاء الصحة الموجودة ، وذلك عدم هو من الانسـان المعدوم بنفسـه ، ولا يتحقق قول الحق (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله : (قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) ونحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب وكذلك قول الصحابي : وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان .

يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان إنما يفعلها العبـد لجهله أو لحاجته ، فانـه إذا كان عالمـاً بمضرتهـا وهـو غني عنها امتنع أن يفعلها ، والجهل أصله عدم ، والحاجة أصلها العدم .

فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم والغنى ، ولهـــذا يقول في القرآن : (ما كانوا يستطيعون السمع) (أفلم تكونوا تعقلون) ؟ (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) إلى نحو هذه المعاني .

وأما الموجود الذي هـــو سبب الشر الموجود الذي هـــو خاص كالآلام ، مثل الأفعــال المحرمــة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار ، والفسوق الذي هو فعل المحرمات ونحو ذلــك . فان ذلك سبب الذم والعقاب ، وكذلك تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم ، فهذا الوجود لا يكون وجوداً تاماً محضــاً ؛ إذ الوجود التـــام المحض لا يورث إلا خيراً ، كما قلنا إن العـــدم المحض لا يقتضي وجوداً ؛ بل يكون وجوداً ناقصــاً إما في السبب وإمــا في المحل ، كما يكون سبب التكذيب عــــدم معرفة الحق والاقرار بـــه ، وسبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه ، من النظر التام ، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه .

وسبب عدم النظر والاستماع : إما عدم المقتضى فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس (والله لا يحب كل مختال فخور) وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحـــق فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

و « الحسد » أيضاً سببه عدم النعمة التي يصير بها مثـل المحسود أو أفضل منه ؛ فان ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحســود ، أو يتفضل عليه .

وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبـائح ، إنما سببها حاجــة النفس إلى الاشتفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، والا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك ، والحاجة مصدرها العــدم ، وهذا يبين ـــ إذا تدبره الانسان ـــ ان الشر الموجـــود إذا اضيف إلى عدم أو وجود فلا بد أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف الى عدم كمال السبب أو فوات الشرط ، وتارة يضاف إلى وجود ، ويعــبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص ، وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع ، والمانع لا يكون مانعــاً إلا لضعف المقتضــى ، وكل ما ذكرته واضح بين ، الا هذا الموضع ففيه غموض يتبين عند التأمل وله طرفان :

« احدهما » أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

و « الثــاني » أن الموجود لا يكون سبباً للعدم المحض ، وهـــذا معلوم بالبديهة ان الـكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود .

ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع ، كما قال تعالى : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟) يقول : أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم ؟

ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس ، وضرب المثال . والاستدلال عليه ممكن ، ودلائله كثيرة ، والفطرة عند صحتها أشد إقراراً به ، وهو لها أبده ، وهي إليه أشد اضطراراً من المثال الذي يقاس به .

وقد اختلف أهل الأصول فى العلة الشرعية ، هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمى فيها مع قولهم : إن العدمي يعلل بالعدمي ؟ فمنهم من قال : يعلل به ، ومنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من فصل بين ما لا يجوز أن يكون علة للوجود فى قياس العلة ، ويجوز أن تكون علته له في قياس الدلالة فلا يضاف إليه فى قياس الدلالة ، وهذا فصل الخطاب ، وهو أن قياس الدلالة يجوز أن يكون العدم فيه علة وجزءاً من علة ؛ لأن عدم الوصف قد يكون دليلا على وصف وجودي يقتضي الحكم .

وأما « قياس العلة » فلا يكون العدم فيه علة تامة ؛ لكن يكون جزءاً من العلة التامة وشرطا للعلة المقتضية التى ليست بتامة ، وقلنا : جزء من العلة التامة ، وهو معنى كونه شرطاً في اقتضاء العلة الوجودية ،

وهذا نزاع لفظي ، فاذا حققت المعاني ارتفع . فهذا في بيان أحد الطرفين وهو أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

وأما « الطرف الثاني » وهو أن الموجود لا يكون سبباً لوجود يستلزم عدماً فلأن العدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود ، بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ؛ ولأن السبب الموجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر ؛ بل إذا أثر الاعدام فالأعدام أمر وجودي فيه عدم ، فان جعل الموجود معدوماً والمعدوم موجوداً أمر معقول ، أما جعل المعدوم معدوماً فلا يعقل إلا بمعنى الابقاء على العدم ، والابقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل ، والفرق معلوم بين عدم الفاعل وعدم الموجب فى عدم العلة ، وبين فاعل العدم ، وموجب العدم ، وعلة العدم . والعدم لا يفتقر الى الثاني ؛ بل يكفي فيه الأول .

فتبين بذلك الطرفان ، وهو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون وجودا ما : لا سبباً ولا مسبباً ولا فاعلا ولا مفعولا أصلا فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم لا يكون سبباً لعدم أصلا ولا مسبباً عنه ولا فاعلا له ولا مفعولا ، أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولا له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فان كان سبباً لعدم محض فالعدم المحض لا يفتقر إلى سبب موجود ، وإن كان لعدم

فيه وجود فذاك الوجود لا بد له من سبب ولو كان سببه تاماً وهو قابل لما دخل فيه عدم ؛ فانه إذا كان السبب تاماً والمحل قابلا وجب وجود المسبب فحيث كان فيه عدم فلعدم مافى السبب أو فى المحل فلا يكون وجوداً محضاً .

فظهر أن السبب حيث تخلف حكمه إن كان لفوات شرط فهو عدم ، وإن كان لوجود مانع فانما صار مانعاً لضعف السبب ، وهو ايضاً عدم قوته وكماله ، فظهر أن الوجود ليس سبب العدم المحض ، وظهر بذلك القسمة الرباعية ، وهي أن الوجود المحض لا يكون إلا خيراً .

يبين ذلك ان كل شر فى العالم لا يخرج عن قسمين إما ألم وإما سبب الألم ، وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب ، والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم ، فكما يكون سببه تفرق الاتصال ؛ وتفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذى بينهما ، وهو الشر والفساد .

وأما سبب الألم فقد قررت فى « قاعدة كبيرة » أن اصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات ، وأن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات ، فصار أصل الذنوب عدم الواجبات ، وأصل الألم

عدم الصحة ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم فى خطبة الحاجة ان يقولوا : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنــا » فيستعيذ من شر النفس الذى نشأ عنها من ذنوبها وخطاياها ، ويستعيذ من سيئات الأعمال التى هي عقوباتها وآلامها ؛ فان قوله : « ومــن سيئات أعمالنا » قد يراد به السيئات فى الأعمال ، وقد يراد به العقوبات ؛ فان لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الانسان من الشر ، وقد يراد به الأعمال السيئة ، قال تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وقال تعالى : (وإن تصبهم سيئــة بما قدمت أيديهم فان الانســان كفور) .

ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال هى الشر والعقوبات الحاصلة بها فيكون مستعيذاً من نوعى السيئات : الأعمال السيئة وعقوباتها ، كما فى الاستعاذة المأمور بهــا فى الصلاة : « أعوذ بك مــن عذاب جهنم ، ومن عــذاب القبر ، ومن فتنة المحيــا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » فأمرنا بالاستعاذة من العذاب عذاب الآخرة وعذاب البرزخ ، ومن سبب العذاب ، ومن فتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ، وذكر الفتنة الخاصة بعد الفتنة العامة فتنة المسيح الدجال فانهــا أعظم الفتن ، كما فى الحديث الصحيح : « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال » .

فصـــــل

إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقـير إلى الله محتـاج إليه ليس فقيراً إلى سواه فليس هو مستغنياً بنفسه ولا بغـير ربه ؛ فان ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلى الله ، ومن المأثور عن أبي يزيد ـــ رحمه الله ـــ أنه قال : استغاثة المخـلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال : استغاثة المخـلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهـو كاستغاثة العدم بالعدم ؛ فان المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولا وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحـانه : (من ذا الذي يشفع عنـده إلا باذنه) وقال تعـالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال تعـالى : (وما هم بضارين به مـن أحد إلا باذن الله) واسم العبد يتنـاول معنيين .

« أحدهما » بمعنى العابد كرهاً كما قال : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) وقال : (وله أسـلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) وقال : (بديع السموات والأرض) (كل

له قانتـون) وقال : (ولله يسجد مـن في السمـوات والأرض طوعاً وكرهاً) .

و « الثاني » بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهذا هو المذكور في قوله : (وعباد الرحمن الذين يمشون عـلى الأرض هوناً) وقوله : (عينـاً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) وقوله : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقوله : (إلا عبـادك منهم المخلصين) وقوله : (يا عبـاد لا خوف عليـكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقوله : (واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب) وقوله : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقوله : (نعم العبد إنه أواب) وقوله : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) وقوله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) .

وهذه العبودية قد يخلو الانسان منها تارة ، وأما الأولى فوصف لازم ، إذا أريد بها جريان القدر عليه وتصريف الخـالق له ، قال تعـالى : (أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟) وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضـوع والذل ، لا مجرد تصريف الرب لهـم ، كما في قوله : (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) ، وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لـكل عبد لا بد له مـن ذلك ، وإن

كان قد يعرض له أحياناً الاعراض عن ربه والاستكبار، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل له ؛ لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة ، فاذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كما قال : (وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) وقال : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفوراً) .

وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هي أنها لخالقها وفاطرها إذ لا قيام لها بدونه ، وإنما يفترق الناس فى شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه عن قلوبهم .

و « أيضاً » فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبه ومراده ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا ، وأصل الحركات الحب ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد ؛ وإنما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله ، والانسان فقير الى الله من جهة عبادته له ومن جهة استعانته به للاستسلام والانقياد لمن أنت إليه فقير وهو ربك وإلهك .

وهـذا العلم والعمـل أمر فطري ضروري ؛ فان النفوس تعلم فقرها الى خالقها ، وتذل لمن افتقرت إليه ، وغناه مـن الصمدية التى انفرد بها ، فانه (يسأله مـن فى السموات والأرض) وهـو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيهـا حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والانابة اليه ؛ فان العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره فى أن يعبد ربه وينيب إليه ، وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار اليه ؛ فان جميع الـكائنات حادثة بمشيئته ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة إليه ، فقيرة إليه ، مسلمة له طوعاً وكرهاً ، فاذا شهد العبد ذلك وأسلم له وخضع فقد آمن بربوبيته ، ورأى حاجته وفقره إليه صـار سائلا له متوكلا عليه مستعيناً به إما بحاله أو بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته .

ثم هذا المستعين به السائل له إما أن يسأل ما هو مأمور به ، أو ما هو منهى عنه ، أو ما هو مبـاح له ؛ فـ « الأول » حال المؤمنين السعداء الذين حالهم (إياك نعبـد وإياك نستعين) و « الثـانى » حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون فى عبادته ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين الخزاعى :

« يا حصين ، كم تعبد ؟ قال : سبعة آلهة : ستة فى الأرض وواحدا فى السماء ، قال : فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي فى السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها ، فأسلم ، فقال : قل : اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » رواه أحمد وغيره .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادي عني فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعى اذا دعاه ، فهذا اخبار عن ربوبيته لهم ، وإعطائه سؤلهم ، واجابة دعائهم ؛ فانهم اذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفساقاً أو عصاة ، قال تعالى : (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) وقال تعالى : (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) ونظائره في القرآن كثيرة ، ثم أمرهم بأمرين فقال : (فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ف « الأول » أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والإستعانة . و « الثانى » الايمان بربوبيته وألوهيته ، وأنه ربهم وإلههم .

ولهذا قيل : إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال

الطاعة ؛ لأنــه عقب آية الدعاء بقوله : (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي)
والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التى فيها سعادته ونجاته ، وأما اجابة
دعائه وإعطاء سؤاله فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة ، قال تعـالى :
(ويدعو الانســان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الانســان عجولا) وقال
تعالى : (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم)
وقال تعالى عن المشركين : (وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق
من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم) وقال :
(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وان تنتهوا فهو خير لـكم) وقال :
(ادعوا ربكم تضرعا وخفيــة إنه لا يحب المعتــدين) وقال : (واتل
عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منهـا فأتبعه الشيطان فـكان مـن
الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ؛ ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه)
الآية وقال : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا
ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفســكم ، ثم نبتهل
فنجعل لعنة الله عــلى الـكاذبين) وقال النبي صلى الله عليــه وســلم لما
دخل على أهل جابر فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخــير ؛ فان
الملائـكة يؤمنون على ما تقولون » .

فصـــــل

فالعبد كما انه فقير الى الله دائماً فى إعانته وإجابة دعوته وإعطاء سؤاله وقضاء حوائجه فهو فقير اليه فى ان يعلم ما يصلحه وما هو الذي يقصده ويريده وهـذا هو الأمر والنهي والشريعـة ، والا فاذا قضيت حاجته التى طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له كان ذلك ضرراً عليه ، وإن كان في الحال له فيه لذة ومنفعة فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة وهذا قد عرفه الله عباده برسله وكتبـه : علموهم ، وزكوهم ، وأمروهم بمـا ينفعهم ، ونهوهم عما يضرهم ، وبينوا لهـم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو الله وحده لا شريك له ؛ كما أنه هو ربهم وخالقهم ، وأنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسراناً مبيناً ، وضلوا ضلالا بعيداً ، وكان ما أوتوه مـن قوة ومعرفـة وجاه ومال وغير ذلك ــ وإن كانوا فيه فقراء الى الله مستعينين بـه عليه ، مقرين بربوبيته ــ فانه ضرر عليهم . ولهم بئس المصير وسوء الدار .

وهـذا هو الذي تعـلق به الأمر الديني الشرعى والارادة الدينية

الشرعيــة ، كما تعــلق بالأول الأمر الكونى القــدري والارادة الكونية القدرية .

والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالاعانة والهداية ؛ فانه بين لهم هداهم بارسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأعانهم على اتبــاع ذلك علماً وعملا ، كما من عليهم وعلى سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهــم وعافاهم ، ومن على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهــم وحاجتهم إليه ، وأعطاهم سؤلهم ، وأجاب دعاءهم ، قال تعالى : (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شــأن) فــكل أهــل السموات والأرض يسألونه ، فصارت الدرجات أربعة .

« قوم » لم يعبــدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم .

و « قوم » استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

و « قوم » طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

و « الصنف الرابع » الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وقــد بين سبحانه ما خص به المؤمنين فى قوله : (حبب إليــكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليــكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أفضــل المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين .

قال شيخ الاسلام

أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى

فصل

والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء ؛ فانه لا نجاة من العذاب ولا وصول الى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، واما من الضالين وهـذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهـذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية .

وأما سؤال من يقول فقـد هداهم فـلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به ؛ فان (الصراط المستقيم) أن يفعل العبد فى كل وقت ما أمر به فى ذلك الوقت من علـم وعمل ، ولا يفعل ما نهي عنـه ، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت

وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور ، فهذا العلم المفصل والارادة المفصلة لا يتصور ان تحصل للعبد فى وقت واحد ، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والارادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم .

نعم ! حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسول حق ، ودين الاسلام حق ، وذلك حق ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه ان لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التى يحار فيها اكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى والشهوات اكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم .

والانسان خلق ظلوما جهولا ، فالاصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل فى محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه واعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه الى علم ينافى جهله ، وعدل ينافى ظلمه ، فان لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً) إلى قوله تعالى : (ويهديك صراطا

مستقيما) فاذا كان هذه حاله فى آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

و (الصراط المستقيم) قد فسر بالقرآن ، وبالاسلام ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق . فهو موصوف بهذا وبغيره ، فـ « القرآن » مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونواهي واخبار وقصص وغير ذلك ان لم يهد الله العبد اليها فهو جاهل بها ضال عنها ، وكذلك « الاسلام » وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك « العبادة وما اشتملت عليه » .

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ؛ بخلاف حاجته الى الرزق والنصر فان الله يرزقه ، فاذا انقطع رزقه مات ، والموت لابد منه ، فاذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده ، وكان الموت موصلا إلى السعادة الأبدية ، وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فانه يموت شهيداً وكان القتل من تمام النعمة ، فتبين ان الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق ؛ بل لا نسبة بينهما ؛ لأنه إذا هدي كان من المتقين (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن نصر الله نصره الله ، وكان من جند الله ، وهم الغالبون ؛ ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض .

و « أيضاً » فانه يتضمن الرزق والنصر ؛ لأنه إذا هدى ، ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى التام اعظم ما يحصل به الرزق والنصر ، فتبين ان هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ، وهذا مما يبين لك ان غير الفاتحة لا يقوم مقامها ، وان فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فاذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم .

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليما كثيراً .

قال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليــه « سورة البقــرة » من تقرير أصول العلم وقواعد الدين : ان الله تعالى افتتحها بذكر كتابـه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ، ثم الكافرين ، ثم المنافقين . فهذه « جمل خبرية » ثم ذكر « الجمل الطلبية » فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الارض وبناء السماء وإنزال الماء واخراج الثمار رزقا للعباد ، ثم قرر « الرسالة » وذكر « الوعد ، والوعيد » ثم ذكر مبدأ « النبوة والهدى » وما بثه فى العالم من الخلق والامر ، ثم ذكر تعليم آدم الاسماء ، واسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم ؛ فان هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد صلى الله عليــه وسلم من الهدى ودين الحق ، فقص جنس دعوة الأنبياء .

ثم انتقل إلى خطاب بنى اسرائيل وقصة موسى معهــم ، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمــد ، فذكر آدم الذي هــو أول ،

وموسى الذي هو نظيره ، وهما اللذان احتجا ، وموسى قتل نفساً فغفر له ، وآدم أكل من الشجرة فتـاب عليه ، وكان فى قصة موسـى رد على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به ، وقد يتأولون أخبار الأنبياء ، وفيها رد على أهـل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسـلم ، وتقرير نبوته ، وذكر حال من عـدل عن النبوة إلى السحر ، وذكر النسـخ الذي ينكره بعضهم ، وذكر النصارى وان الامتين لن يرضوا عنـه حـتى يتبـع ملتهـم . كل هـذا فى تقرير أصـول الدين من الوحدانية والرسالة .

ثم أخذ سبحانه فى بيان شرائع الاسلام التى عـلى ملة إبراهيم ، فذكر ابراهيم الذي هو امام ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهـل الاسلام عما سواهم ، وذكر استقباله ، وقرر ذلك ؛ فانه شعار الملة بين اهلها وغيرهم ؛ ولهذا يقال : أهل القبلة ، كما يقال : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم » .

وذكر من « المناسـك » ما يختص بالمـكان ، وذلك ان الحـج له مكان وزمان ، و « العمرة » لهـا مكان فقط ، والعـكوف والركوع والسجود شرع فيه ؛ ولا يتقيد به ، ولا بمكان ، ولا بزمان ؛ لكن الصلاة تتقيـد باستقباله . فذكر سبحانه هـذه الأنواع الخمسة : من العكوف ،

والصلاة ، والطواف ، والعمرة ، والحج ، والطواف يختص بالمكان فقط ، ثم اتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين وانه لا جناح فيه جوابا لما كان عليه الانصار فى الجاهلية من كراهة الطواف بهما لأجل اهلالهم لمناة ، وجوابا لقوم توقفوا عن الطواف بهما .

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت — بل وبالقلوب والابدان والاموال — بعد ما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما ، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر ؛ لأن ذلك من تمام أمر البيت ؛ لأن أهل الملل لا يخالفون فيه ، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه ، وذكر الصبر على المشروع والمقدور ، وبين ما أنعم به على هذه الامة من البشرى للصابرين ، فانها أعطيت مالم تعط الامم قبلها ، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ؛ ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما فى سبيل الله فأما الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنص والاجماع ، وكذلك الحج فى الأصح كما قال : « الحج من سبيل الله » .

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بذمه لكاتم العلم ، ثم ذكر أنه لا يقبل ديناً غير ذلك . ففي أولها : (فلا تجعلوا لله أنداداً) وفى أثنائها . (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) فـ « الأول » نهي عام و « الثاني » نهي خاص ، وذكرها بعد البيت لينتهى عن قصد

الأنداد المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ، ووحد نفسه قبل ذلك ، وأنه (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ، ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات .

ثم ذكر الحلال والحرام ، وأطلق الأمر في المطاعم ؛ لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت ، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة ، وفي الدماء بما شرعه من القصاص ، ومن أخذ الدية ، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان ، فذكر الوصية المتعلقة بالموت ، ثم الصيام المتعلق برمضان ، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فانه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوبا بوقت الصيام ، ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة ؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام ، والصلاة تشرع فى جميع الأرض ، والعكوف بينهما .

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل ، وأخبر أن المحرم « نوعان » : نوع لعينه كالميتة ، ونوع لكسبه كالربا والمغصوب ، فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه ، وذكر فى أثناء عبادات الزمان المنتقل الحرام المنتقل ؛ ولهذا أتبعه بقوله : (يسألونك عن الأهلة) الآية ، وهي أعلام العبادات الزمنية ، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس فى أمر دينهم ودنياهم وللحج لأن البيت تحجه الملائكة والجن ، فكان هذا أيضا

فى أن الحج موقت بالزمان كأنه موقت بالبيت المكاني ؛ ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمــان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة .

وذكر « المحصر » وذكر تقديم الاحلال المتعلق بالمال وهو الهدي عن الاحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق ، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ؛ ولهذا كان آخر ما يحل عــين الوطء فانه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحظور سواه .

وذكر « التمتع بالعمرة إلى الحــج » لتعلقه بالزمان مع المكان فانه لا يكون متمتعاً حتى يحرم بالعمرة فى أشهر الحج ، وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام ــ وهو الأفقي ــ فانه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه ، أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ، ثم ذكر وقت الحج ، وأنه أشهر معلومات وذكر الاحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ؛ فان هــذا مختص بزمان ومكان ؛ ولهذا قال : (فمن فرض فيهن الحج) ، ولم يقل : (والعمرة) لأنها تفرض فى كل وقت ، ولا ريب أن السنة فرض الحج في أشهره ، ومن فرض قبله خالف السنة ، فاما ان يلزمه ما التزمــه كالنذر ــ إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت ــ واما ان يلزم

الاحرام ويسقط الحج ويكون معتمراً وهذان قولان مشهوران .

ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره ، وقضاؤها ـــ والله أعلم ـــ قضاء التفث والاحلال ؛ ولهذا قال بعد ذلك : (واذكروا الله في أيام معدودات) وهذا أيضاً من العبادات الزمانية المكانية . وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ، ودل على أنه مكاني قوله : (فمن تعجل فى يومين) الآية ، وإنما يكون التعجيل والتأخير فى الخروج من المكان : ولهذا تضاف هذه الأيام إلى مكانها فيقال : أيام منى ، وإلى عملها فيقال : أيام التشريق ، كما يقال : ليلة جمع ، وليلة مزدلفة ، ويوم عرفة ، ويوم الحج الأكبر ، ويوم العيد ، ويوم الجمعة فتضاف إلى الأعمال وأماكن الأعمال ؛ إذ الزمان تابع للحركة ، والحركة تابعة للمكان .

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض ، وكيف ذكر أحكام الحج فيها فى موضعين : مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه ، وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه ، وذكر أيضا القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام ؛ لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان ؛ ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج .

وذكر ان « البر » ليس أن يشقي الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة

فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيته حتى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلا من ظهره فأخبر ان الهلال الذي جعل ميقاتاً للحج شرع مثل هذا ، وإنما تضمن شرع التقوى ، ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات ، وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك ، ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين فى كتابه المبين .

والحمد لله رب العالمين.

قال شيخ الاسلام

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير » إلا ماهو خطأ :

منها قوله : (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) الآية ، ذكر ان المشهور ان (السيئة) الشرك ، وقيل الكبيرة يموت عليها قاله عكرمة ، قال مجاهد : هي الذنوب تحيط بالقلب .

قلت : الصواب ذكر أقوال السلف وان كان فيها ضعيف فالحجة تبين ضعفه ، فلا يعدل عن ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة ، وهم ينقلون عن بعض السلف أن هذه الآية أخطأ فيها الكاتب كما قيل فى غيرها ، ومن انكر شيئاً من القرآن بعد تواتره استتيب فان تاب وإلا قتل ، واما قبل تواتره عنده فلا يستتاب ؛ لكن يبين له ، وكذلك الاقوال التى جاءت الأحاديث بخلافها : فقها ، وتصوفا واعتقاداً ، وغير ذلك .

وقول مجاهد صحيح ، كما في الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد

نكت فى قلبه نكتة سوداء » الخ ، والذي يغشى القلب يسمى « رينا »
و « طبعا » و « ختما » و « قفلا » ونحو ذلك ، فهذ ما اصر عليـه .
و « احاطة الخطيئة » إحداقها به فلا يمكنه الخروج ، وهذا هو البسل
بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها فى الدارين ؛ فان المعاصي
قيد وحبس لصاحبها عن الجولان فى فضاء التوحيـد ، وعن جنى ثمـار
الاعمال الصالحة .

ومن المنتسبين إلى السنة من يقول : ان صاحب الكبيرة يعـذب
مطلقاً والاكثرون على خلافه ، وان الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات
وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن ؛ لكن تفسير السيئة بالشرك
هو الأظهر ؛ لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط ، فلو كان واحداً لم
يغاير ، والمشرك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و « أيضـا » قوله (سيئـة) نكرة ، وليس المـراد جنس
السيئات بالاتفاق .

و « أيضا » لفظ (السيئة) قد جاء فى غير موضع مرادا به الشرك
وقوله : (سيئة) أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله :
(ربنا آتنا في الدنيا حسنة) أي حالاً حسنة تعم الخير كله ، وهذا اللفظ
يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الاسمية ، ويستعمل لازمـا او

متعديا يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله : (والذين كسبوا السيئات جـزاء سيئة بمثلها) عمـلوا الشرك ؛ لأنه وصفهم بهذا فقط ، ولو آمنوا لـكان لهم حسنات ، وكذا لما قال : (كسب سيئة) لم يذكر حسنة كقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى) أي فعلوا الحسنى ، وهو مـا أمروا به ، كذلك (السيئـة) تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك .

وقال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

قال الله تعالى : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين) وقال تعالى : (فلنسألن الذين أرسل اليهم ، ولنسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) وقد قال تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) قال طائفـــة من السلف : « الغيب » هو الله ، أو من الايمـان بالغيب الايمان بالله . ففي موضع نفى عن نفسه ان يكون غائباً ، وفى موضع جعله نفسه غيباً .

ولهــذا اختلف الناس في هــذه المسألة ، فطائفة مــن المتكلمين من أصحابنا وغيرهم ــ كالقاضي وابن عقيل وابن الزاغونى ــ يقولون: بقياس الغائب على الشاهد ، ويريدون بالغائب الله ، ويقولون : قيـاس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعــلة والدليل والشرط . كما يقولون

فى مسائل الصفات في إثبات العلم والخبرة والارادة وغير ذلك . وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد فى رسالته الى أهل رأس العين ، وقال : لا يسمى الله غائباً واستدل بما ذكر .

وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم « الغيب ، والغائب » من الأمور الاضافية يراد به ماغاب عنا فلم ندركه ، ويراد به ماغاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيبا مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا في السماء ، فليس هو غائباً وإنما [لما] لم يره العباد كان غيبا ؛ ولهذا يدخل فى الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب ؛ فان « الغائب » اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب ، وأما « الغيب » فهو مصدر غاب يغيب غيباً ، وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور ، وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الامير .

ولهذا يقرن الغيب بالشهادة ، وهي أيضاً مصدر ، فالشهادة هي المشهود أو الشاهد ، والغيب هو إما المغيب عنه فهو الذي لا يشهد نقيض الشهادة ، وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهده فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه

على النسبة الى الغير أي ليس هو بنفسه غائبا، وإنما غاب عن الغـــير أو غاب الغير عنه .

وقد يقال اسم « الشهـادة ، والغيب » يجمع النسبتين ، فالشهادة ما شهدنا وشهدناه ، والغيب ما غاب عنـا وغبنا عنه فلم نشهده ، وعـلى كل تقدير فالمغنى فى كونه غيبـا هو انتفاء شهود نـاله ، وهـذه تسمية قرآنية صحيحة ، فلو قالوا : قياس الغيب عـــلى الشهادة لـكانت العبارة موافقة ، واما قياس الغائب ففيه مخالفة في ظاهر اللفظ ولكن موافقة في المعنى ؛ فلهذا حصل في اطلاقه التنازع .

وقال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصل

المثل في الأصل هو الشبيه وهو نوعان ، لأن القضية المعينة اما ان تكون شبهاً معيناً او عاما كلياً ، فان القضايا الكلية التى تعلم وتقال هي مطابقة مماثلة لكل ما يندرج فيها ، وهذا يسمى قياساً فى لغة السلف واصطلاح المنطقيين ، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين هو ايضاً يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء ، وهو الذي يسمى قياس التمثيل .

ثم من متأخري العلماء — كالغزالى وغيره — من ادعى ان حقيقة القياس إنما يقال على هذا ، وما يسميه تأليف القضايا الكلية قياساً فمجاز من جهة انه لم يشبه فيه شيء بشيء ، وانما يلزم من عموم الحكم تساوى افراده فيه ، ومنهم من عكس كابى محمد بن حزم ، فانه زعم

ان لفظ القيـاس إنمـا ينبغي ان يـكون فى تلك الامور العامة وهو القياس الصحيح .

والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما فى القرآن ، كما سأذكره ان كلاهما قياس وتمثيل واعتبار ، وهو فى قياس التمثيل ظاهر ، واما قياس التكليل والشمول فلانه يقاس كل واحد من الافراد بذلـك المقيـاس العام الثابت فى العلم والقول ، وهو الاصل ، كما يقاس الواحد بالأصل الذي يشبهه ، فالاصل فيهما هو المثل ، والقياس هو ضرب المثل ، واصله — والله أعلم — تقديره ، فبضرب المثل للشيء تقديره له ، كما ان القياس اصله تقدير الشيء بالشيء ، ومنه ضرب الدرهم وهو تقديره ، وضرب الجزية والخراج وهو تقديرها ، والضريبة المقدرة والضرب في الارض ، لأنه يقدر اثر الماشي بقدره ، وكذلك الضرب بالعصى لأنه تقـدير الألم بالآلة ، وهو جمعه وتأليفه وتقديره ، كما أن الضريبة هي المال المجموع والضريبة الخلق ، وضرب الدرهم جمع فضة مؤلفة مقدرة ، وضرب الجزية والخراج إذا فرضـه وقدره عـلى مر السنين ، والضرب فى الارض الحركات المقدرة المجموعة إلى غاية محدودة ، ومنه تضريب الثوب المحشو وهو تأليف خلله طرائق طرائق .

ولهذا يسمون الصورة القياسية الضرب ، كما يقال للنوع الواحد ضرب لتألفه واتفاقه ، وضرب المثل لما كان جمعاً بـين علمين يطلب منها علم

ثالث كان بمنزلة ضراب الفحل الذى يتولد عنه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب إلى ناتج وعقيم ، كما ينقسم ضرب الفحل للأنثى الى ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعي ضرب المثل — وهو القياس — تارة يراد به التصوير وتفهيم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصديق به ، فقياس تصور وقياس تصديق فتدبر هذا .

وكثيراً ما يقصد كلاهما ، فان ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه . وضرب الأمثال في المعانى نوعان هما نوعا القياس :

« أحدهما » الأمثال المعينة التى يقاس فيها الفرع باصل معين موجود او مقدر ، وهي فى القرآن بضع واربعون مثلا ، كقوله : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) الى آخره وقوله : (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب) الآية (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين) .

فان التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال

هو من جنس قياس التمثيل ، الذي يقال فيه : مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ، ومثل المرة تقــع فى الزيت كمثل الفأرة تقع في السمن ونحو ذلك ، ومبناه على الجمع بينهما ، والفرق في الصفات المعتبرة في الحكم المقصود اثباته أو نفيه ، وقوله : مثله كمثل كذا . تشبيه للمثل العلمي بالمثل العلمي لأنه هو الذي بتوسطه يحصل القيــاس ، فان المعتبر ينظر فى احدهما فيتمثل في علمه ، وينظر فى الآخر فيتمثل فى علمه ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر فيجدهما سواء ، فيعلم انهما سواء فى انفسهما لاستوائهما فى العلم ، ولا يمكن اعتبار احدهما بالآخر فى نفسه حتى يتمثل كل منهما فى العلم ، فان الحكم على الشيء فرع على تصوره ؛ ولهذا والله أعلم يقال مثل هذا كمثل (١)

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله : (ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار ، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ؟) الى قوله : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) فان هذا يحتاج الى تفكر ؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي ارضاه .

ونظير ذلك ذكر القصص ، فانها كلها أمثال هي أصول قيــاس

(١) بياض بالاصل .

واعتبار . ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها ، لأن كل إنسان له فى حالة منها نصيب ، فيقال فيها : (لقد كان فى قصصهـم عبرة لأولى الألباب) ويقال عقب حكايتها : (فاعتبروا ياأولى الأبصار) ويقال : (قد كان لكم آية في فئتين التقتا) الى قوله : (ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) والاعتبار هو القياس بعينه ، كما قال ابن عبـاس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنـان أي قيسوها بها ، فان الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع ، فكذلك الأصابع . ويقال : اعتبرت الدراهم بالصنجة اذا قدرتها بها .

« النوع الثاني » الأمثال الكلية ، وهذه التى اشكل تسميتها أمثالا ، كما أشكل تسميتها قياساً ، حتى اعترض بعضهم قوله : (يا ايهـا الناس ضرب مثل فاستمعوا له) فقال : اين المثـل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقـد رأوا عدد ما فيه مـن تلك الأمثال المعينة بضعاً وأربعين مثلا .

وهذه « الأمثال » تارة تكون صفات ، وتارة تكون أقيسة ، فاذا كانت أقيسة فلا بد فيها من خبرين هما قضيتان وحكمان ، وانه لابد ان يكون احدهما كلياً ؛ لأن الأخبار التى هي القضايا لمـا انقسمت الى معينة ومطلقة وكلية وجزئية ، وكل من ذلك انقسم الى خبر عن اثبات

وخبر عن نفي ، فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عام وقضية كلية ، وذلك هو المثل الثابت فى العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها ، فلولا عمومه لما امكن الاعتبار لجواز ان يكون المقصود حكمه خارجاً عن العموم ؛ ولهذا يقال: لا قياس عن قضيتين جزئيتين ، بل لا بد أن تكون احداها كلية ، ولا قياس أيضاً عن سالبتين ؛ بل لا بد أن تكون احداها موجبة ، والا السلبان لايدخل احدهما فى الآخر لا بد فيه من خبر يعم .

وجملة ما يضرب من الأمثال ستة عشر ؛ لأن الأولى اما جزئية واما كلية ، مثبتة او نافية ، فهذه أربعة اذا ضربتها فى أربعة صارت ستة عشر ، تحذف منها الجزئيتين سواء كانتا موجبتين او سالبتين ، او احداها سالبة والأخرى موجبة ، فهذه ست من ستة عشر ، والسالبتين سواء كانتا جزئيتين أو كليتين ، او احداهما دون الأخرى ؛ لكن اذا كانتا جزئيتين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفين من ستة عشر ، ويحذف منها السالبة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية ؛ لأن الكبرى اذا كانت جزئية لم يجب ان يلاقيها السلب ؛ بخلاف الايجاب ، فان الايجابين الجزئيين يلتقيان ، وكذلك الايجاب الجزئي مع السلب الكلي يلتقيان لاندراج ذلك الموجب تحت السلب العام .

يبقى من الستة عشر ستة أضرب ، فاذا كانت احداها موجبة كلية جاز فى الأخرى الأقسام الأربعة ، واذا كانت سالبة كلية جاز ان تقارنها الموجبتان ، لكن تقدم مقارنة الكلية لها ، ولا بد فى الجزئية ان تكون صغرى ، واذا كانت موجبة جزئية جاز ان تقارنها الكليتان ، وقد تقدمتا ، واذا كانت سالبة جزئية لم يجز ان يقارنها الا موجبة كلية ، وقد تقدمت ، فيقر الناتج ستة ، والملغى عشرة وبالاعتبارين تصير ثمانية .

فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الايجاب العام ، ولا بد فى جميع ضروبه من احد أمرين ، إما إيجاب وعموم ، وإما سلب وخصوص ، فنقيضان لا يفيد اجتماعها فائدة ؛ بل إذا اجتمع النقيضان من نوعين كسالبة كلية وموجبة جزئية فتفيد بشرط كون الكبرى هي العامة ، فظهر أنه لا بد فى كل قياس من ثبوت وعموم ، إما مجتمعين فى مقدمة وإما مفترقين فى المقدمتين .

وأيضاً مما يجب ان يعلم ان غالب الأمثال المضروبة ، والأقيسة إنما يكون الخفي فيها احدى القضيتين ، واما الأخرى فجلية معلومة ، فضارب المثل وناصب القياس انما يحتاج ان يبين تلك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لما قارنها فى الفعل من القضية السلبية ، والجلية هي الكبرى التى هي اعم .

فان الشيء كلما كان اعم كان اعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل ، وخير الكلام ما قل ودل ؛ فلهذا كانت الأمثال المضروبة فى القرآن تحذف منها القضية الجلية لأن فى ذكرها تطويلاً وعياً ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين بعد تطويلا .

واعتبر ذلك بقوله : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) ما أحسن هذا البرهان ! فلو قيل بعده : وما فسدتا فليس فيهما آلهة الا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل ، وانما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف فى الهجاء والخط اذا علمنا الصبي الخط نقول : « با » « سين » « ميم » صارت (بسم) فاذا عقل لم يصلح له بعد ذلك ان يقرأه تهجياً فيذهب ببهجة الكلام؛ بل قد صار التأليف مستقراً ، وكذلك النحوى اذا عرف ان « محمد رسول الله» مبتدأ وخبر لم يلف كلما رفع مثل ذلك ان يقول : لأنه مبتدأ وخبر . فتأليف الأسماء من الحروف لفظاً ومعنى ، وتأليف الكلم من الأسماء ، وتأليف الأمثال من الكلم جنس واحد .

ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولا فى مفردات الألفاظ والمعاني التى هي الأسماء ، ثم يتكلمون فى تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقصة والحكم ، ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو « القياس » و « البرهان » و « الدليل » و « الآية »

و « العلامة » . فهذا مما ينبغي ان يتفطن له ، فان من أعظم كمال القرآن تركه في امثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة التى قد علم من اول الكلام انها هي المقصود ؛ بل انما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، واما ما لا حاجة الى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض اولئك : الطريقة الكلامية البرهانية فى أساليب البيان ليست فى القرآن الا قليلا ، وقال الثاني : انه ليس فى القرآن برهان تام ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فانه ليس فى القرآن الا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر .

و « أيضاً » فينبغي ان يعرف ان مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والايجاب ؛ فانه ما من خبر الا وهو اما عام او خاص : سالب او موجب ، فالمعين خاص محصور ، والجزئى أيضاً خاص غير محصور ، والمطلق اما عام واما في معنى الخاص .

فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف « صيغ النفي والعموم » فان ذلك يجيء فى القرآن على نظام .

مثال ذلك ان « صيغة الاستفهام » يحسب من أخذ ببادىء الرأي أنها لا تدخل في القيــاس المضروب ؛ لأنه لا يدخــل فيه إلا القضايا الخبرية ، وهذه طلبية ، فاذا تأمل وعلم أن اكثر استفهامات القرآن او كثيراً منها انما هي استفهام انــكار معنــاه الذم والنهي ان كان انــكاراً شرعياً ، او معناه النفي والسلب أن كان انــكار وجود ووقوع ، كما فى قوله : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : مــن يحيي العظام وهي رميم) (ضرب لــكم مثلا من أنفسكم هل لــكم مما ملــكت ايمانكم من شركاء فيما رزقنا كم) الآية ، وكذلك قوله : (آلله خير أم ما يشركون) وقوله في تعديد الآيات : (أإله مــع الله) اي أفعل هــذه إله مع الله ؟ ! والمعنى ما فعلها الأ الله ، وقوله : (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون) وما معها .

وهذا الذي ذكرناه الذي جاء به القرآن هو ضرب الأمثــال من جهة المعنى ، وقد يعبر في اللغة بضرب المثل او بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة ؛ لكن لا يستفاد منه الدليل على الحــكم كأمثال القرآن ، وهو ان يكون الرجل قد قال كلمة منظومة او منثورة لسبب اقتضاه فشاعت فى الاستعمال ، حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأول ، وان كان اللفظ فى الأصــل غير موضوع لها ، فكأن تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص الى

العام كما تنقل الألفاظ المفردة فهذا نقل فى الجملة مثل قولهـم : « يداك اوكتا ، وفوك نفخ » هو مواز لقولهم : « انت جنيت هذا » لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنايته بالايكاء والنفخ ، ثم صار مثلا عاماً ، وكذلك قولهم : « الصيف ضيعت اللبن » مثل قولك « فرطت وتركت الحزم ، وتركت ما يحتاج اليه وقت القـدرة عليه حتى فات » ، واصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص .

وكذلك « عسى الغويرا بؤسا » اي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن ردىء ؟ فهذا نوع مـن البيان يدخل في اللغـة والخطاب ، فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبـارة الدالة ، سواء كان المعنى فى نفسه حقاً او باطلا ، إذ قد يتمثل به فى حق من ليس كذلك ، فهذا تطلبه فى القرآن من جنس تطلب الالفاظ العرفية ، فهو نظر فى دلالة اللفظ على المعنى لا نظر فى صحة المعنى ودلالته على الحكم ، وليس هو المراد بقوله : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) فتدبر هذا فانه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية .

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجود فى القرآن منها أجناسها ، وهي معلنة ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي ، والذين يتكلمون فى علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون فى مثـل هذا ، ومن الناس مـن يكون أول ما يتكلم بالكلمة صارت مثلا ، ومنهم من لا تصير الكلمة مثلا

حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « الآن حمى الوطيس » وكقــوله : « مسعر حرب » ونحو ذلك ؛ لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الانـكار هو نفي مضمن دليل النفي ، فلا يمكن مقابلته بمنع ، وذلك أنه لا ينفي باستفهام الانـكار الا ما ظهر بيانه أو ادعي ظهور بيانه ، فيـكون ضاربه إما كامــلا في استدلاله وقـياسه وإما جاهــلاً ، كالذي قال : (مــن يحيى العظــام وهي رميم) .

إذا تبين ذلك فالامثال المضروبــة فى القرآن منهــا ما يصرح فيه بتسميته مثلا ، ومنها ما لا يسمى بذلك [1] (مثلهم كمثل الذي استوقد) والذي يليه (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق) (ولما يأتـكم مثل الذين خلوا من قبلـكم) (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) (لا تبطلوا صدقاتـكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء النــاس) الآية (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله). والذي بعده ليس فيـه لفظ مثـل (كدأب آل فرعون) في الثلاثة (قـد كان لـكم آية) (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) وقوله : (أرأيتم إن أخذ الله سمعكم).

---

(١) بياض بالاصل .

ومن هذا الباب قوله : (ولا أقول لـكم) الآية ، ويسمى جدالا (فمثله كمثل الكلب ـــ إلى قوله ـــ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنـاه من السماء) الآيـة (مثل الفريقين كالأعمى والاصم) (إلا كباسط كفيه إلى الماء) وقول يوسف (أأرباب متفرقون) (قل هل يستوي الأعمى والبصير) الآية (أنزل من السماء ماء) إلى قوله : (كذلك يضرب الله الأمثال) (مثل الجنة التى وعد المتقون تجري من تحتها الانهـار) (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمـة طيبة) إلى آخره (وتبين لـكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لـكم الامثال) (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى) (فـلا تضربوا لله الأمثال) (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا) والذي بعـده (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة) (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) فى موضعين (ولقد ضربنا للناس فى هـذا القرآن من كل مثـل فابى اكثر الناس الا كفوراً) بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحـدي بالقرآن (واضرب لهم مثلا رجلين) القصة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الانسان اكثر شيء جدلا) ينبه على أنها براهين وحجج تفيـد تصوراً أو تصديقاً (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) (ومثلا من الذين خـلوا من قبلـكم) (مثل نوره ـ إلى

قوله ـ ويضرب الله الامثال للناس) (والذين كفروا اعمالهم كسراب) المثلين ، مثل نور المؤمنين فى المساجد وأولئك فى الظلمات (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ـ فى « التفسير » يعم التصوير ، ويعم التحقيق بالدليل ، كما فى تفسير الكلام المشروح ـ (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) الآية (وتلك الامثال نضربها للناس) (وهو أهون عليه ، وله المثل الاعلى في السموات والارض) (ضرب لكم مثلا من انفسكم) (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتهم بآية) الآية (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) (فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) وقوله : (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) إلى قوله (ضرب الله مثلا رجلا) (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الى آخره لما أوردوه نقضا على قوله : (انكم وما تعبدون من دون الله) فهم الذين ضربوه جدلا (الذين كفروا وصدوا) الى قوله : (كذلك يضرب الله للناس امثالهم) (كمثل الذين من قبلهم قريبا) (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر) (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال) (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) الآية (ضرب الله مثلا للذين كفروا) و (للذين آمنوا) (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟) (كأنهم الى نصب يوفضون) (كالفراش) و (كالعهن)

وقال شيخ الاسلام

رحمه الله تعالى

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجـــد في طائفة من « كتب فى التفسير » إلا ماهو خطأ [فيها] .

منها قوله : (ان الذين آمنوا والذين هادوا) الآيتين ، فهو سبحانه وصف أهل السعادة من الأولين والآخرين ، وهو الذي يـــدل عليـــه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ، ومناسبة لما قبلها ولما بعدها ، وهو المعروف عند السلف ، ويدل عليـــه ماذكروه من سبب نزولهـا بالاسانيد الثابتة عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال سلمان : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهـــم فذكر من عبادتهم ، فنزلت الآية . ولم يذكر فيه أنهم من أهل النـــار ، كما روي بأسانيد ضعيفة ، وهذا هو الصحيح كما في مسلم « الا بقـــايا من أهل الكتاب » .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجيب بمالا عـــلم عنده ، وقـــد

ثبت أنه أثنى على من مات فى الفترة ، كزيد بن عمرو وغـيره ، ولم يذكر ابن أبى حاتم خلافا عن السلف ؛ لكن ذكر عن ابن عباس ثم أنزل الله (ومن يبتغ غير الاسلام دينا) الآية ، ومراده ان الله يبين أنه لا يقبل إلا الاســـلام من الأولين والآخرين ، وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن ان الآية دالة عليه ؛ فان من المعلوم أن من كذب رسولا واحـداً فهو كافر فـــلا يتناوله قوله : (من آمن بالله) الخ .

وظن بعض الناس : ان الآية فيمن بعث اليهـم محمد صـلى الله عليه وسلم خاصة فغلطوا ، ثم افترقوا على اقوال متناقضة .

وقال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصل

قسم الله من ذمه من أهل الكتاب الى محرفين واميين، حيث يقول: (افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم الى بعض.قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني ، وان هم الا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت ايديهم ، وويل لهم مما يكسبون) .

وفى هذا عبرة لمن ركب سنتهم من أمتنا ؛ فان المنحرفين في

نصوص الكتاب والسنة كالصفات ونحوها من الاخبار والاوامر :

« قوم » يحرفونه اما لفظاً واما معنى ، وهم النافون لما اثبته الرسول صلى الله عليه وسلم جحوداً وتعطيلا ، ويدعون ان هذا موجب العقل الصريح القاضي على السمع .

و « قوم » لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ، ويدعون ان هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وان الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم (لا يعلمون الكتاب الا أماني) أي تلاوة (وان هم الا يظنون) .

ثم يصنف اقوام علوما يقولون : إنها دينية ، وان النصوص دلت عليها والعقل ، وهي دين الله ؛ مع مخالفتها لكتاب الله ، فهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله بوجه من الوجوه .

فتدبر كيف اشتملت هذه الآيات على الأصناف الثلاثة ، وقوله فى صفة اولئك : (اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) حال من يكتم النصوص التى يحتج بها منازعه ، حتى ان منهم من يمنع من رواية الاحاديث المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو امكنهم كتمان القرآن لكتموه ، لكنهم يكتمون منه وجوه دلالته من العلوم المستنبطة منه ، ويعوضون الناس عن ذلك بما يكتبونه بايديهم ويضيفونه الى انه من عند الله .

وسئل

عن معنى قوله : (مَا ننسخ من آية أو ننساها) والله سبحانه لا يدخل عليه النسيان .

فأجاب :

أمـا قوله : (ما ننسخ من آية أو ننسها) ففيها قراءتان ، أشهرها : (أو ننسها) أي ننسيكم إياها : أي نسخنا ما أنزلناه ، أو اخترنا تنزيل ما نريد أن ننزله نأتكم بخير منه أو مثله ، والثانية : (أو ننسأها) بالهمز أي نؤخرها ، ولم يقرأ أحد ننساها ، فمن ظن أن معنى ننسأها بمعنى ننساها فهو جاهل بالعربية والتفسير قال موسى عليه السلام : (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) و « النسيان » مضاف إلى العبد كما في قوله : (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) ولهذا قرأها بعض الصحابة : (أو تنساها) أي تنساها يا محمد ، وهذا واضح لا يخفى إلا على جاهل لا يفرق بين ننسأها بالهمز وبين ننساها بلا همز والله أعلم .

قال ابو العباس احمد بن تيمية

رحمه الله تعالى

فى قوله تعالى : (كتب عليكم القصاص فى القتلى) الآية وفيها قولان :

(أحدها) ان القصاص هو القود ، وهو اخذ الدية [بدل] القتل كما جاء عن ابن عباس أنه كان فى بني اسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله فى هذه الأمة الدية فقال : (فمن عفي له من اخيه شيء) والعفو هو ان يقبل الدية فى العمد (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) مما كان على بنى اسرائيل ، والمراد على هذا القول ان يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى . قال قتادة : ان اهل الجاهلية كان فيهم بغي ، وكان الحي إذا كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين لن يقتل به الا حراً تعززاً على غيرهم ، وان قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن يقتل بها الا رجلا فنزلت هذه الآية ، وهذا قول أكثر الفقهاء ، وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره .

ويحتج بها طائفة من اصحاب مالك والشافعي وأحمد على ان الحر لا يقتل بالعبد لقوله : (والعبد بالعبد) فينقض ذلك عليه بالمرأة ، فانه قال : (والانثى بالانثى) ، وطائفة من المفسرين لم يذكروا الا هذا القول .

« القول الثاني » ان القصاص فى القتلى يكون بين الطائفتين المقتتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء احرار وعبيد ونساء فامر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بان يقاص دية حر بدية حر ، ودية امرأة بدية امرأة ، وعبد بعبد ، فان فضل لأحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ، ولتؤد الأخرى إليها باحسان ، وهذا قول الشعبي وغيره ، وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره و [على] هذا القول فانه إذا جعل ظاهر الآية لزمته اشكالات ؛ لكن المعنى [الثاني] هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه ؛ بخلاف القول الأول يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه انشاء الله تعالى ، وما ذكرناه يظهر من وجوه .

(احدها) أنه قال : (كتب عليكم القصاص فى القتلى) و « القصاص » مصدر قاصه يقاصه مقاصة وقصاصاً ، ومنه مقاصة الدينين احدهما بالآخر و (القصاص فى القتلى) انما يكون إذا كان الجميع قتلى ، كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى بهؤلاء القتلى ، اما اذا قتل

رجل رجلا فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ، ولكن القصاص ان يمكن من قتل القاتل لا غيره ، وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء ، قيل : تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذمي ولا حر بعبد ، وهو قول الأكثرين مالك والشافعي وأحمد ، وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة ، والمكافآت لا تسمى قصاصاً .

وايضاً فانه قال : (كتب عليكم القصاص) وان أريد بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب ، وان اريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي ، ان شاء اقتص وان شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص ، وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال : هو مكتوب على القاتل ان يمكن من نفسه ، فيقال له : هو تعالى قال : (كتب عليكم القصاص فى القتلى) وليس هذا خطاباً للقاتل وحده بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى : (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، واداء إليه باحسان) ثم لا يقال للقاتل : كتب عليك القصاص في المقتول فان المقتول لا قصاص فيه .

و « أيضاً » فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصا ؛ بل الولي له ان يقتص وله ان لا يقتص ، وانما سمي هذا قوداً لأن الولي يقوده ، وهو بمنزلة تسليم السلعة إلى المشتري ، ثم قال تعالى : (الحر بالحر) فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل ؛ بل هذا خطاب للأمة

بالمقاصة والمعادلة فى القتل . والنبي صلى الله عليه وسلم انما قال : « كتاب الله القصاص » لما كسرت الربيع سن جارية وامتنعوا من أخذ الأرش ، فقال أنس بن النضر : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم بالأرش فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » كقوله تعالى : (والجروح قصاص) يعني « كتاب الله » أن يؤخذ العضو بنظيره ، فهذا قصاص لأنه مساواة ، ولهذا كانت المكافآت فى الاعضاء والجروح معتبرة باتفاق العلماء ، وان قيل القصاص هو ان يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الأعتدا ، قيل : نعم ! وهذا قصاص فى الأحياء لا فى القتلى .

(الثانى) انه قال : (في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى) ومعلوم باتفاق المسلمين ان العبد يقتل بالعبد وبالحر ، والانثى تقتل بالانثى وبالذكر ، والحر يقتل بالحر وبالأنثى ايضا عند عامة العلماء ، وقيل : يشترط ان تؤدى تمام ديته ، وإذا كان كذلك فقوله : (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالانثى) انما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به ، وكذلك العبد بالعبد والانثى بالانثى ، وهذا انما يكون اذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعادلان ام يفضل لأحدهما على الآخر فضل ، اما فى القتلى فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين .

(الثالث) انه قال : (فمن عفي له من اخيه شيء) لفظ (عفي)

هنا قد استعمل متعديا ؛ فانه قال : (عفي) (شيء) ولم يقل : (عفا) (شيئاً) وهذا انما يستعمل فى الفعل كما قال تعالى : (ويسئلونك ماذا ينفقون قل : العفو) وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن القاتل ، فولي المقتول بين خيرتين : بين ان يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء ؛ بل هو عفا عن القتل واذا عفا فاما ان ان يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين

وقد قال بعضهم : (من أخيه) أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية ، والمراد القاتل يعني إن القاتل عفي له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل ، فيكون التقدير أن الولي عفى للقاتل من دم المقتول شيئاً ، وهذا كلام لا يعرف ، لا يقال : عفوت لك شيئاً ، ولا يقال : عفوت من دم القاتل ، وانما الذي يقال : انه عفا عن القاتل ، فأين هذا من هذا ؟

واما على القول الأول فالمتقاصان اذا تعادى القتلى فمن عفى له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصة أخرى أى هذا الذى فضل له فضل كما يقال : أبقى له من جهة اخيه بقية (فاتباع بالمعروف) فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف ، وذلك يؤدى الى هذا باحسان (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) أى من ان كل طائفة تؤدي قتلى الاخرى فان فى هذا تثقيلا عظيما له (ولكم فى القصاص حياة) فانهم

إذا تعادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الاخرى بشيء فحيي هؤلاء وحيي هؤلاء ، بخلاف ما اذا لم يتقاصوا فانهم يتقاتلون ، وتقوم بينهم الفتن التى يموت فيها خلائق ، كما هو معروف فى فتن الجاهلية والاسلام ، انما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين والا فمع التعادل والتناصف الذى يرضى به أولوا الألباب لا تبقى فتنة .

وقوله : (فمن اعتدى بعد ذلك) فطلب من الطائفة الأخرى مالا أو قوما او أذاهم بسبب ما بينهم من الدم (فله عذاب أليم) وهذا كقوله : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل ، واقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم) و « الأخوة » هنا كالاخوة هناك وهذا فى قتلى الفتن .

واما إذا قتل رجل رجلا من غير فتنة فهم كانوا يعرفون ان القاتل يقتل ، لكن كانت الطائفة القوية تطلب ان تقتل غير القاتل ، او من هو اكثر من القاتل ، أو اثنين بواحد ، واذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه ، كما قيل : إنه كان بين قريظة والنضير لكن هذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ، ولم

يكن فى الأمم من يقول ان القاتل الظالم المتعدي مطلقاً لا يقتل ، فهذا لم يكن عليه احـــد من بنى آدم ؛ بل كل بنى آدم مطبقــون على ان القاتل في الجملة يقتل . لكن الظلمة الاقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل .

وقول من قال : ان قوله : (ولـكم فى القصاص حياة) معنـــاه ان القاتل إذا عرف أنه يقتل كف فـكان في ذلك حياة له وللمقتول ، يقال له : هذا معنى صحيح ؛ ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس ، وهو مغروز فى جبلتهم ، وليس فى الآدميين من يبيح قتل أحد من غـير أن يقتل قاتله ؛ بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس (١) إذا كان كل من قدر على غيره قتله وهو لا يقتل يرضى بحال ، وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الآدميون ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى ، فالقرآن أجـل من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية ؛ بل هذا مما يدخل في معناه ، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حر بحر وعبد بعبد وانثى بأنثى ، فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمـــن لمســـاواتهم فى الدماء والديات ، وكان بهذه المقــاصة لهم حياة من الفتن التى توجب هلاكهم ، كما هو معروف ، وهـذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية ، فعلم ان دم الحر وديته كدم الحـر وديته فيقتل به وإذا علم أن التقاص يقع للتساوي فى الديات علـم ان للمقتول دية .

(١) بياض بالأصل

ولفظ القصاص يدل على المعادلة والمساوات فيدل على أن الله أوجب العدل والانصاف في أمر القتلى ، فمن قتل غير قاتله فهو ظالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من انصاف أولياء المقتول فهم ظالمون ، هؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل ، وهؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل .

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى قوله : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا) واذا دلت على العدل في القود بطريق اللزوم والتنبيه ذهب الأشكال ، ولم يقل : فلم لا قال : والعبد بالعبد والحر ؟ فانه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتلى ، ومعلوم أنه إنما يقاص الحر بالحر لا بالمرأة والمرأة بالمرأة لا بالحر والعبد بالعبد . فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية .

ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتل بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، إذا كانا متساويين فى الدم ، وبدله هو الدية ، ولم ينتف ان يقتل عبد بحر وانثى بذكر ولا لها مفهوم ينفي ذلك ؛ بل كما دلت على ذلك بطريق التنبيه والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضاً ؛ فانه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى ، وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلها بالرجل أولى .

وأما قتل الحــر بالعبد والذكر بالانثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي لا اثبات ولا لها مفهوم يدل عليه، لا مفهوم موافقة ولا مخالفة؛ فانه إذا كان فى المقاصة يقاس الحر بالحر والعبــد بالعبد والأنثى بالأنثى لتساوي الديات دل ذلك على قتل النظير بالنظير والأدنى بالأعلى .

يبقى قتل الأعــلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ليس فى الآية تعرض له ، فانه لم يقصد بها ابتداء القود ، وإنما قصد المقاصــة فى القتلى لتساوي دياتهم .

فان قيل : دية الحر كدية الحر ودية الأنثى كدية الأنثى ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة ؟

قيل : عبيــدهم كانوا متقاربين القيمة ، وقوله : (العبد بالعبــد) قد يراد به بالعبد المماثل به ، كما يقال : ثوب بثوب وان كان أحــدهما أغلى قيمة فذاك مما عفي له ، وقد يعفى إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فان المقتولين فى الفتن عبيدهم الذين يقاتلون معهم ، وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يشتروهم ، فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومــع الجهل بتفاضلها ؛ فان المجهول كالمعدوم ولو أتلف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منها قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب ، وهــذا لان الزيادة محتملة من الطرفين : يحتمل أن يكون ثوب هــذا أغلى ،

ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى . وليس ترجيح أحـدهما أولى من الآخر ، والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك فى احدهما فكيف إذا كان من الطرفين ؟

فظهر حكمة قوله : (والعبد بالعبد) وظهر بهذا ان القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ، ويحقن به دماؤهم ويحيون به ، ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل فى القود .

ودلت الآية على أن القتلى يؤخذ لهم ديات ، فدل على ثبوت الدية على القاتل، وانها مختلفة باختلاف المقتولين ، وهذا مما من الله به على أمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أثبت القصاص والدية .

واما كون العفو هو قبول الدية فى العمد وأنه يستحق العافى بمجرد عفوه فالآية لم تتعرض لهذا .

ودلت هذه الآية على ان الطوائف الممتنعة تضمن كل منها ما اتلفته الأخرى من دم ومال بطريق الظلم لقوله : (من اخيه) بخلاف ما اتلفه المسلمون للكفار والكفار للمسلمين .

وأما القتال بتأويل « كقتال أهل الجمل وصفين » فلا ضمان فيـه ايضا بطريق الأولى عنـد الجمهور ، فانه اذا كان الكفـار المتأولون

لا يضمنون فالمسلمون المتأولون أولى ان لا يضمنوا .

ودلت الآية على ان هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوى فيه الردء والمباشر . لا يقال : انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بديته بل يقال : ديته عليكم كلكم فانكم جميعاً قتلتموه ؛ لان المباشر إنما تمكن بمعاونة الردء له ، وعلى هذا دل قوله : (وان فاتكم شيء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا) فان اولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التى ذهبت إليهم فاذا لم يؤدوه اخذ من اموالهم التى يقدر المسلمون عليها ، مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها ، فيعطي المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة التى يستحقه الكفار لكونها اسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها وان كان زوج المهاجرة ليس هو الذى تزوج بالمرتدة . لان الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضا صارت كالشخص الواحد .

ولهذا لما قتل خالد من قتل من بني جذيمة وداهم النبي صلى الله عليه وسلم من عنده ؛ لأن خالداً نائبه وهو لايمكنهم من مطالبته وحبسه لانه متأول ، وكذلك عمرو بن امية وعاقلته خالد بن الوليد ، لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه . وقد تنازع الفقهاء فى خطأ ولي الأمر هل هو فى بيت المال او على ذمته ؟ على قولين .

ولهذا كان ما غنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية ، لأنه انما يغنم بعضهم بظهر بعض، فاذا اشتركوا فى المغرم اشتركوا فى المغنم، وكذلك فى العقوبة يقتل الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء ، كما قتل عمر رضي الله عنه ربيئة المحاربين ، وهو قول مالك وأبي حنيفة واحمد ، وهو مذهب مالك فى القتل قوداً ، وفي السراق ايضاً .

وبيان دلالة الآية على ذلك ان المقتولين إذا حبس حر بحر وعبد بعبد وانثى بانثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء ؛ بل قد يكون غيره ، وكذلك العبد من هؤلاء ليس قاتله هو سيد العبد من هؤلاء ؛ بل قد يكون غيره ؛ لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله ، وكلهم يضمنونه ؛ ولهذا ما فضل لاحد الطائفتين يؤخذ من مال الأخرى .

فان قيل : اذا كان مستقراً فى فطر بني آدم ان القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل وليس فى الآدميين من يقول إنه لا يقتل فما الفائدة فى قوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها ـ أي فى التوارة ـ ان النفس بالنفس والعين بالعين) . الآية . إذا كان مثل هذا الشرع يعرفه العقلاء كلهم ؟

قيل لهم : فائدته بيان تساوى دماء بني اسرائيل ، وان دماءهم

متكافئة ليس لشريفهم مزية على ضعيفهم ، وهذه الفائدة الجليلة التى جاءت بها شرائع الأنبياء ، فاما الطوائف الخارجون عن شرائع الانبياء فلا يحكمون بذلك مطلقاً ؛ بل قد لا يقتلون الشريف ، وإذا كان الملك عادلا فقد يفعل بعض ذلك ، فهذا الذي كتبه الله فى التوراة من تكافىء دمائهم، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم ، فحكم ايضاً فى المؤمنين به من جميع الأجناس بتكافىء دمائهم ، فالمسلم الحر يقتل بالمسلم الحر من جميع الأجناس باتفاق العلماء .

وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتج بآية التوراة على ان المسلم يقتل بالذمي لقوله : (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس) و « شرع من قبلنا شرع لنا » فانه يقال : الذي كتب عليهم ان النفس منهم بالنفس منهم ، وهم كلهم كانوا مؤمنين ، لم يكن فيهم كافر ، ولم يكن في شريعتهم ابقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها ، وهذا مثل شرع محمد صلى الله عليه وسلم ان المسلمين تتكافأ دماؤهم ، وليس فى الشريعتين ان دم الكافر يكافىء دم المسلم ؛ بل جعل الايمان هو الواجب للمكافآت دليل على انتفاء ذلك في الكافر ــ سواء كان ذمياً أو مستأمناً ــ لانتفاء الايمان الواجب للمكافأة فيه ؛ نعم ! يحتج بعمومه على العبد .

وليس فى العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي ؛ بل ما روي « من قتل عبده قتلناه به » وهذا لأنه إذا قتله ظالماً كان الامام ولي

دمه ؛ لأن القاتل كما لا يرث المقتول إذا كان حراً فكذلك لايكون ولي دمه إذا كان عبداً ؛ بل هذا أولى كيف يكون ولي دمه وهو القاتل ؟ بل لا يكون ولي دمه : بل ورثة القاتل السيد ؛ لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى تنتقل إليهم فيكون وليه الامام . وحينئذ فللامام قتله ، فكل من قتل عبده كان للامام ان يقتله .

و « أيضاً » فقد ثبت بالسنة والآثار أنه اذا مثل بعبده عتق عليه ، وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما ، وقتله [أشد] أنواع المثل فلا يموت الا حراً ؛ لكن حريته لم تثبت فى حال الحياة حتى يرثه عصبته ؛ بل حريته ثبتت حكما ، وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين ، فيكون الامام هو وليه ، فله قتل قاتل عبده .

وقد يحتج بهذا من يقول : ان قاتل عبد غيره لسيده قتله ، واذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح ، والقول الآخر ليس معه نص صريح ولا قياس صحيح ، وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : من قتل ولا ولي له كان الامام ولي دمه ، فله ان يقتل ، وله ان يعفو على الدية ؛ لا مجاناً .

يؤيد هذا ان من قال : لا يقتل حر بعبد يقول : إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم . قال الله تعالى في كتابه : (ولعبد مؤمن خير

من مشرك) فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك ، فكيف لا يقتل به ؟ ! والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات ، كما دلت عليه هذه الآية ، وهو قول جماهير السلف والخلف ، وهذا قوي على قول أحمد : فانه يجوز شهادة العبد كالحر ؛ بخلاف الذمي فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم » ؟! .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلتم : انهم يقدمون ما بيانه أهم وهم به أعنى ؟

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمته ، وكان اهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدم فى الذكر ، وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فان قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وهلا اكتفى بضميره فقال : هو كبير ؟ وأنت إذا قلت : سألته عن زيد هو فى الدار كان أوجز من أن تقول أزيد فى الدار ؟

قيل : فى إعادته بلفظ الظاهر بلاغة بديعة ، وهو تعليق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً ولو أتى بالمضمر فقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤل عنه ، وليس الأمر كذلك ؛

وإنما هو عام في كل قتال وقع فى شهر حرام .

ونظير هـذه القاعدة قوله صـلى الله عليه وسـلم ــ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال ـــ : « هو الطهور ماؤه » فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : « نعم توضؤا به » لئلا يتوهم اختصاص الحـكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عـن قوله : « نعم توضؤا » إلى جواب عام يقتضي تعليق الحـكم والطهور به بنفس مائه من حيث هو ، فأفاد استمرار الحـكم على الدوام .وتعلقه بعموم الأمة ، وبطل توهم قصره على السبب ، فتأمله فانه بديع .

فكذلك فى الآية لما قال : (قتال فيه كبير) فجعل الخبر بـ(كبير) واقعا عن (قتال فيه) فيتعلق الحـكم به على العموم ؛ ولفظ « المضمر » لا يقتضى ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين) ولم يقل أجرهم ، تعليقا لهذا الحكم بالوصف وهو كونهـــم مصلحين ، وليس في الضمير ما يدل عـــلى الوصف المذكور .

وقريب منه وهو ألطف معنى قوله تعالى : (يسألونك عن المحيض

قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض) ولم يقل فيه تعليقاً بحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وانه هو سبب الاعتزال ، وقال : (قل هو أذى) ولم يقل : (المحيض أذى) لأنه جاء به على الأصل ؛ ولأنه لو كرره لثقل اللفظ به لتكرره ثلاث مرات . وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضا ، بخلاف قوله : (قل هو أذى) فانه اخبار بالواقع ، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً ، بخلاف تعليق الحكم به فانه انما يعلم بالشرع ، فتأمله .

سئل شيخ الاسلام

عن قوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات) وقد أباح العلماء التزويج بالنصرانية واليهودية ، فهل هما من المشركين أم لا ؟ ؟ .

فأجاب الحمد لله . نكاح الكتابية جائز بالآية التى فى المائدة قال تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد روى عن ابن عمر : أنه كره نكاح النصرانية ، وقال : لا أعلم شركا اعظم ممن تقول : ان ربها عيسى بن مريم .

وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع ، وقد احتجوا بالآية التى فى سورة البقرة وبقوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) والجواب من آية البقرة من ثلاثة أوجه .

(أحدها) ان أهل الكتاب لم يدخلوا فى المشركين ، فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله : (ان الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا) .

فان قيل : فقد وصفهم بالشرك بقوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهـا واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) قيل أهل الكتاب ليس فى أصل دينهم شرك ؛ فان الله إنما بعث الرسل بالتوحيد ، فكل من آمن بالرسل والكتب لم يكن فى أصـل دينهم شرك ؛ ولكن النصارى ابتدعوا الشرك ، كما قال : (سبحانه وتعالى عما يشركون) فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم يأمر الله به ، وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة الـتى جاءت بالتوحيد لا بالشرك .

فاذا قيل : أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ؛ فان الكتاب الذي أضيفوا اليه لا شرك فيه ، كما اذا قيل : المسلمون وأمـة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ، ولا رفض ، ولا تكذيب بالقدر ، ولا غير ذلك من البدع ، وان كان بعض الداخلين فى الامـة قد ابتدع هذه البدع ؛ لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة ، فلا يزال فيها من هو متبع لشريعـة التوحيد ؛ بخـلاف أهل الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهـم مشركون بالاسم ؛ بل قال : (عما يشركون) بالفعل ، وآية البقرة قال فيهـا :

(المشركين) و (المشركات) بالاسم ، والاسم أوكد من الفعل .

(الوجه الثاني) ان يقال : ان شملهم لفظ (المشركين) فى سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفرداً ومقروناً ، فاذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب ، واذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم ، كما قيل : مثل هذا فى اسم الفقير والمسكين ونحو ذلك ، فعلى هذا يقال : آية البقرة عامة ، وتلك خاصة ، والخاص يقدم على العام .

(الوجه الثالث) ان يقال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة ، لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء ، وقد جاء فى الحديث المائدة من [1] ،

---

(١) آخر ما وجد من الاصل .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

لما ذكر سبحانه ما يبطل الصدقة من المن والأذى ومن الرياء ، ومثله بالتراب على الصفوان إذا أصابه المطر ، ولهذا قال : (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) لأن الايمان باحدهما لا ينفع هنا ؟ بخلاف قوله فى النساء : (ان الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) إلى قوله : (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) .

فانه فى معرض الذم ، فذكر غايته وذكر ما يقابله وهم الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من انفسهم .

فالاول الاخلاص .

و « التثبيت » هو التثبت كقوله : (ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم واشد تثبيتاً) كقوله : (وتبتل إليه تبتيلا) ويشبه — والله أعلم — ان يكون هذا من باب قدم وتقدم كقوله : (لاتقدموا

بين يدي الله ورسوله) فتبتل وتثبت لازم بمعنى ثبت[1] لأن التثبت هو القوة والمكنة ، وضده الزلزلة ، والرجفة ، فان الصدقة من جنس القتال ، فالجبان يرجف ، والشجاع يثبت ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « واما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب ، واختياله بنفسه عند الصدقة » لانه مقام ثبات وقوة ، فالخيلاء تناسبه ، وانما الذي لا يحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل ، فاما المختال مع العطاء او القتال فيحبه .

وقوله (من انفسهم) اي ليس المقوى له من خارج كالذي يثبت وقت الحرب لامساك اصحابه له ، وهذا كقوله : (واذا ما غضبوا هم يغفرون) بل تثبته ومغفرته من جهة نفسه .

وقد ذكر الله سبحانه في البقرة والنساء الأقسام الاربعة فى العطاء .

إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم فى النساء ، أو يعطى مع الكراهة والمن والاذى ، فلا يكون بتثبيت وهو المذموم فى البقرة ، او مع الرياء فهو المذموم فى السورتين ، فبقي القسم الرابع : ابتغاء رضوان الله وتثبيتاً من انفسهم .

---

(١) هنا كلمات غير متضحة .

ونظيره « الصلاة » اما ان لا يصلي ، أو يصلي رياء ، أو كسلان ، او يصلي مخلصاً ، والاقسام الثلاثة الاول مذمومة ، وكذلك « الزكاة » ونظير ذلك « الهجرة ، والجهاد » فان الناس فيها أربعة اقسام ، وكذلك (إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً) فى الثبات والذكر ، وكذلك : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)

فى الصبر والمرحمة أربعة أقسام وكذلك (استعينوا بالصبر والصلاة) فهم [1] في الصبر والصلاة فعامة هذه الاشفاع التى في القرآن : إما عملان ، وإما وصفان فى عمل : انقسم الناس فيها قسمة رباعية ، ثم ان كانا عملين منفصلين كالصلاة والصبر ، والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع احدهما ولو ترك الآخر ، وان كانا شرطين فى عمل كالاخلاص والتثبت لم ينفع احدهما ، فان المن والاذى محبط ، كما ان الرياء محبط ، كما دل عليه القرآن ، ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والبر والتقوى والحق والصبر ، وافضل الايمان السماحة والصبر .

بخلاف الاشفاع في الذم كالافك والاثم ، والاختيال والفخر ، والشح والجبن ، والاثم والعدوان ؛ فان الذم ينال احدهما مفرداً

---

(١) هنا كلمات غير متضحة .

ومقروناً ، لان الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته ، فقد لا تحصل المنفعة الا بتمامه ، والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر فى الجملة غالباً ، ولهذا فرق في الأسماء بين الأمر والنهي ، والاثبات والنفي ، فاذا أمر بالشيء اقتضى كماله ، وإذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه ، ولهذا حيث أمر الله بالنكاح — كما فى المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجا غيره ، وكما فى الاحصان — فلا بد من الكمال بالعقد والدخول ، وحيث نهى عنه كما فى ذوات المحارم فالنهي عن كل منها على انفراده ، وهذا مذهب مالك واحمد المنصوص عنه انه اذا حلف ليتزوجن لم يبر الا بالعقدة والدخول ، بخلاف ما اذا حلف لا يتزوج فانه يحنث بالعقدة ، وكذلك اذا حلف لايفعل شيئاً حنث بفعل بعضه ، بخلاف ما اذا حلف ليفعلنه ، فان دلالة الاسم على كل وبعض تختلف باختلاف النفي والاثبات .

ولهذا لما امر الله بالطهارة والصلاة ، والزكاة والحج كان الواجب الاتمام ، كما قال تعالى : (بكلمات فاتمهن) وقال : (وابراهيم الذي وفى)

ولما نهى عن القتل والزنا والسرقة والشرب كان ناهياً عن ابعاض ذلك ؛ بل وعن مقدماته ايضاً ، وان كان الاسم لا يتناوله فى الاثبات ، ولهذا فرق فى الاسماء النكرات بين النفي والاثبات ، والأفعال كلها

نكرات ، وفرق بين الأمر والنهي بين التكرار وغيره ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

وانما اختلف فى المعارف المنفية على روايتين ، كما فى قوله : لاتأخذ الدراهم ولا تكلم الناس .

وقال شيخ الاسلام

ابو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

فصل

فى قوله تعالى : (وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير) قد ثبت فى صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابى هريرة ، قال : لما انزل الله : (ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) اشتد ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب ، وقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من العمل ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ؛ وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتريدون ان تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ قولوا : سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم انزل الله فى أثرها : (آمن الرسول

بما أنزل إليه من ربــه والمؤمنون ، كل آمــن بالله وملائكته وكتبـه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا : سمعنا واطعنـا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فانزل الله (لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليهـا ما اكتسبت ، ربنـا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا) قال : نعم ! (ربنـا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال : نعم ! (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال : نعم . (واعف عنا واغفر لنا وارحمنـا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال : نعم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه وقال : قد فعلت ، قد فعلت ، بدل نعم .

ولهذا قال كثير من السلف والخلف : انها منسوخـة بقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وابي هريرة ، وابن عمر وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمـد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي ، وابن زيد ، ونقـل عن آخرين انهـا ليست منسوخة ، بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم ، فيأخـذ من يشاء ويغفر لمـن يشاء ، كما نقـل ذلك عن ابن عمر ، والحسـن ،

واختاره ابو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى ، وقالوا : هـذا خبر ، والأخبار لا تنسخ .

و « فصل الخطاب » : أن لفظ « النسخ » مجمل ، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه ، من عموم أو اطلاق أو غير ذلك ، كما قال من قال : ان قوله : (اتقوا الله حق تقاته) (وجاهدوا في الله حق جهاده) نسخ بقوله : (فاتقـوا الله ما استطعتم) وليس بين الآيتين تناقض ، لكن قد يفهم بعض الناس عن قوله : (حق تقاته) (وحق جهاده) الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا ، كما ينسخ الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله اياته . وان لم يكن نسخ ذلك نسخ ما انزله ، بل نسخ ما القاه الشيطان ، اما من الانفس او من الاسماع او من اللسان .

وكذلك ينسخ الله ما يقع فى النفوس من فهم معنى ، وان كانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل ، وهذه الآية من هـذا الباب ؛ فان قوله : (وان تبدوا ما فى انفسكم) الآية انما تدل على ان الله يحاسب بما فى النفوس لا على انه يعاقب على كل ما فى النفوس ، وقوله : (لمن يشاء) يقتضي ان الامر اليه فى المغفرة والعذاب لا الى غيره

ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل كما قد يظنه من يظنه من

الناس ، حتى يجوزوا أنه يعذب على الأمر اليسير من السيئات مع كثرة الحسنات وعظمها ، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفر لأحدهما مع كثرة سيئاته وقلة حسناته ويعاقب الآخر على السيئة الواحدة مع كثرة حسناته ، ويجعل درجة ذاك فى الجنة فوق درجة الثاني .

وهؤلاء يجوزون ان يعذب الله الناس بلا ذنب ، وان يكلفهم مالا يطيقون ويعذبهم على تركه ، والصحابة إنما هربوا وخافوا ان يكون الأمر من هذا الجنس ، فقالوا : لا طاقة لنا بهذا ؛ فانه إن كلفنا ما لا نطيق عذبنا فنسخ الله هذا الظن . وبين انه لا يكلف نفساً الا وسعها ، وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون أنه يكلف العبد مالا يطيقه ، ويعذبه عليه ، وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة ؛ بل أقوالهم تناقض ذلك حتى أن سفيان بن عيينة سئل عن قوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) قال : إلا يسرها ، ولم يكلفها طاقتها . قال البغوى : وهذا قول حسن : لأن الوسع ما دون الطاقة وانما قاله طائفة من المتأخرين لما ناظروا المعتزلة في « مسائل القدر » ،وسلك هؤلاء مسلك الجبر جهم واتباعه ، فقالوا هذا القول وصاروا فيه على مراتب ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

قال ابن الأنباري في قوله : (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وان كنا مطيقين له على تجشم وتحمل

مكروه ، قال : نخاطب العرب على حسب ما تعقل ؛ فان الرجل منهم يقول للرجل ما أطيق النظر اليك وهو مطيق لذلك، لكنه ثقيل عليه النظر اليه ، قال : ومثله قوله : (ما كانوا يستطيعون السمع) .

قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم ؛ بل هذا مما اتفق عليه العقلاء . و « الاستطاعة فى الشرع » هي ما لا يحصل معه للمكلف ضرر راجح كاستطاعة الصيام والقيام ، فمتى كان يزيد فى المرض او يؤخر البرء لم يكن مستطيعاً ؛ لأن في ذلك مضرة راجحة ؛ بخلاف هؤلاء فانهم كانوا لا يستطيعون السمع لبغض الحق وثقله عليهم : اما حسداً لقائله ، واما اتباعاً للهوى ورين الكفر والمعاصي على القلوب ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد الا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

والمقصود ان السلف لم يكن فيهم من يقول : ان العبد لا يكون مستطيعاً إلا في حال فعله ، وأنه قبل الفعل لم يكن مستطيعاً ، فهذا لم يأت الشرع به قط ، ولا اللغة ، ولا دل عليه عقل ؛ بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والرب تعالى يعلم ان العبد لا يفعل الفعل مع أنه مستطيع له ، والمعلومَ أنه لا يفعله ، ولا يريده لا أنه لا يقدر عليه . والعلم يطابق

المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم ان هذا مستطيع يفعل مستطاعه . فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم ارادة العبد ؛ لا لعدم استطاعته . كالمقدورات له التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم ارادته لها لا لعدم قدرته عليها . والعبد قادر على أن يفعل ، وقد علم الله أنه لا يفعل مع القدرة : ولهذا يعذبه لأنه انما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ، ومن لم يستطع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

واذا قيل : فيلزم أن يكون قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لا يفعل ، فاذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغلطة ؛ وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم اذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ؛ لا عدم وقوعه ، فيمتنع ان يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ؛ بل ان وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وان لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله الا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء يغير العلم ؛ بل هو قادر على فعل ما لم يقع .

ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع .

واذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك : بل العبد يقدر على وقوعه . وهو لم يوقعه ، ولو اوقعه لم يكن المعلوم الا وقوعه . فمقدور العبد اذا وقع لم يكن المعلوم الا وقوعه . فاذا وقع كان الله عالماً انه سيقع ، واذا لم يقع كان الله عالماً بأنه لا يقع البتة ، فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة اثبات الملزوم بدون لازمه . وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

ومما يلزم هؤلاء ان لايبقى أحد قادراً على شيء الا الرب ؛ فان الأمور نوعان :

« نوع » علم الله أنه سيكون و « نوع » علم الله أنه لا يكون .

فـ « الأول » لا بد من وقوعه . و « الثاني » لا يقع البتة . فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما « المعتزلة » فعندهم أنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، وأولئك « الجبرة » فى جانب . وهؤلاء فى جانب . وأهل السنة وسط .

وما يفعله العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيئتهم وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم ارادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد ولقدرتهم وارادتهم وأفعالهم ، وكل ذلك مقدور للرب . وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له .

و « المقصود هنا » ان قوله تعالى : (وان تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) حق ، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه ، فمن فهم ان الله يكلف نفساً ما لاتسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه . ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلاحكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه ، فقوله : (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) رد للأول ، وقوله : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) رد للثاني . وقوله : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) كقوله فى آل عمران : (ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) وقوله : (ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض

يعـذب من يشاء ويغفر لمـن يشاء والله على كل شـيء قـدير) ؛ ونحو ذلك .

وقد علمنا أنه لا يغفر ان يشرك به . وانه لا يعـذبُ المؤمنين ، وأنه يغفر لمـن تاب، كذلك قوله : (وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) الآية .

ودلت هذه الآية على أنـه سبحانه يحاسب بما في النفوس . وقد قال عمر : زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوا أنفسكم قبـل أن تحاسبوا. و « المحاسبة » تقتضي أن ذلك يحسب ويحصى .

وأما « المغفرة ، والعذاب » فقد دل الكتاب والسنة عـلى ان من فى قلبه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء بـه انه كافر بالله ورسوله وقد عفى الله لهذه الأمة ــ وهم المؤمنون حقـاً ، الذين لم يرتابوا ــ عما حدثت به أنفسها ما لا تتكلم به أو تعمل ، كما هـو فى الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس ، وروى عـن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الذي يهم بالحسنة تكتب له ، والذي يهم بالسيئة لا تكتب عليه حتى يعملها » اذا كان مؤمناً من عادته عمل الحسنات وترك السيئات فان ترك السيئة لله كتبت له حسنة . فاذا أبدى العبد ما فى نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التى يستحق عليها الذم والعقاب

وان أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الايمـان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقبـاً على ما أخفاه فى نفسه من ذلك ؛ لأنه ترك الايمان الذي لا نجـاة ولا سعادة الا به . واما ان كان وسواساً والعبد يكرهه فهذا صريح الايمان ، كما هو مصرح به فى الصحيح .

وهذه « الوسوسة » هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الانسان فاذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الايمان ، وقـد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك ، فقال تعالى : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) .

و « الوسع » فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلفها ما تضيق عنه فلا تسعه ، وهو المقدور عليه المستطاع ، وقال بعض النـاس : ان « الوسع » اسم لما يسع الانسان ولا يضيق عليه . وليس كذلك ؛ بل ما يسع الانسان هو مباح له ، وما لم يسعه ليس مأموراً به ، فما يسعه قد يؤمر به واما ما لا يسعه فهو المباح يقال : يسعني أن افعل كذا ، ولا يسعني أن افعل كذا ، والمباح هو الواسـع ، ومنه باحـة الدار ، فالمباح لك ان تفعله هو يسعك ولا تخرج عنه ، ومنه يقـال : رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها الى البدعة : أي فيما أمر الله بـه وما

أباحه ما يكفي المؤمن المتبع في دينه ودنياه لا يحتاج ان يخرج عنه الى ما نهى عنه .

وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله ، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعك هو ، وقد يقال : لا يسعني تركه ؛ بل تركه محرم وقد قال تعالى : (تلك حدود الله فلا تقربوها) وهو أول الحرام وقال : (تلك حدود الله فلا تعتدوها) وهي آخر الحلال ، وقال : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهذا التغيير نوعان :

(أحدهما) : ان يبدوا ذلك فيبقى قولا وعملا يترتب عليه الذم والعقاب .

و (الثانى) ان يغيروا الايمان الذي فى قلوبهم بضده من الزيب والشك والبغض ، ويعزموا على ترك فعل ما امر الله به ورسوله ، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور ، وهناك على فعل المحظور .

وكذلك ما فى النفس مما يناقض محبة الله والتوكل عليه والاخلاص له والشكر له يعاقب عليه ؛ لأن هذه الأمور كلها واجبة ، فاذا خلي القلب عنها واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات .

وبهذا التفصيل تزول شبه كثيرة ، ويحصل الجمع بين النصوص ، فانها كلها متفقة على ذلك ، فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم ؛ بل أضمرت الكفر ، قال تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وقال : (فى قلوبهم مرض) وقال : (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) فالمنافق لا بد أن يظهر فى قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره ، كما قال عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى عن المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) ثم قال : (ولتعرفنهم فى لحن القول) وهو جواب قسم محذوف أي : والله لتعرفهم فى لحن القول ! فمعرفة المنافق فى لحن القول لا بد منها ، وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة .

ولما كانت هذه الآية : (ان تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه) خبرا من الله ؛ ليس فيها اثبات ايمان للعبد ، بخلاف الآيتين بعدها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه » متفق عليه ، وهما قوله : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) الى آخرها .

وكلام السلف يوافق ما ذكرناه ، قال ابن عباس : هذه الآية لم تنسخ ولكن الله اذا جمع الخلائق يقول : اني اخبركم بما أخفيتم في أنفسكم

مما لم تطلع عليه ملائكتي ، فاما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : (يحاسبكم به الله) يقول : يخبركم به الله ، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب ، وهو قوله : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

وقد روى عن ابن عباس : أنها نزلت في كتمان الشهادة ، وروى ذلك عن عكرمة والشعبي ، وكتمان الشهادة من باب ترك الواجب ، وذلك ككتمان العيب الذي يجب اظهاره ، وكتمان العلم الذي يجب اظهاره ، وعن مجاهد أنه الشك واليقين ، وهذا أيضاً من باب ترك الواجب ؛ لأن اليقين واجب ، وروي عن عائشة : ما اعلنت فان الله يحاسبك به ، وأما ما أخفيت فما عجلت لك به العقوبة فى الدنيا . وهذا قد يكون مما يعاقب فيه العبد بالغم كما سئل سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال هو ذنب هممت به فى سرك ولم تفعله فجزيت هما به .

فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، وروى عنها مرفوعا قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (ان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فقال ياعائشة ! هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة والحمى . حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها فيجدها فى جيبه ، حتى ان المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الاحمر من الكير » .

قلت : هذا المرفوع هو والله أعلم بيان مـا يعاقب به المؤمن فى الدنيا ؛ وليس فيه أن كلما أخفاه يعاقب به ، بل فيه أنه اذا عوقب على ما اخفاه عوقب بمثل ذلك ، وعلى هـذا دلت الأحاديث الصحيحة .

وقد روى الروياني في مسنده من طريق الليث عن يزيد بن ابى حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، واذا اراد بعبده الشر أمسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة ، وقد قال تعالى : (فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل ان الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا مـن الأمر شيء مـا قتلنا ههنا ، قـل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما فى صـدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) .

فهؤلاء كانوا فى ظنهم ظن الجاهلية ظنا ينافى اليقين بالقدر ، وظنـا ينافى بأن الله ينصر رسوله ، فكان عقابهم على ترك اليقـين ووجود الشك ، وظن الجاهلية ، ومثل هذ كثير .

ومما يدخل فى ذلك نيات الأعمال ، فانما الأعمــال بالنيات ، وانمـا لـكل امرىء ما نوى . و « النية » هي مما يخفيه الانسان فى نفسه ، فان كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وان كان قصده رياء الناس استحق العقاب . كما قال تعالى : (فويل للمصلين الذين هم عــن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون) وقال : (واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس) .

وفى حديث ابى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار فى الذي تعلم وعلم ليقال : عالم قاريء والذي قاتل ليقال جريء وشجاع . والذي تصدق ليقال جواد وكريم ، فهؤلاء انما كان قصــدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم ؛ لم يقصدوا بذلك وجه الله ، وان كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء اذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما فى الحديث : « من طلب العلم ليبــاهي به العلماء ، او ليماري به السفهاء ، او ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار » وفى الحديث الآخر : « من طلب علما مما يبتغى به وجه الله لا يطلبه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وفي « الجمـلة » القلب هو الاصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء ، والاعضاء جنوده ، فاذا طاب الملك طابت جنوده . واذا

خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب » فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه لا مما أخفاه .

وكلما أوجبه الله على العباد لابد ان يجب على القلب فانه الاصل وان وجب على غيره تبعا ، فالعبد المأمور المنهي انما يعلم بالأمر والنهي قلبه ، وانما يقصد الطاعة والامتثال القلب . والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به ، كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، واذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ؛ بل كان هو العاصي وغيره تبع له فى ذلك ؛ ولهذا قال فى حق الشقي : (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى) الآيات ، وقال فى حق السعداء : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فى غير موضع . والمأمور نوعان .

« نوع » هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لا يكون الا بعلم القلب وارادته . فالقلب هو الاصل فيه ، كالوضوء والاغتسال ، وكافعال الصلاة : من القيام ، والركوع ، والسجود ، وأفعال الحج : من الوقوف ، والطواف ،

وان كانت أقوالا فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصده .

ولهذا كانت الاقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده ، فاما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله كلها لغو فى الشرع لا يصح منه ايمان ولا كفر ، ولا عقد من العقود ، ولا شيء من الأقوال باتفاق المسلمين . وكذلك النائم إذا تكلم فى منامه فأقواله كلها لغو ، سواء تكلم المجنون والنائم بطلاق أو كفر أو غيره ، وهذا بخلاف الطفل ؛ فان المجنون والنائم إذا اتلف مالا ضمنه ، ولو قتل نفساً وجبت ديتها كما تجب دية الخطأ .

وتنازع العلماء فى السكران مع اتفاقهم أنه لا تصح صلاته لقوله صلى الله عليه وسلم : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » وهو معروف فى السنن .

وتنازعوا فى عقود السكران كطلاقه ، وفي أفعاله المحرمة ، كالقتل والزنا هل يجري مجرى العاقل ، أو مجرى المجنون ، أو يفرق بين أقواله وأفعاله وبين بعض ذلك وبعض ؟ على عدة أقوال معروفة .
والذي تدل عليه النصوص والأصول وأقوال الصحابة : ان أقواله هدر — كالمجنون — لا يقع بها طلاق ولا غيره ؛ فان الله تعالى قد قال :

(حتى تعلموا ما تقولون) فدل على أنه لا يعلم ما يقول ، والقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والافعال عنه ، فاذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادراً عن القلب ؛ بل يجري مجرى اللغو ، والشارع لم يرتب المؤاخذة إلا على ما يكسبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة ، كما قال : (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) ولم يؤاخذ على أقوال وأفعال لم يعلم بها القلب ولم يتعمدها ، وكذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه الا بما قاله أو فعله ، وقال قوم : إن الله قد أثبت للقلب كسباً فقال : (بما كسبت قلوبكم فليس لله عبد اسر عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه ، أوهم في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

واحتجوا بقوله تعالى : (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً) وهذا القول ضعيف شاذ ؛ فان قوله : (يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) انما ذكره لبيان أنه يؤاخذ فى الأعمال بما كسب القلب لا يؤاخذ بلغو الايمان . كما قال : (بما عقدتم الأيمان) فالمؤاخذة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجوارح ، فاما ما وقع فى النفس ؛ فان الله تجاوز عنه مالم يتكلم به أو يعمل ، وما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب وعلمه فانه لايؤاخذ به .

و « أيضا » فاذا كان السكران لا يصح طلاقه والصبي المميز تصح

صلاته ، ثم الصبي لا يقع طلاقه فالسكران أولى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لماعز» لما اعترف بالحد : « أبــك جنون؟ قال : لا » ، ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكران ، فدل على ان إقرار السكران باطل ، وقضية ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر فان الخمر حرمت سنة ثلاث بعد احد باتفاق الناس ، وقد ثبت عن عثمان وغيره من الصحابة كعبــد الله بن عبـــاس أن طـــلاق السكران لا يقـــع ، ولم يثبت عـــن صحابي خلافه .

والذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذاً ضعيفا . وعمدتهم انه عاص بازالة عقله ، وهذا صحيح يوجب عقوبته عـلى المعصية الـتى هي الشرب فيحد على ذلك ، وأما الطلاق فلا يعاقب به مسلم على المعصية ، ولو كان كذلك لـكان كل من شرب الخمر أو سكر طلقت امرأتــه ، وإنما قال من قال : إذا تكلم به طلقت ، فهم اعتبروا كلامه لا معصيته ، ثم إنه فى حال سكره قد يعتق ، والعتق قربــة ، فان صححوا عتقــه بطل الفرق ، وان الغوه فالغاء الطلاق أولى ، فان الله يحب العتق ولا يحب الطلاق .

ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغــير مسكر كالبنج ، وهو قول من يسوى بين البنج والسكران من أصحاب الشافعي وموافقيه كأبي الخطاب ، والاكثرون على الفرق ، وهو منصوص

أحمد وأبي حنيفة وغيرهما ؛ لأن الخمر تشتهيها النفس وفيها الحد ؛ بخلاف البنج فانه لاحد فيه ؛ بل فيه التعزير ؛ لأنه لايشتهى كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير فيها التعزير ، وعامة العلماء على أنه لا حد فيها إلا قولاً نقل عن الحسن ، فهذا فيمن زال عقله .

وأما اذا كان يعلم ما يقول ، فان كان مختاراً قاصداً لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله ، وان كان مكرها فان اكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لغو ، مثل كفره ، وايمانه ، وطلاقه وغيره ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وأبو حنيفة وطائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ وما لا يقبله . قالوا : فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكره كالبيع ؛ بل يقف على إجازته له ، وما لا يقبل الفسخ كالنكاح والطلاق واليمين فانه يلزم من المكره .

والجمهور ينازعون فى هذا الفرق : فى ثبوت الوصف ، وفى تعلق الحكم به ؛ فانهم يقولون : النكاح ونحوه يقبل الفسخ ، وكذلك العتق يقبل الفسخ عند الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد ، حتى ان المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق ويعيدونه عبداً ، والايمان المنعقدة تقبل التحلة ، كما قال تعالى : (قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم) .

وبسط الكلام على هذا له موضع آخر .

و « المقصود هنا » ان القلب هو الأصل فى جميع الأفعال والأقوال فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بد فيه من معرفة القلب وقصده وما أمر به من الأقوال وكل ما تقدم ، والمنهى عنه من الأقوال والافعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب ، وأما ثبوت بعض الاحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم أو مخطىء أو ناس ، فهذا من باب العدل فى حقوق العباد ، ليس هو من باب العقوبة .

فالمأمور به كما ذكرنا « نوعان » نوع ظاهر على الجوارح ، ونوع باطن فى القلب .

« النوع الثانى » ما يكون باطناً فى القلب كالاخلاص وحب الله ورسوله والتوكل عليه والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فانه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول، فنفس ايمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه واخلاص الدين له لايتم شيء من المأمور به ظاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالا ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالا ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها ، كما قال تعالى :

(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم) .

وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعته أعظم إثما من أعمال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل والزنا والشرب والسرقة ، وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة : كالسجود للأوثان ، وسب الرسول ونحو ذلك فانما ذلك لكونه مستلزما لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم فى الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم الى الاسلام فأسلموا على يديه ، ولم يظهر منافرتهم في أول الأمر .

وهنا « أصول » تنازع الناس فيها . منها ان القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لابد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : انه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالاسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً فى الباطن ؛ وإنما هو كافر .

وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً فى الباطن (١) وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعا وعقلا كما قد بسط فى غير هـذا الموضع ، وقد كفر السلف كوكيع وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول ، وقد قال النبي صـلى الله عليه وسـلم : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب » فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فاذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم ان من يتكلم بالايمان ولا يعمل به لا يكون قلبـه مؤمناً ، حتى ان المـكره إذا كان فى اظهار الايمان فلا بد أن يتكلم مع نفسه وفى السر مع من يأمن إليه ، ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال عثمان . واما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط فانه يدل على أنه ليس فى القلب ايمان .

وذلك أن الجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء فى القلب الا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجـوه ، وان لم يظهر كل موجبه لمعارض فالمقتضي لظهور موجبه قائم ؛ والمعـارض لا يكون لازما للانسان لزوم القلب له ؛ وإنمـا يكون فى بعض الأحوال متعذراً اذا

---

(١) بياض بالاصل .

كتم ما فى قلبه كمؤمن آل فرعون ، مع أنه قد دعى إلى الايمان دعاء ظهر به من ايمان قلبه مالا يظهر من إيمان من أعلن ايمانه بين موافقيه وهذا في معرفة القلب وتصديقه .

ومنها قصد القلب وعزمه إذا قصد الفعل وعزم عليه مع قدرته على ما قصده هل يمكن ان لا يوجد شيء مما قصده وعزم عليه ؟ فيه قولان أصحهما أنه إذا حصل القصد الجازم مع القدرة وجب وجود المقدور ، وحيث لم يفعل العبد مقدوره دل على أنه ليس هناك قصد جازم وقد يحصل قصد جازم مع العجز عن المقدور لكن يحصل معه مقدمات المقدور ، وقيل : بل قد يمكن حصول العزم التام بدون أمر ظاهر .

وهذا نظير قول من قال ذلك في المعرفة والتصديق ، وهما من أقوال اتباع جهم الذين نصروا قوله في الايمان ، كالقاضي ابى بكر وامثاله ، فانهم نصروا قوله وخالفوا السلف والأئمة وعامة طوائف المسلمين .

وبهذا ينفصل النزاع في « مؤاخذة العبد بالهمة » فمن الناس : من قال : يؤاخذ بها إذا كانت عزما ، ومنهم من قال : لا يؤاخذ بها ، والتحقيق : ان الهمة اذا صارت عزما فلا بد ان يقترن بها قول أو

فعل ؛ فان الارادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور .

والذين قالوا : يؤاخذ بها احتجوا بقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » الحديث ، وهذا لا حجة فيه ؛ فانه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا ، كل منهما يريد قتل الآخر ، وهذا ليس عزماً مجرداً ؛ بل هو عزم مع فعل المقدور ؛ لكنه عاجز عن اتمام مراده ، وهذا يؤاخذ باتفاق المسلمين ، فمن اجتهد على شرب الخمر وسعى في ذلك بقوله وعمله ثم عجز فانه آثم باتفاق المسلمين ، وهو كالشارب وان لم يقع منه شرب ، وكذلك من اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله ثم عجز فهو آثم كالفاعل ، ومثل ذلك فى قتل النفس وغيره ، كما جعل الداعي الى الخير له مثل اجر المدعو ووزره لأنه أراد فعل المدعو ، وفعل ما يقدر عليه ، فالارادة الجازمة ، مع فعل المقدور من ذلك ، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره وقد قال تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم) الآية .

وفصل الخطاب فى الآية ان (اولي الضرر) نوعان :

نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما اقعدهم العذر ، فهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان

بالمدينة رجالا ماسرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » . وهم أيضاً كما قال فى حديث أبي كبشة الأنماري « هما فى الأجر سواء » وكما فى حديث أبى موسى « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيما » فأثبت له مثل ذلك العمل ؛ لان عزمه تام وإنما منعه العذر .

و (النوع الثاني) من « أولى الضرر » الذين ليس لهم عزم على الخروج ، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزما جازماً على الخروج] وقوله تعالى : (غير اولي الضرر) سواء كان استثناء او صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين فى نفي الاستواء ، فاذا فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها ، ولو جعل قوله : (فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) عاما فى أهل الضرر وغيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله : (غير اولي الضرر) ، فان قوله : (لا يستوي القاعدون) (والمجاهدون) انما فيها نفي الاستواء ؛ فان كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله : (غير أولي الضرر) ، ولزم أنه لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولي الضرر ، وهذا خلاف مقصود الاية .

و « أيضاً » فالقاعدون إذا كانوا من غير أولي الضرر ، والجهاد

ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم ؛ فانه لا حرج عليهم فى القعود ؛ بل هم موعودون بالحسنى كاولي الضرر وهـــذا مثـل قوله : (لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل) الآية فالوعـــد بالحسنى شامل لأولي الضرر وغيرهم .

فان قيل : قد قال فى الأولى فى فضلهم (درجة) ، ثم قال في فضلهم (درجات منه ومغفرة ورحمة) كما قال : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجـد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهـــد فى سبيـل الله لا يستوون عنـد الله ، والله لا يهدي القوم الظـالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهـدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عنـد الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنـات لهم فيها نعيم مقيم)

فقوله : (أعظم درجة) كما قال فى السـابقين (أعظم درجـة) وهذا نصب على التمييز : أى درجتهم أعظم درجـة ، وهـذا يقتضي تفضيلا مجملا يقال : منزلة هذا أعظم واكبر ، كذلك قوله : (فضـل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيما) الآيات ؛ ليس المراد بـه أنهم لم يفضلوا عليهم الا بدرجة ، فان فى الحديث الصحيح الذي يرويه ابو سعيد وأبو هريرة : « ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجـاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » الحديث ، وفى

حديث أبي سعيد : « من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : واخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فقال : وما هي يا رسول الله ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » فهذا الحديث الصحيح بين ان المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير اولي الضرر مائة درجة ، وهو يبطل قول من يقول : ان الوعد بالحسنى والتفضيل بالدرجة مختص باولى الضرر ، فهذا القول مخالف للكتاب والسنة .

وقد يقال : ان (درجة) منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل ، كما يقال : فضل هذا على هذا منزلا ومقاماً . وقد يراد (بالدرجة) جنس الدرج ، وهي المنزلة والمستقر ، لا يراد به درجة واحدة من العدد ، وقوله : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات) منصوب (بفضل) لأن التفضيل زيادة للمفضل ، فالتقدير زادهم عليهم اجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة ، فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر والوزر أم لا ؟ واما فى استحقاق الأجر والوزر فلا نزاع فى ذلك ، وقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه وفعل مقدوره ، فكلاهما مستحق للنار

ويبقى الكلام في تساوي القعودين بشيء آخر .

وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم ، فلا تكون عاقبتها إلا عاقبة سوء ، الغالب والمغلوب ، فانه لم يحصل له دنيا ولا آخرة ، كما قال الشعبي : أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقيا ، ولا فجرة أشقياء ، واما الغالب فانه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة ، وقد يعجل الله له الانتقام في الدنيا ، كما جرى لعامة الغالبين في الفتن ، فانهم اصيبوا في الدنيا ، كالغالبين في الحرة ، وفتنة أبي مسلم الخراساني ونحو ذلك .

واما من قال : إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها » وهذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم ، بل فيه أنه عفى عن حديث النفس الى أن يتكلم أو يعمل ، فدل على أنه مالم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ ؛ ولكن ظن من ظن أن ذلك عزما وليس كذلك ؛ بل مالم يتكلم أو يعمل لا يكون عزماً ؛ فان العزم لا بد ان يقترن به المقدور وإن لم يصل العازم الى المقصود ، فالذى يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزما جازما لا بد أن يتحرك ولو برأسه ، أو يمش ، أو يأخذ آلة ، أو يتكلم كلمة ، أو يقول أو يفعل شيئاً ، فهذا كله ما يؤاخذ به كزنا العين واللسان والرجل ، فان هذا يؤاخذ به ، وهو من مقدمات الزنا التام

بالفرج ، وإنما وقع العفو عما مـا لم يبرز خارجا بقـول أو فعل ولم يقترن به أمر ظاهر قط ، فهذا يعفى عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به ، سواء كان المأمور به في القلب وموجبه فى الجسد أو كان المأمور به ظاهراً فى الجسد وفي القلب معرفته وقصده ، فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفواً مثل هم ثابت بـلا فعل ، ومثـل الوسواس الذي يكرهونه وهم يثابون على كراهته ، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه لله تعالى وخوفاً منه .

وقال الشيخ رحمه الله :

اعلم ان الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وبارك ، خواتيم (سورة البقرة) من كنز تحت العرش لم يؤت منه نبي قبله ، ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين ، وقواعد الايمان الخمس ، والرد على كل مبطل ، وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، ومحبة الله سبحانه لهم ، وتفضيله إياهم على من سواهم ، فاليهنه العلم ، ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ، ولكن لابد من كليات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول :

لما كانت (سورة البقرة) سنام القرآن ، وأكثر سوره أحكاما ، وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه ، وهي مشتملة على ذكر « أقسام الخلق » : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأعمالهم .

وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق ـــ سبحانه وتعالى ـــ وعلى وحدانيته ، وذكر نعمه ، وإثبات نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم ،

وتقرير المعاد ، وذكر الجنة والنار ، وما فيها من النعيم والعذاب .

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي .

ثم ذكر خلق آدم عليه السلام ، وانعامه عليـــه بالتعليم وإسجاد ملائكته له ، وإدخاله الجنة ، ثم ذكر محنته مـع ابليس ، وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام .

ثم ذكر « المناظرة » مع أهل الكتاب من اليهود ، وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم ، ثم ذكر النصارى والرد عليهم ، وتقرير عبودية المسيح ، ثم تقرير النسخ ، والحـكمة فى وقوعه .

ثم بناء البيت الحرام وتقرير تعظيمه ، وذكر بانيه والثناء عليـــه ، ثم تقرير الحنيفية ملة ابراهيم عليه الصلاة والســلام ، وتسفيه من رغب عنها ، ووصية بنيه بها ، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة ، فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة ، فقال تعالى : (لله مافي السموات وما فى الارض ، وإن تبدوا ما فى أنفســكم أو تخفوه يحاسبكم بـه الله ، فيغفر لمن يشاء ويعـذب من يشاء ، والله عــلى كل شيء قدير) .

فأخبر تعالى : ان مافى السموات وما فى الارض ملـكه وحده لا

يشاركه فيه مشارك ، وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق ، والملك العام لـكل موجود ، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد إلهيتـه ، فتضمن نـفي الولد والصاحبـة والشريـك ؛ لأن ما في السموات وما فى الارض إذا كان ملـكه وخلقـه لم يكن له فيهـم ولد ولا صاحبـة ولا شريك .

وقد استدل سبحانه بعين هذا الدليل فى سورة الأنعام ، وسورة مريم ، فقال تعالى : (بديع السموات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شـيء) وقال تعـالى فى سورة مريم : (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) ويتضمن ذلك ان الرغبـة والسؤال والطلب والافتقـار لا يكـون إلا اليـه وحـده ؛ إذ هو المـالك لمـا فى السموات والارض .

ولما كان تصرفه سبحانه فى خلقه لا يخرج عن العـدل والاحسان ، وهو تصرف بخلقه وأمره ، وأخـبر أن مافى السموات وما فى الارض ملـكه ، فما تصرف خلقاً وأمراً إلا في ملـكه الحقيقي ، وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على مالم يشتمل عليـه سورة غيرهـا — أخبر تعالى أن ذلك صدر منه فى ملـكه قال تعالى : (وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ، فهـذا متضمن لـكمال علمـه

سبحانه وتعالى بسرائر عباده وظواهرهم ، وانه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه ، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه ، فعلمه عام وملكه عام .

ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك ، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه ، فتضمن ذلك علمه بهم وتعريفهم إياه ، ثم قال : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فتضمن ذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل ، فيغفر لمن يشاء فضلا ، ويعذب من يشاء عدلا ، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للامر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة .

ثم قال تعالى : (والله على كل شيء قدير) فتضمن ذلك أنه لا يخرج شيء عن قدرته البتة ، وان كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك رد على المجوس الثنوية ، والفلاسفة ، والقدرية المجوسية ، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته — وهم طوائف كثيرون .

فتضمنت الآية اثبات التوحيد ، وإثبات العلم بالجزئيات والكليات ، وإثبات الشرائع والنبوات ، واثبات المعاد والثواب والعقاب، وقيام الرب على خلقه بالعدل والفضل ، وإثبات كمال القدرة وعمومها ، وذلك يتضمن حدوث العالم بأسره ؛ لأن القديم لا يكون مقدوراً ولا مفعولا .

ثم ان إثبات كمال علمه وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى ،

وله من كل صفة إسم حسن ، فيتضمن إثبات أسمائـه الحسنى ، وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالا لما يريد ، وذلك يتضمن تنزيهه عن كل ما يضاد كماله ، فيتضمن تنزيهه عن الظلم المنافي لـكمال غناه وكمال علمه ؛ إذ الظلم إنما يصدر عن محتـاج أو جاهل ، وأما الغـني عن كل شيء العالم بكل شيء سبحانه فانه يستحيل منه الظلم ، كما يستحيل عليه العجز المنافى لكمال قدرته ، والجهل المنافي لكمال علمه .

فتضمنت الآية هذه المعارف كلهـا بأوجز عبـارة وأفصح لفظ وأوضح معنى .

وقد عرفت بهذا ان الآية لا تقتضي العقاب على خواطر النفوس المجردة ؛ بل إنما تقتضى محاسبة الرب عبده بها ، وهي أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الاخص ، وبعد محاسبته بهـا يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وعلى هذا فالآية محكمة لا نسخ فيها ، ومن قال من السلف : نسخها ما بعدها فمراده بيان معناها والمراد منها ، وذلك يسمى نسخاً في لسان السلف ، كما يسمون الاستثناء نسخاً .

ثم قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربـه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فهذه شهادة الله تعـالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بايمانه بما أنزل اليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه

ثواب أكمل أهل الايمان — زيادة على ثواب الرسالة والنبوة — لأنه شارك المؤمنين فى الايمان ، ونال منه أعلى مراتبه ، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوة ، وقوله : (أنزل اليه من ربه) يتضمن انه كلامه الذي تكلم به ، ومنه نزل لا من غيره ، كما قال تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك) وقال : (تنزيل من رب العالمين) .

وهذا احد ما احتج به أهل السنة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن ، قالوا : فلو كان كلاما لغير الله لكان منزلا من ذلك المحل لا من الله ؛ فان القرآن صفة لا تقوم بنفسها ؛ بخلاف قوله : (وسخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعاً منه) فان تلك أعيان قائمة بنفسها ، فهي منه خلقاً ، وأما « الكلام » فوصف قائم بالمتكلم ، فلما كان منه فهو كلامه ؛ إذ يستحيل أن يكون منه ولم يتكلم به .

ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ، ثم شهد لهم جميعا بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله . فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الايمان الخمسة التى لا يكون أحد مؤمناً إلا بها ، وهي : الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة فى أول السورة ووسطها

وآخرها ، فقال فى أولها : (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) فالايمان بمـا أنزل اليه وما أنزل من قبله يتضمن الأيمان بالكتب والرسـل والملائكة ، ثم قال : (وبالآخرة هم يوقنون) . والايمان بالله يدخل فى الايمان بالغيب وفى الايمان بالكتب والرسل ، فتضمنت الايمان بالقواعد الخمس .

وقال فى وسطها : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبيين) ثم حكى عن أهل الايمان انهم قالوا : (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا ينفعنا إيماننـا بمن آمنا به منهم كما لم ينفع أهـل الكتاب ذلك ؛ بل نؤمن بجميعهـم ونصدقهم ولا نفرق بينهم ، وقد جمعتهم رسالة ربهم فنفرق بـين من جمع الله بينهم ، ونعـادي رسله . ونكون معادين له . فباينوا بهـذا الايمان جميع طوائف الكفار المـكذبـين لجنس الرسـل . والمصدقين لبعضهم المكذبين لبعضهم .

وتضمن إيمانهم بالله إيمانهم بربوبيته ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيئته ، وكمال علمه وحكمته ، فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البـدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه ؛ فان كمال الايمان بالله يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه ، وتنزيهه عما نزه نفسه

عنه ، فباينوا بهذين الأمرين جميع طوائف الكفر ، وفرق أهل الضلال الملحدين فى أسماء الله وصفاته

ثم قالوا : (سمعنا وأطعنا) فهذا اقرار منهم بركني الايمان الذي لا يقوم إلا بها ، وهما السمع المتضمن للقبول ؛ لا مجرد سمع الادراك المشترك بين المؤمنين والكفار ؛ بل سمع الفهم والقبول ، و « الثانى » الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر ، وهذا عكس قول الأمة الغضبية (سمعنا وعصينا).

فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم ، وكمال قبولهم ، وكمال انقيادهم ، ثم قالوا : (غفرانك ربنا وإليك المصير) لما علموا أنهم لم يوفوا مقام الايمان حقه مع الطاعة والانقياد الذي يقتضيه منهم ، وأنهم لا بد أن تميل بهم غلبات الطباع ودواعى البشرية إلى بعض التقصير فى واجبات الايمان ، وانه لا يلم شعث ذلك إلا مغفرة الله تعالى لهم ، سألوه غفرانه الذي هو غاية سعادتهم ، ونهاية كمالهم ؛ فان غاية كل مؤمن المغفرة من الله تعالى ، فقالوا : (غفرانك ربنا) ثم اعترفوا أن مصيرهم ومردهم إلى مولاهم الحق لا بد لهم من الرجوع إليه فقالوا : (وإليك المصير) .

فتضمنت هذه الكلمات إيمانهم به ، ودخولهم تحت طاعته وعبوديته ،

واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم الى مغفرته ، واعترافهم بالتقصير في حقه ، وإقرارهم برجوعهم إليه .

ثم قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فنفى بذلك ما توهموه من أنه يعذبهم بالخطرات التى لا يملكون دفعها ، وأنها داخلة تحت تكليفه ، فأخبرهم أنه لا يكلفهم إلا وسعهم ، فهذا هو البيان الذي قال فيه ابن عباس وغيره فنسخها الله عنهم بقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمراً ونهياً فهم مطيقون له قادرون عليه ، وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ، وفى ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك .

والله تعالى أمرهم بعبادته . وضمن أرزاقهم ، فكلفهم من الأعمال ما يسعونه ، وأعطاهم من الرزق ما يسعهم ، فتكليفهم يسعونه ، وأرزاقهم تسعهم ، فهم فى الوسع في رزقه وأمره : وسعوا أمره ، ووسعهم رزقه ففرق بين ما يسع العبد وما يسعه العبد ، وهذا هو اللائق برحمته وبره وإحسانه وحكمته وغناه ؛ لا قول من يقول انه كلفهم ما لا قدرة لهم عليه البتة ولا يطيقونه ثم يعذبهم على ما لا يعملونه .

وتأمل قوله عز وجل : (إلا وسعها) كيف تجد تحته انهم فى سعة ومنحة من تكاليفه ؛ لا في ضيق وحرج ومشقة ؛ فان الوسع

يقتضي ذلك ، فاقتضت الآية أنما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج ؛ بخلاف ما يقدر عليه الشخص فانه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرج عليه . وأما وسعه الذي هو منه فى سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود ؛ بل لنفسه فيه مجال ومتسع ، وذلك مناف للضيق والحرج (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) بل (يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) قال سفيان بن عيينة في قوله : (إلا وسعها) الا يسرها لا عسرها ، ولم يكلفها طاقتها ، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود .

فهذا فهم أئمة الاسلام وأين هذا من قول من قال انه كلفهم ما لا يطيقونه البتة ولا قدرة لهم عليه ؟ ثم أخبر تعالى أن ثمرة هذا التكليف وغايته عائدة عليهم ، وأنه تعالى يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرره باكتسابهم ؛ بل لهم كسبهم ونفعه . وعليهم اكتسابهم وضرره فلم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ؛ بل رحمة وإحساناً وتكرماً . ولم ينههم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم بل حمية وحفظاً وصيانة وعافية .

وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها ، ولا تثاب بكسبه ، ففيه معنى قوله : (وان ليس للانسان إلا ما سعى) . (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وفيه أيضاً إثبات كسب النفس المنافي للجبر .

وفيه أيضاً اجتماع الحكمة فيه ، فاما كسب خيراً أو اكتسب شراً ، لم يبطل اكتسابه كسبه ، كما يقوله أهل الاحباط والتخليد ؛ فانهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب ، فالآية رد على جميع هذه الطوائف ، فتأمل كيف أتى فيا لها بالكسب الحاصل ، ولو لأدنى ملابسة ، وفيا عليها بالاكتساب الدال على الاهتمام والحرص والعمل ؛ فان اكتسب أبلغ من كسب ، ففي ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل ، والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهوداً منه ووصايا ، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، وأن لا يخل بشيء منها ؛ ولكن غلبات الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى الى أن يسألوه مسامحته إياهم فى ذلك كله ، ورفع موجبه عنهم بقولهم : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) أي لا تكلفنا من الآصار التى يثقل حملها ما كلفته من قبلنا ؛ فانا أضعف أجساداً وأقل احتمالا .

ثم لما علموا انهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم ، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه سألوه التخفيف فى قضائه وقدره ،

كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا : (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) فهذا في القضاء والقدر والمصائب وقولهم (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) فى الأمر والنهي والتكليف فسألوه التخفيف في النوعين .

ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ؛ فان بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة ، ولا يصفو عيش فى الدنيا والآخرة إلا بها ، وعليها مدار السعادة والفلاح ، فالعفو متضمن لاسقاط حقه قبلهم ومسامحتهم به ، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم ؛ بخلاف العفو المجرد ؛ فان العافى قد يعفو ولا يقبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه ، فالعفو ترك محض ، والمغفرة إحسان وفضل وجود والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الاحسان والعطف والبر ، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير ، والنصرة تتضمن التمكين من اعلان عبادته وإظهار دينه ، وإعلاء كلمته ، وقهر أعدائه ، وشفاء صدورهم منهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم ، وحزازات نفوسهم ، وتوسلوا فى خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه ، فهو ناصرهم ، وهاديهم ، وكافيهم ، ومعينهم ، ومجيب دعواتهم ، ومعبودهم .

فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت وذلت لعزة ربها ومولاها وإجابتها جوارحهم اعطوا كلما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا

شيئاً منه إلا قال الله تعالى : قد فعلت ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك .

فهذه كلمات قصيرة مختصرة فى معرفة مقدار هذه الآيات العظيمة لشأن ، الجليلة المقدار ، التى خص الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته من كنز تحت العرش .

وبعد ففيها من المعارف وحقائق العلوم ما تعجز عقول البشر عن الاحاطة به ، والله المرغوب إليه أن لا يحرمنا الفهم في كتابه أنه رحيم ودود .

والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وآله وصحبه أجمعين .

وقال رحمه الله

فصـــــل

فى الدعاء المذكور فى آخر (سورة البقرة) وهو قوله : (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) الى آخرها .

قد ثبت فى صحيـح مسـلم : « أنه قال قـد فعلت » وكذلك في صحيحه من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « اعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم تقرأ بحرف منها الا اعطيته » وفى صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : « لما اسري برسول الله صلى الله عليـه وسلم انتهى به الى سدرة المنتهى وهي فى السماء السابعة اليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، قال : (اذ يغشى السدرة ما يغشى) قال : فراش من ذهب ، قال : فاعطي رسول الله صلى الله عليـه وسلم ثلاثـاً ، اعطى الصـلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً المقحمات » .

قال بعض الناس إذا كان هذا الدعاء قد أجيب، فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل، وهذا لا فائدة فيه، فيكون هـذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال، وهذا القول قد قاله طائفـة فى جميع الدعاء أنه ان كان المطلوب مقدرا فلا حاجة الى سؤاله وطلبه، وان كان غير مقدر لم ينفع الدعاء ـــ دعوت او لم تدع ـــ فجعلوا الدعاء تعبداً محضاً، كما قال ذلك طائفة أخرى فى التوكل.

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع، وذكرنا قول من جعل ذلك امارة او علامة بناء على أنه ليس في الوجود سبب يفعل به؛ بل يقترن أحـــد الحادثين بالآخر، قاله طـائفة مـــن القدرية النظار، وأول من عرف عنــه ذلك الجهم بن صفوان ومن وافقـــه، وذكرنا أن «القول الثالث» هو الصواب، وهـــو ان الدعاء والتوكل والعمل الصـــالح سبب فى حصول المدعو به من خير الدنيا والآخرة والمعاصي سبب، وان الحكم المعلق بالسبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتفاء الموانع؛ فاذا حصل ذلك حصل المسبب بلا ريب.

والمقصود هنا الكلام فى الدعاء الذي قد علم أنه أجيب، فقال بعض الناس: هذا تعبد محض لحصول المطلوب بدون دعائنا، فلا يبقى سببا ولا علامة، وهذا ضعيف.

اما أولاً فان العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به ، وهذا بناء على قول السلف : ان الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة ، كما لم يخلق ولم يأمر الا لسبب . والذين ينكرون الأسباب والحكم يقولون بل يأمر . بما لا منفعة فيه للعباد البتة ، وان اطاعوه وفعلوا ما أمرهم بـه ، كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

والمقصود ان كلما أمر الله به أمر به لحكمـة ، وما نهى عنـه نهى لحكمة ، وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة وسلف الأمة وأئمتها وعامتهـا فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع . نعم ! قد تكون الحكمة فى المأمور به ، وقد تكون فى الأمر ، وقد تكون فى كليهما ، فمن المأمور به مالو فعله العبد بدون الأمر حصل له منفعة : كالعدل ، والإحسان إلى الخلق وصلة الرحم ، وغير ذلك . فهذا إذ أمر به صار فيه « حكمتان » حكمة في نفسه ، وحكمة فى الأمر ، فيبقى له حسن من جهة نفسه ومن جهة أمر الشارع . وهذا هو الغالب على الشريعة ، وما أمر الشرع به بعد ان لم يكن انما كانت حكمته لما أمر به .

وكذلك ما نسخ زالت حكمته وصارت فى بدله كالقبلة .

وإذا قدر ان الفعل ليست فيه حكمة أصلاً فهل يصير بنفس الأمر فيه حكمة الطاعة ؟ وهذا جائز عند من يقول بالتعبد المحض وان لم يقل

بجواز الأمر لكل شيء : لكن يجعل من باب الابتلاء والامتحان . فاذا فعل صار العبد به مطيعا . كنهيهم عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده .

والتحقيق ان الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحض عليه من غير منفعة فى الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود ، وان لم يفعله . كابراهيم لما أمر بذبح ابنه ، وكحديث أقرع وابرص وأعمى لما طلب منهم اعطاء ابن السبيل فامتنع الأبرص والأقرع فسلبا النعمة . واما الأعمى فبذل المطلوب ، فقيل له امسك مالك فانما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك ، وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والنهي لا من نفس الفعل . فقد يؤمر العبد وينهى وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له وبذله للمطلوب ، كما كان المطلوب من ابراهيم تقديم حب الله على حبه لابنه حتى تتم خلته به قبل ذبح هذا المحبوب لله ، فلما أقدم عليه وقوى عزمه بارادته لذلك تحقق بان الله أحب اليه من الولد وغيره ، ولم يبق فى قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من ايمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر واما رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل فى نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا بقوله في الحديث الذي في السنن « انما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لاقامة ذكر الله » رواه ابو داود والترمذي وغيرهما . فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا له حكمة ، فكيف يقال لا حكمة ؛ بل هو تعبد وابتلاء محض .

واما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة الا مجرد الطاعة ، والمؤمنون يفعلونه فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم ، كما نسخ ايجاب الخمسين صلاة الى خمس ،

و « المعتزلة » تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر : ولهذا لم يجوزوا النسخ قبل التمكن ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من اصحاب أحمد وغيرهم ، كابي الحسن التميمي وبنوه على اصلهم ، وهو ان الأمر عندهم كاشف عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وان الأمر لا يكون الا بحسن ، وغلطوا في المقدمتين فان الأمر وان كان كاشفا عن حسن الفعل فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير الحسن الأول . وإذا كان مقصود الآمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه وينسخه قبل التمكن اذا حصل المقصود من طاعة المأمور وعزمه وانقياده ، وهذا موجود في أمر الله وامر الناس بعضهم بعضا .

والجهمية تنكر ان يكون في الفعل حكمة اصلا في نفسه ولا في نفس

الامر بناء على اصلهم أنه لا يأمز لحكمة ، وعلى ان الافعال بالنسبة اليه سواء ليس بعضها حسنا وبعضها قبيحا ، وكلا الاصلين قد وافقهم عليه الاشعرية ومن اتبعهم من الفقهاء ، كأصحاب الشافعي ومالك واحمد وغيرهم ، وهما أصلان مبتدعان ؛ فان مذهب السلف والأئمة ان الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة، ومذهب السلف والأئمة ان الله يحب الايمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ؛ وان كان قد شاء وجود ذلك وقد بسط هذا في موضع آخر .

وقد قال تعالى : (ادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة) فان نفس السجود خضوع لله ولو فعله الانسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الامر بالسجود .

وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء لله وخضوع ، وقد قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) وهذه الأفعال المدعو بها فى آخر البقرة أمور مطلوبة للعباد .

وقد أجيب بجواب آخر وهو أن الله تعالى إذا قدر امراً فانه يقدر أسبابه ، والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه ، وكذلك

ما وعده به ربه مـن الوسيلة ، وقد قضى بهـا له ، وقد أمر أمته بطلبها اه ، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء .

وعلى هذا فالداخل فى السبب هو ما وقع مـن الدعاء المأمور به والله أعلم بذلك ، فيثيب هذا الداعى على ما فعله من الدعاء بجعله تمام السبب ، ولا يكون على هذا الدعاء سبباً فى اختصاصه بشيء من ذلك ؛ بل فى حصوله لمجموع الأمة ؛ لكن هو يثاب على الدعاء لكونه من جملة الأسباب ، وهذا لأن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : « ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها احدى خصال ثلاث : إما ان يعجل له دعوته ، واما ان يدخر له من الخـير مثلها ، وإما أن يكفر عنه من الذنوب مثلها ، واما أن يدفع عنـه من البلاء مثلها ، قالوا يا رسول الله ! اذا نكثر ، قال : الله اكثر » فالداعى بهذا كالداعى بالوسيـلة يحصل له من الاجر ما يخصه ، كالداعي للأمـة ولأخيه الغائب ، ودعاؤه من أسباب الخير التى بها رحمة الأمة ، كما يثاب على سؤاله الوسيلة للنبي صـلى الله عليـه وسلم بان تحل عليـه الشفاعة يوم القيامة .

وهنا « جواب ثالث » وهو ان كل من دعا بهذا الدعاء حصل له من المدعو المطلوب مالا يحصل بدون المطلوب من الدعاء ، فيكـون الدعاء به كدعائه بسائر مطالبه من المغفرة والرحمـة ، وليس هو كدعاء

الغائب للغائب ؛ فان الملك يقول هناك : ولك بمثله ، فيدعو له الملك بمثل ما دعا به للغائب وهنا هو داع لنفسه وللمؤمنين .

وبيان هذا أن الشرع وان كان قد استقر بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اخبر ان الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان ، وقد أخبر ان الرسول يضع عن أمته اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، وسأل ربه لأمته ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطاه ذلك ؛ لكن ثبوت هذا الحكم فى حق آحاد الأمة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله ، فاذا عصى الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وان كانت الشريعة لم تنسخ .

يبين هذا ان فى هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار ، ومعلوم أن هذا ليس حاصلا لكل واحد من أفراد الأمة ، بل منهم من يدخل النار ، ومنهم من ينصر عليه الكفار ، ومنهم من يسلب الرزق لكونهم فرطوا فى طاعة الله ورسوله فيسلبون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصروا ، وقول الله : « قد فعلت » يقال فيه شيئان .

(احدهما) أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين فى الآية ، والايمان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله . فمن لم يكن كذلك نقص

ايمانه الواجب فيستحق من سلب هذه النعم بقـــدر النقص ، ويعوق الله عليـــه مـــلاذ ذلك ، ولم يستحق من الجزاء مايستحقـــه من قام بالايمان الواجب .

(الثانى) ان يقال : هذا الدعاء استجيب له فى جملة الأمة ، ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد ، وكلا الأمرين صحيح ؛ فان ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمـــة حاصل ، ولولا ذلك لاهلكوا بعذاب الاستئصال كما اهلكت الأمم قبلهم ، وقـــد قال النبي صلى الله عليـــه وســـلم فى الحديث الصحيـــح : « سألت ربي لأمتى ثلاثـــا فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألته ان لا يهلك امتى بسنة عامة فاعطانيها ، وسألتـــه ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فاعطانيها ، وسألته ان لا يجعـــل بأسهم بينهـــم فمنعنيهـــا ، وقال : يامحمـــد ! انى إذا قضيت قضـــاء لم يرد » .

وكذلك فى الصحيحين : « لما نزل قوله تعالى : (قل هو القادر على ان يبعث عليـــكم عذابا من فوقكم) قال النبي صلى الله عليه وسلم اعوذ بوجهك (او من تحت ارجلـــكم) قال : اعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : هاتان أهون ، وهـــذا لأنه لابد أن تقع الذنوب من هذه الأمة ، ولابد ان يختلفوا ؛ فان هـــذا مـــن لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك ،

ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتـــال والذنوب دليلا على نقصها ؛ بل هي أفضل الأمم ، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية ، وهو فى غيرها اكثر وأعظم ، وخير غيرها أقل والخير فيهـا اكثر ، والشر فيها أقلّ ، فـكل خير فى غيرهـا فهو فيها أعظم ، وكل شر فيها فهو فى غيرها اعظم .

واما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم حصوله لـكل عاص ؛ لأنه لم يقم بالواجب ، ولكن قد يحصل للعاصي من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالى ، أما حصول المغفرة والعفو والرحمة بحسب الايمان والطاعة فظاهر ؛ لأن هذا من الأحكام القدرية الخلقية من جنس الوعد والوعيد ، وهذا يتنوع بتنوع الايمان والعمل الصالح .

واما دفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، ودفع الآصار ، فان هـذا قد يشكل لأنه من باب الاحكام الشرعية احكام الأمر والنهي .

فيقال : الخطأ والنسيان المرفوع عن الأمة مرفوع عن عصاة الامة ؛ فان العاصي لا يأثم بالخطأ والنسيان ؛ فانه اذا أكل ناسياً أتم صومـه سواء كان مطيعاً في غير ذلك أو عاصياً ، فهـذا هو الذى يشـكل ، وعنه جوابان .

(احدهما) ان الذنوب والمعاصي قد تـكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية

السمحة ؛ فان الانسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملا ، لا يعلم ان ذلك مرفوع عنه ؛ اما لجهله ، واما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ، كمن يبطل الصوم بالنسيان ، وآخرون بالخطأ ، وكذلك الاحرام ، وكذلك الكلام في الصلاة ، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو مخطئاً ، فاذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة الا هؤلاء فيفتونه بما يقتضى مؤاخذته بالخطأ والنسيان ، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلا في حقه لعدم العلم ، لا لنسخ الشريعة .

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع ، كقوله : (وقالوا قلوبنا غلف ؛ بل طبع الله عليها بكفرهم) وقال : (وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم) وقال : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال : (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم)

وهـذا كما أنه حرم على بنى اسرائيل طيبات احلت لهم لأجـل ظلمهم وبغيهم ، فشريعة محمد لا تنسخ ولا تعاقب امته كلها بهذا ، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا ، بان يحرموا الطيبات ، أو بتحريم الطيبات : إما تحريماً كونياً بان لا يوجد غيثهم ، وتهلك ثمارهم ، وتقطع الميرة عنهم ، أو أنهم لا يجـدون لذة مأكل ولا مشـرب ولا منكح ولا ملبس ونحوه كما كانوا يجدونها قبل ذلك ، وتسلط عليهم الغصص وما ينغص ذلك ويعوقه . ويجرعون غصص المال والولد والأهل ، كما قال تعالى : (ولا تعجبك أموالهم ولا اولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيـاة الدنيا) وقال : (ايحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسـارع لهم فى الخيرات ؟ بل لا يشعرون) وقال : (إنما اموالـكم واولادكم فتنـة) فيكون هذا كابتلاء أهل السبت بالحيتان .

واما ان يعاقبوا باعتقاد تحريم ما هو طيب حلال لخفـاء تحليل الله ورسوله عندهم ، كما قد فعل ذلك كثير من الأمة اعتقدوا تحريم اشياء فروج عليهم بما يقعون فيه من الايمان والطلاق ، وان كان الله ورسوله لم يحرم ذلك ؛ لكن لما ظنوا انها محرمـة عليهم عوقبوا بحرمان العلم الذي يعلمون به الحل ، فصـارت محرمة عليهم تحريماً كونياً ، وتحريمـاً شرعياً فى ظاهر الأمر ؛ فان المجتهد عليه أن يقول ما أدى اليه اجتهاده فاذا لم يؤد اجتهاده إلا إلى تحريم هـذه الطيبات لعجزه عن معرفـة

الأدلة الدالة على الحـل كان عجزه سبباً للتحريم فى حـق المقصرين فى طاعـة الله .

وكذلك اعتقدوا تحريم كثير من المعـاملات التى يحتاجون اليهـا كضمان البساتين ، والمشاركات وغيرهـا ، وذلك لخفـاء ادلة الشرع ، فثبت التحريم فى حقهم بما ظنوه من الأدلة ، وهـذا كما ان الانسـان يعاقب بان يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الطيب ما هو موجود وهو مقدور عليه لو علمه ؛ لكن لا يعرف بذلك عقوبة له ، وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وقد قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) فهو سبحانه إنما ضمن الاشياء على وجهها واستقامتها للمتقين ، كما ضمن هذا للمتقين .

فتبين ان المقصرين فى طاعتـه من الأمة قـد يؤاخذون بالخطأ والنسيان ، ومن غير نسخ بعد الرسول ، لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ، ولعدم علم من عنـدهم من العلماء بذلك ؛ ولهـذا يوجد كثير ممن لا يصلي [فى السفر قصرا] يرى الفطر فى السفر حراما فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره فى الطاعة ؛ لكنه ممـا يكفر الله به من خطاياه ما يكفره ، كما يكفر خطايا المؤمنين بسائر مصائب الدنيا .

وكذلك منهم من يعتقـد التربيع في السفر واجبـاً فيربع فيبتلى بذلك لتقصيره في الطاعـة ، ومنهم من يعتقـد تحريم امـور كثيرة من المباحات التى بعضها مباح بالاتفاق ، وبعضها متنازع فيه ؛ لكن الرسول لم يحرمه ؛ فهؤلاء الذين اعتقدوا وجوب ما لم يوجبه الله ورسوله ، وتحريم ما لم يحرمه حمل عليهم إصراً ، ولم توضع عنهم جميع الآصار والأغلال وان كان الرسول قد وضعها ، لكنهم لم يعلموها .

وقد يبتلون بمطاع يلزمهـم ذلك فيكون آصاراً وأغلالا من جهـة مطاعهم : مثل حاكم ، ومفت ، وناظر وقف ، وأمير ينسب ذلك الى الشرع ؛ لاعتقاده الفاسد ان ذلك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعيهم تيسير الله عليهم عقوبة فى حقهـم لذنوبهم ، كما لو قدر أنـه سار بهم فى طريق يضرهم ، وعدل بهم عن طريق فيه الماء والمرعى لجهله ، لا لتعمده مضرتهـم ، أو أقام بهـم في بلد غالي الاسعار مـع امكان المقام ببلد آخر .

وهذا لأن الناس كما قد يبتلون بمطاع يظلمهم ويقصد ظلمهم يبتلون أيضا بمطاع يجهل مصلحتهم الشرعية والكونية ، فيكون جهل هـذا من أسباب عقوبتهم ، كما أن ظلم ذلك من أسباب مضرتهم ، فهولاء لم ترفع عنهم الآصار والأغلال لذنوبهم ومعاصيهـم ، وان كان الرسول ليس فى شرعه آصار وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظـلم ، وتساق

اليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلك من الآصار والأغلال التى لم ترفع عنهم ، مع عقوبات لا تحصى ؛ وذلك لضعف الطاعة فى قلوبهم وتمكن المعاصي وحب الشهوات فيها ، فاذا قالوا (ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا) دخل فيه هذا .

واما قوله : (ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) فعلى قولين :

قيل : هو من باب التحميل القدري ، لا من باب التكليف الشرعي أي : لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلى الانسان بفقر لايطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ، أو حب أو عشق لا يطيقه ، ويكون سبب ذلك ذنوبه .

وهذا مما يبين ان الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

وقوله : (من يعمل سوءا يجز به) ، و (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) قول حق ، وقال تعالى فى قصة قوم لوط : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) .

فما من أحد يبتلى بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم ، حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الانسان ، وان قويت حتى صارت غراما وعشقاً زاد العذاب الأليم ، سواء قدر أنه قادر على

المحبوب أو عاجز عنه ؛ فان كان عاجـزاً فهو فى عذاب أليـم من الحزن والهم والغم ، وان كان قادراً فهو فى عذاب اليم من خوف فراقه ، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه ، فان نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب ، وان صار الى غيره استبدالاً به أو مشاركة قوى عذابه ، فان هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل فى عشق البغـايا وما يحصل مثله فى الحلال ، وان حصل فى الحلال نوع عـذاب كان أخف من نظيره وكان ذلك سبب ذنوب أخرى .

فاذا دعى الانسان بهذا الدعاء يخص نفسه ويعم المسلمـين فله من ذلك أعظـم نصيب ، كيف لا وقـد قال النبي صـلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة ما قرأ بهـما أحـد فى ليلة الا كتفاه » وكيف لا تكفيانه وما دعا بـه من ذلك لم يحصل له إلا ما حصل لسائر المؤمنين الذين لم يقرؤوها فان الداعي بهذا الدعاء له منـه نصيب يخصه كسائر الأدعية .

ومما يبين ذلك ان الصحابة انما استجيب لهم هذا الدعاء لمـا التزموا الطاعة لله مطلقاً بقولهم : (سمعنا وأطعنا) ثم أنزل هـذا الدعاء فدعوا به فاستجيب لهم .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة عـلى عهـد رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا فى زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أو جبت اجتهاد الامام فى نوع من التشديد عليهم ، كمنعهم من متعة الحج ، وكايقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ، وكان أطوعهم لله وأزهدهم مثل أبي عبيدة ينقاد له عمر مالا ينقاد لغيره ، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها . حتى تنازعوا فيها ، وهم مؤتلفون متحابون ، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان فى آخر خلافة « عثمان » زاد التغير والتوسع فى الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان ، فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط ؛ بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات ، وصاروا يختصمون فى متعة الحج ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر ، فطائفة تمنع المتعة مطلقاً كابن الزبير ، وطائفة تمنع الفسخ كبني أمية واكثر الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع ، وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا

يقصد مخالفة الرسول ؛ بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ماحدث من الذنوب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحا رجلان فرفعت ، ولعل ذلك أن يكون خيراً لكم » أي قد يكون اخفاؤها خيراً لكم لتجتهدوا فى ليالي العشر كلها ؛ فانه قد يكون اخفاء بعض الأمور رحمة لبعض الناس .

والنزاع فى الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم ؛ ولهذا صنف رجل كتابا سماه « كتاب الاختلاف » فقال أحمد : سمه « كتاب السعة » وان الحق في نفس الأمر واحد ، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه لما في ظهوره من الشدة عليه ، ويكون من باب قوله تعالى : (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) .

وهكذا ما يوجد فى الأسواق من الطعام والثياب قد يكون فى نفس الأمر مغصوبا ، فاذا لم يعلم الانسان بذلك كان كله له حلالا لا إثم عليه فيه بحال ؛ بخلاف ما إذا علم ، فخفاء العلم بما يوجب الشدة قد يكون رحمة ، كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقوبة ، كما ان رفع الشك قد يكون رحمة وقد يكون عقوبة . والرخصة رحمة ، وقد يكون مكروه النفس أنفع كما فى الجهاد : (وعسى

ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) .

والمقصود هنا ان من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه : بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما : (كلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فازلهما الشيطان عنها ، فاخرجها مما كانا فيه ، وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو) فكل عداوة كانت في ذريتها وبلاء ومكروه وتكون الى قيام الساعة وفى النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالانسان إذا كان مقيما على طاعة الله باطنا وظاهراً كان فى نعيم الايمان والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو فى جنة الدنيا ، كما فى الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » ، وقال : (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) فانه كان يكون هنا فى رياض العلم والايمان .

وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى ،

فلا يزال فى علو مادام كذلك ، فاذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل ، فلا يزال فى هبوط ما دام كذلك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ؛ فان أراد الله به خيراً ثاب وعمل فى حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه ، قال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ؛ ولكن يناله التقوى منكم) فتقوى القلوب هي التى تنال الله كما قال : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فانها لا تنال الله .

و « الباطنية » المنكرون لخلق العالم في ستة أيام ، ومعاد الأبدان الذين يجعلون للقرآن تأويلا يوافق قولهم ، عندهم ماثم « جنة » الا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة ، وماثم « نار » إلا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والاخلاق الذميمة السيئة ، فنار النفوس ألمها القائم بها كحسراتها لفوات العلم ، أو لفوات الدنيا المحبوبة لها ، وحجبها إنما هي ذنوبها .

وهذا الكلام مما يذكره ابو حامد في « المظنون به على غير أهله » لكن قد يقول هذا : ليس هو عذاب القبر المذكور فى الأجسام ؛ بل ذلك أمر آخر مما بينه أهل السنة . ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ، ولهذا ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب .

وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا ؛ فان الناس فى الدنيا يثابون ويعاقبون بامور منفصلة عنهم ، فكيف فى دار الجزاء . ولكن الذي أثبتوه من هذا وهذا [منه] ما هو حق . ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله ، فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن إلا في جنة العلم ، وهبوطه انخفاض درجته في العلم ، وهذا كذب ؛ ولكن ما أثبتوه من الحق حق ، وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذي تسميه الصوفية الاشارة ؛ لا أنه هو المراد بالآية ؛ لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على ان من كذب بالحق عوقب بان يطبع على قلبه فلا يفهم العلم ، أو لا يفهم المراد منه ، وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلاً ، كما قال تعالى عن اليهود : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

ولا ريب ان لذة العلم أعظم اللذات ، و « اللذة » التى تبقى بعد الموت وتنفع فى الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له ، وهو الايمان به ، وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق .

وايضا فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادة له بل كان مع حب لغيره كائنا من كان فان عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة ، وهم لا يجعلون كمال اللذة الا في نفس العلم .

و « أيضاً » فاقتصارهم على اللذة العقلية خطأ ، والنصارى زادوا عليهم السمع والشم، فقالوا : يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنغمات المطربة ، ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح — وهي لذة اللمس — والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات : سمعاً ، وبصراً ، وشماً ، وذوقا ، ولمساً ، للروح والبدن جميعاً، وكان هذا هو الكمال ؛ لا مايثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية ، وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه ، كما في الحديث الصحيح : « فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه » وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا ، فأطيب مافى الدنيا معرفته ، وأطيب مافي الآخرة النظر اليه سبحانه ؛ ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا .

وأبو حامد يذكر فى كتبه هو وأمثاله « الرؤية » وأنها أفضل أنواع النعيم ، ويذكر كشف الحجب ، وأنهم يرون وجه الله ، ولكن هذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة ؛ فان « الرؤية » عندهم ليست الا العلم ؛ لكن كما ان الانسان قد يرى الشيء بعينيه ، وقد يمثل له خياله اذا غاب عنه فهكذا العلم ، ففي الدنيا ليس عندهم من العلم إلا مثال كالخيال فى الحساب ، وفى الآخرة يعلمونه بلا مثال ، وهو عندهم « وجود لا داخل العالم ولا خارجه » ، و « كشف الحجاب »

عندهم رفع المانع الذي فى الانسان من الرؤية ، وهو أمر عدمي فحقيقته جعل العبد عالماً ، وهذا كله مما تقول به الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء انما يأمرون بالزهد فى الدنيا لينقطع تعلق النفس بها وقت [فراق] النفس ، فلا تبقى النفس مفارقة لشيء يحبه ؛ لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط ؛ بل يقول قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار .

وأما هؤلاء فالواصل عندهم الى العلم المطلوب قد يبيحون له محظورات الشرائع حتى الفواحش والخمر وغيرها اذا كانوا ممن يعتقد تحريم الخمر ، والا فغالب هؤلاء لا يوجبون شريعة الاسلام ؛ بل يجوزون التهود والتنصر ، وكل من كان من هؤلاء واصلا الى علمهم فهو سعيد .

وهكذا تقول الاتحادية منهم : كابن سبعين ؛ وابن هود ، والتلمساني ، ونحوهم ، ويدخلون مع النصارى بيعهم ، ويصلون معهم الى الشرق ، ويشربون معهم ومع اليهود الخمر ، ويميلون الى دين النصارى اكثر من دين المسلمين لما فيه من اباحة المحظورات ؛ ولأنهم أقرب الى الاتحاد والحلول ، ولأنهم أجهل فيقبلون ما يقولونه أعظم من قبولهم لقول المسلمين ، وعلماء النصارى جهال اذا كان فيهم متفلسف

عظموه ، وهؤلاء يتفلسفون .

والواحد من هؤلاء يفرح اذا قيل له لست بمسلم ؛ ويحكي عن نفسه — كما كان أحمد الماردبني وهو من أصحاب ابن عربي يحكى عن نفسه — أنه دخل الى بعض ديارات النصارى ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه ، فأخذ بعضهم يتكلم فى المسلمين ، ويقول : يقولون : كذا وكذا ، فقال له آخر : لا تتكلم في المسلمين فهذا واحد منهم فقال ذلك المتكلم هذا وجهه وجه مسلم ؟ اي ليس هذا بمسلم ، فصار يحكيها الماردبني أن النصراني قال عنه ليس هذا بمسلم ، ويفرح بقول النصراني ويصدقه فيما يقول ، أي ليس هو بمسلم .

والمتفلسفة يصرحون بهذا . يقولون : قلنا : كذا وكذا ، وقال المسلمون : كذا وكذا ، وربما قالوا قلنا : كذا وقال المليون : أي أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وكتبهم مشحونة بهذا ، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل ان يكون على دينهم .

لكن دخولهم في هذا كدخولهم في سياسة الملوك ، كما كانوا مع الترك الكفار ، وكانوا مع « هولاكو » ملك المغل الكفار ، ومع « القان » الذيَ هو اكبر منه خليفة « جنكزخان » ببلاد الخطا ، وانتساب الواحد منهم هناك إلى الاسلام انتساب الى اسلام يرضاه ذلك

الملك بحسب غرضه ، كما كان « النصير الطوسي » وأمثاله مع « هولاكو » ملك الكفار ، وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها ، وأخذ كتب الناس : ملكها ووقفها ، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه ، وأفسد الباقي ، وبنى الرصد ووضعها فيه ، وكان يعطى من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية ، ويعطي فى رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب اضعاف ما يعطي الفقيه ، ويشرب هو وأصحابه الخمر فى شهر رمضان ، ولا يصلون .

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم يشرب أحدهم الخمر فى نهار رمضان ، وتارة يصلون وتارة لا يصلون . فانهم لا يدينون بايجاب واجبات الاسلام وتحريم محرماته عليهم ؛ بل يقولون : هذا للعامة والأنبياء ، واما مثلنا فلا يحتاج الى الأنبياء . ويحكون عن بعض الفلاسفة انه قيل له : قد بعث نبي فقال : لو كان الناس كلهم مثلي ما احتاجوا الى نبي . ومثل هذه الحكاية يحكيها من يكون رئيس الأطباء ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات ، وقيل لرئيسهم الاكبر فى زمن موسى عليه السلام الا تأتيه فتأخذ عنه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا نحتاج الى من يهدينا .

واما ماذكروه من حصول اللذة في القلب والنعيم بالايمان بالله

والمعرفة به فهو حق ، وهو سبب دخول الجنة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » وما ذاك الا لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب الى الخير والأعمال الصالحة التى بها وبسببها تفتح أبواب الجنة ، ويمتنع من الشرور التى بها تفتح أبواب النار ، وتصفد الشياطين فلا يتمكنون ان يعملوا ما يعملونه فى الافطار ، فان المصفد هو المقيد ، لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات ، فاذا كفوا عن الشهوات صفدت الشياطين .

والجنة والنار التى تفتح وتغلق غير ما فى القلوب ؛ ولكن ما فى القلوب سبب له ودليل عليه وأثر من آثاره ، وقد قال تعالى : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) وقال صلى الله عليه وسلم : « الذي يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » فقيل : يأكلون ويشربون ما سيصير ناراً ، وقيل : هو سبب النار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال شيخ الاسلام

أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

فصـــــل

في قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله الا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم ، قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم ، ان الدين عند الله الاسلام) : قد تنوعت عبارات المفسرين فى لفظ (شهد) فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة : أي حكم وقضى . وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج : أي بين . وقالت طائفة : أي أعلم . وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الاخبار والأعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الاقرار ، وعن ابن عباس انه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر ، فقال : (شهد الله أنه لا إله الا هو) .

وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة ؛ وذلك أن الشهادة

ضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به ، وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره ، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه . فهذه أول مراتب الشهادة .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك ، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له ، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به . سواء كان بلفظ الشهادة او لم يكن ، كما في قوله تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون) وقوله تعالى : (وما شهدنا الا بما علمنا) الآية . ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبراً مجرداً . وقد قال : (واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به) .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عدلت شهادة الزور الاشراك بالله » قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم تلى هذه الآية وإنما فى الآية : (اجتنبوا قول الزور) وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان ، وعلى أي صفة وجد . فلا يقوله العبد ولا يحضره ولا يسمعه من قول غيره . و « الزور » هو الباطل الذي قد ازور عن الحق والاستقامة أي تحول ، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم شهادة الزور ، وقد قال فى المظاهرين من نسائهم (وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً)

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : « شهد عندي رجال مرضيون — وأرضاهم عندى عمر — أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس» وهؤلاء حدثوه انه نهى عن ذلك ؛ ولم يقولوا : نشهد عندك ؛ فان الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ فى التحديث ، وان كان احدهم قد ينطق به ، ومنه قولهم في ماعز : فلما شهد على نفسه اربع مرات رجمه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولفظه كان إقراراً ولم يقل : أشهد .

ومنه قوله تعالى : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم) وشهادة المرء على نفسه هي إقراره ، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا فى الشهادة عند الحكام هل يشترط فيها لفظ أشهد ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وكلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك ، وكذلك مذهب مالك ، و « الثاني » يشترط ذلك كما يحكى عن مذهب أبي حنيفة والشافعي .

و « المقصود هنا » الآية . فالشهادة تضمنت مرتبتين :

« إحداها » تكلم الشاهد وقوله وذكره لما شهد فى نفسه به .

و « الثانى » إخباره واعلامه لغيره بما شهد به ؛ فمن قال :

حكم وقضى فهذا من باب اللازم ، فان الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .

ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم ، فقال : (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) وقال : (أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) الآية ، وقال تعالى : (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فاياي فارهبون) وقال : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ، ويحرم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى : انه لا إله إلا هو .

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ؛ وذلك أنه إذا شهد انه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس باله فلا يعبد ، وأنه وحده الاله الذى يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه ، فان النفي والاثبات فى مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفت ، هذا هو المفتى ، ففيه نهي عن استفتاء الأول ، وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثانى .

وكذلك إذا تحاكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، فقيل له : ليس هذا حاكماً ولا هذا سلطاناً ؛ هذا هو الحاكم وهذا هو السلطان ، فهذا النفي والاثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك ان الطالب إنما يطلب من عنده مراده ومقصوده ، فاذا ظنه شخصاً فقيل له : ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذاك .

والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فاذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس باله إنما الاله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمرا بعبادته .

و « أيضاً » فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فاذا أخبر انه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا « بالاله » من عبده عابد بلا استحقاق ، فان هذه الآلهة كثيرة ؛ ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل ، كما قال تعالى : (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان) وقال : (ذلك بان الله هو الحق وانما يدعون من دونه هو الباطل) .

فالآلهة التى جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ؛ لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم » فان بعض الناس قد أله ذلك محبة وذلا وتعظيما ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

فاذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه .

و « أيضاً » فلفظ الحكم والقضاء يستعمل فى الجمل الخبرية ، فيقال : للجمل الخبرية قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبته ونفي ما نفاه حكما خبريا ، قد يتضمن حكما طلبيا .

فصل

وشهادة الرب وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده

كما قال : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) الى غير ذلك من الآيات .

وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه ؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه . ولهذا قال تعالى : (أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي)

وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التى تعلم دلالتها بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله . وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والارشاد ، فان الدليل [يبين] المدلول عليه ويظهره ، فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به ، كما قيل : سل الأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلها ، وأوضح نهارها ؛ فان لم تجبك حواراً ، اجابتك اعتباراً .

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه ؛ فان دلالتها إنما هي بخلقه لها ، فاذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو ، وهو سبحانه الذي جعلها دالة عليه ؛ فان دلالتها إنما هي بخلقه ، وبين ذلك ؛ فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو ، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة . قال ابن كيسان : (شهد الله) بتدبيره العجيب ، وأموره

الحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو .

فصـــــل

وقوله : (قائما بالقسط) هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :

قيل : هو حال من (شهد) : أي شهد قائما بالقسط .

وقيل : من (هو) أي لا إله إلا هو قائما بالقسط ، كما يقال : لا إله إلا هو وحده ، وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : (قائما بالقسط) يجوز ان يعمل فيه كلا العــاملين على مذهب الكوفيين ، في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا فى قوله : (هاؤم اقرؤا كتابيه) (وآتوني افرغ عليه قطرا) و (عن اليمين وعن الشمال قعيد) ونحو ذلك . وسيبويه وأصحابه يجعلون لـكل عامل معمولا ، ويقولون حــذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليـه ، وقول الكوفيين أرجح ، كما قد بسطته فى غير هذا الموضع .

وعلى المذهبين فقوله : (بالقسط) يخرج على هذا ، إمـا كونه يشهد قائما بالقسط ؛ فان القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما فى قوله

(كونوا قوامين بالقسط) فالقيام بالقسط يكون فى القول ، وهو القول العدل . ويكون في الفعل . فاذا قيل : شهد (قائما بالقسط) : أي : متكلما بالعدل مخبراً به آمراً به : كان هذا تحقيقا لكون الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك ، فذكر ابن السائب : أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج فى آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة ، فقالا : أنت محمد ؟ قال : نعم قالا : وأحمد ؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهادة فان اخبرتنا بها آمنا بك . فقال : سلاني . فقالا : أخبرنا عن اعظم شهادة فى كتاب الله ، فنزلت هذه الآية .

ولفظ « القيام بالقسط » كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ؛ فان هذه الشهادة تضمنت قولا وعملا ، فانها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لايستحق العبادة، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فاذا شهد قائما بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء

المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله : (قائما بالقسط) تنبيها على جزاء المخلصين والمشركين ، كما فى قوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟)

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية (شهد الله قائما بالقسط) ومعنى قوله : (قائما بالقسط) اي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان أي يدبره ويتعاهد أسبابه ، وقائم بحق فلان أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الالهية كان المعنى : « لا إله إلا هو قائما بالقسط » أي هو وحده الاله قائما بالقسط . فيكون وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائما بالقسط . كما يقال : أشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحدا أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ؛ فانه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، مع أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .

و « الوجه الأول » لا يدل على هذا ؛ ولأن كونه قائما بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ، ويعمل بالعدل . كما قال : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) وقال هود : (إن ربي على صراط مستقيم) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

وقال : (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو عـــلى صراط مستقيم ؟) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشركْ به مــن الأوثان كما ذكر ذلك في قوله : (قل هل من شركائكم مـن يهـدي إلى الحق قل الله يهدي للحق) الآية . وقال : (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ !) الآيات . إلى قوله : (وما يشعرون أيان يبعثون) فأخبر أنه خالق منعم عالم ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئا ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئا ، وأخبر أنها ميتة ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه ؟ ولهذا كان هذا أعظم الظلم والافك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير اما يشركون ؟) فقوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكـــثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين : احدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟) كلاهما مثل بين الله فيـــه أنه لا يستوي هو وما يشركون به ، كما ذكر نظير ذلك في غير موضع ، وإن كان هـذا الفرق معلوما بالضرورة لـكل أحد ؛ لكن المشركون مع اعترافهم بأن

آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها فى المحبة والدعاء ، والعبادة ونحو ذلك .

و « المقصود هنا » ان الرب سبحانه على صراط مستقيم ، وذلك بمنزلة قوله : (قائما بالقسط) فان الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيما ، ومن كان قوله وعمله مستقيما كان قائما بالقسط .

ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل . والله سبحانه أعلم .

فصل

ثم قال تعالى : (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . ذكر عن جعفر ابن محمد أنه قال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . أي قوله : (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . ومعنى هذا أن الأولى هو

ذكر أن الله شهد بها ، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بهـا هو والملائكة ، وأولوا العـلم ، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي ، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو . فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه بشهادته لنفسه ، وهذه خبر عن الله بالتوحيد .

وختمها بقوله : (العزيز الحكيم) والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة . تقول العرب : عز يعز بفتح العين إذا صلب ، وعز يعز بكسرها إذا امتنع ، وعز يعز بضمها إذا غلب . فهو سبحـانه فى نفسه قوي متين ، وهو منيـع لا ينال ، وهو غالب لا يغلب .

والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله ، فاذا أمر بأمر كان حسناً ، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم فى إراداته وأفعاله وأقواله .

فصـــل*

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا اله الا الله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم ؛ فتضمنت وحدانيته المنافيـة

للشرك ، وتضمنت عدله المنافى للظلم ، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة .

والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم ؛ لكن فيها حجة عليهم ، وعلى خصومهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان ؛ الذين يقولون : كل ما يمكن فعله فهو عدل ، وينفون الحكمة . فيقولون : يفعل لا لحكمة ، فلا حجة فيها لهم ؛ فانه أخبر أنه لا إله إلا هو ؛ وليس فى ذلك نفي الصفات ، وهم يسمون نفي الصفات توحيداً ؛ بل الاله هو المستحق للعبادة ، والعبادة لا تكون إلا مع محبة المعبود .

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ؛ فدل ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأندادهم ؛ فعلم أن الله محبوب لذاته ، ومن لم يقل بذلك لم يشهد فى الحقيقة أن لا إله إلا هو .

والجهمية والمعتزلة يقولون : ان ذاته لا تحب ، فهم فى الحقيقة منكرون إلهيته ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا إله الا هو ؛ فذكر ذلك على أنه لا يماثله أحد فى شيء من أموره ، والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين ؛ فما كان عدلا من المخلوقين كان عدلا من الخالق ، وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق ؛ وذلك قدح فى أنه لا إله إلا هو .

والجهمية عندهم أي شيء أمكن وقوعه كان قسطاً ، فيكون قوله : (قائما بالقسط) كلاما لا فائدة فيه ولا مدح ؛ فانه إذا كان كل مقدور قسطا كان المعنى أنه قائم بما يفعله ، والمعنى أنه فاعل لما يفعله ، وليس فى هذا مدح ، ولا هو المفهوم من كونه قائما بالقسط ؛ بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالظلم مع قدرته عليه ؛ لكنه سبحانه مقدس منزه أن يظلم أحداً ، كما قال : (ولا يظلم ربك أحداً) وقد أمر عباده أن يكونوا قوامين بالقسط ، وقال : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟) فهو يقوم عليها بكسبها لا بكسب غيرها ، وهذا من قيامه بالقسط . وقال : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) الآية .

وأيضاً فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفس بما كسبت : أنه لا يظلم مثقال ذرة ، كما قال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) إلى آخرها .

والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة ، وتحبط إيمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب . وهـذا مما تفردوا به من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ، فهم ينسبون الله إلى الظلم لا الى العدل . والله أعلم .

فصـــــل

وقوله : (وهو العزيز الحكيم) إثبات لعزته وحكمته ، وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية ؛ فان الجبرية ــ أتباع جهم ــ ليس له عندهم فى الحقيقة حكمة ؛ ولهذا لما أرادت الأشعرية أن تفسر حكمته فسروها إما بالقدرة ، وإما بالعلم ، وإما بالارادة .

ومعلوم أنه ليس فى شيء من ذلك إثبات لحكمته ؛ فان القادر والعالم والمريد قد يكون حكيماً وقد لا يكون ، والحكمة أمر زائد على ذلك ، وهم يقولون : إن الله لا يفعل لحكمة ، ويقولون أيضاً : الفعل لغرض إنما يكون ممن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ؛ وذلك ينفى عن الله .

والمعتزلة أثبتوا انه يفعل لحكمة . وسموا ذلك غرضاً : هم وطائفة

من المثبتة ؛ لكن قالوا : الحكمة أمر منفصل عنه لا يقوم به ، كما قالوا في كلامه وإرادته ؛ فاستطال عليهم المجبرة بذلك ، فقالوا : الحكيم من يفعل لحكمة تعود الى نفسه ، فان لم تعد الى نفسه لم يكن حكيماً ؛ بل كان سفيهاً .

فيقال للمجبرة : ما نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفى الارادة من المتفلسفة ونحوهم ، قالوا : الارادة لا تكون إلا لمن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وإثبات إرادة بدون هذا لا يعقل ، وأنتم تقولون : نحن موافقون للسلف وسائر أهل السنة على إثبات الارادة ، فما كان جوابا لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر أهل السنة لكم حيث اثبتم إرادة بلا حكمة يراد الفعل لها . وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين ما في لفظ هذه الحجة من الكلمات المجملة . والله أعلم .

فصل

وإثبات شهادة أولي العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين ، الملائكة والبشر . وهذا متفق عليه ، يشهدون أن لا إله الا الله ، ويشهدون بما شهد به لنفسه .

وزعم طائفة من الاتحادية انه لا يوحد أحد الله وأنشدوا :

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

وهؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح ، يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد ؛ فيكون الحق هو الناطق على لسان العبد ، والله الموحد لنفسه لا العبد . وهذا فى زعمهم هو السر الذي كان الحلاج يعتقده ، وهو بزعمهم قول خواص العارفين ؛ لكن لا يصرحون به .

وحقيقة قولهم : انهم اعتقدوا فى عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى فى المسيح ؛ لكن لم يمكنهم إظهاره ، فان دين الاسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة ، فصاروا يشيرون إليه ، ويقولون : إنه من السر المكتوم ، ومن علم الاسرار الغيبية فلا يمكن ان يباح به ، وإنما هو قول ملحد ، وهو شر من قول النصارى ، فان النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح لم يقولوه فى جميع الصالحين .

وقد بسط الكلام على ذلك فى غير موضع ؛ إذ المقصود التنبيه على ما فى هذه الآية من أصول الايمان ، والتوحيد وإبطال قول المبتدعين .

فصـــــل

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد به لنفسه ، فلا بد ان يعرفهم أنه شهد ، فان هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ، ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة .

ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة ، كما قال تعالى : (ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) أي عنده شهادة من الله وكتمها ، وهو العلم الذي بينه الله ، فانه خبر من الله وشهادة منه بما فيه .

وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لابراهيم وأهل بيته ، وكتموا إسلامهم ، وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبصفته وغير ذلك ، قال تعالى : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى . من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) . وقال

تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه ، لايحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ؛ ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ؛ إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) .

وفى الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « البيعان بالخيار مالم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما » .

فصل

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ؛ ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر . فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية ؛ وذلك أن شهادته تتضمن

بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك ، وذلك حاصل بآياتـه ، فان آياته هي دلالاته وبراهينه التى بها يعرف العباد خـبره وشهادته ، كما عرفهـم بها أمره ونهيـه ، وهو عليم حكيم ؛ فخـبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعـله يبين حكمته .

فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولابد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخـبروا عنه ؛ وذلك قد عرفـه بآياته التى أيد بها الأنبياء ودل بها على صدقهم ، فانه لم يبعث نبيـا إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بمالا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال : (لقد أرسلنا رسلنـا بالبينات) أي بالآيات البينـات . وقال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتـم لا تعلمون ، بالبينات ، والزبر ، وأنزلنا اليك الذكر لتبـين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون) . وقال : (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) ، وقال : (فقد كذب رسـل من قبلك جاءوا بالبينات ، والزبر ، والكتاب المنير) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ،

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

فالآيات والبراهين التى أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دل بها العباد ٠ وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به ؛ ولهذا قال بعض النظار : ان المعجزة تصديق الرسول ، وهي تجري مجرى المرسل ، صدقت فهي تصديق بالفعل ، تجري مجرى التصديق بالقول ؛ إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه ، وتصديقه إخبار بصدقه ، وشهادة له بالصدق ٠ وشهادة له بأنه أرسله ، وشهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه .

وهو سبحانه إسمه المؤمن ، وهو في أحد التفسيرين المصدق ، الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التى دل بها على صدقه .

وأما الطريق العياني فهو أن يرى العباد من الآيات الافقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق ؛ كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أوْ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟) أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ؛ فان الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فاذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وان لم ير

المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التى دل بها على صدق الرسول ، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة ، التى تدل على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى ، وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل . فقال : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم) الآيات إلى قوله : (إلا الظالمون) فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فانه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات مالم يجتمع فى غيره ، فانه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به .

وقوله : (فى صدور الذين أوتوا العلم) سواء أريد به أنه بين فى صدورهم ، أو أنه محفوظ في صدورهم ، أو أريد به الأمران وهو الصواب . فانه محفوظ فى صدور العلماء ، بين في صدورهم ، يعلمون أنه حق ، كما قال : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق) وقال : (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك هو الحق كمن هو أعمى ؟) (وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك

فيؤمنوا بـــه ، فتخبت له قلوبهـــم ، وان الله لهـــاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) .

وقال تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، قل : كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ، يعلم ما فى السموات والارض ، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) . فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين وينجيهم من العذاب .

ثم قال : (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والارض) فانـــه إذا كان عالمـــاً بالأشيـــاء ، كانت شهادتـــه بعـــلم ، وقد بـــين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول ، ومنهـــا القرآن والله أعلم .

فصـــــــل

وأما كونه سبحانه صادقا فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد ؛ فان الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزه عن

ذلك . وكل إنسان محمود يتنزه عن ذلك ؛ فان كل أحد يذم الكذب، فهو وصف ذم على الاطلاق .

وأما عدم علم الانسان ببعض الاشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علما بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصا كالكذب ؛ فلهذا يبين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثا من كل أحد ، وأحسن حكماً ، وأصدق قيلا ؛ لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .

و (من عنده علم الكتاب) وهم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ؛ فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به ، كالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الشرك ، والاخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية . ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته ، وكتابه . وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي الآيات والبراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه له بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم

ومن عنده علم الـكتاب) فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي فى آياتـه وبراهينـه ، وهـذه يعلم بهـا صدقه بالخـبر السمعي المنقـول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله: (قل أي شيء اكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم) فقوله : (قل الله) فيها وجهان :

قيـل : هو جواب السائل ، وقوله (شهيـد) خـبر مبتدإ : أي هو شهيد .

وقيل : هو مبتدا ، وقوله : (شهيـد) خـبره ؛ فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام . و « الأول » على قراءة من يقف على قوله (قـل الله) و « الثانى » على قراءة من لايقف ، وكلاهما صحيح ؛ لـكن الثانى أحسن وهو أتم .

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : (قل أي شيء أكبر شهادة ؟) علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له : (قل : الله شهيد بيني وبينكم) ولما قال : (الله شهيد بيني وبينكم) كان فى هذا مايغني عن قوله : ان الله اكبر شهادة . وذلك أن كون الله اكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله (اكـبر شهادة)

بخلاف كونه شهيدا بينه وبينهم ؛ فان هذا مما يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر هل شهد الله بصدقــه وكذبهم فى تكذيبــه ؟ أم شهـد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر فى ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعــين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بــين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله : (وأوحي إلي هـذا القرآن لأنذركم بـه ومن بلغ) فان هذا القرآن فيه الانذار ، وهو آية شهد بها أنـه صادق ، وبالآيات التى يظهرها فى الآفـاق وفى الأنفس ، حتى يتبين لهـم أن القرآن حق .

وقوله فى هذه الآية : (قل الله شهيد بيني وبينكـم) وكـذلك قوله : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم) ، وكذلك قوله : (قــل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) ، وكذلك قوله : (هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم) . فذكر سبحانه أنه شهيد بينـه وبينهم ، ولم يقل : شاهد علينا ، ولا شاهد لي ؛ لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحكم قــدر زائد عــلى مجرد الشهادة ؛ فان الشاهد قد يؤدي الشهادة . وأما الحاكم فانه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه ، والمبطل بما يستحقه .

وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فانها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ، ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله) فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التى تبين أنه حق ، ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك فى قوله : (شهد الله) .

قال مجاهد والفراء وأبو عبيدة : (شهد الله) أي حكم وقضى ؛ لكن الحكم فى قوله (بيني وبينكم) أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر : فلان شاهد بينى وبينك ، أي يتحمل الشهادة بما بيننا ، فالله يشهد بما أنزله ويقوله ، وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ؛ ولكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد بتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن . والله أعلم .

فصـــل

وكذلك قوله : (لـكن الله يشهد بمـا أنزل اليـك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً) فان شهادته بما أنزل اليـه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عمن دونه ، وهـذا كقوله : (فان لم يستجيبوا لـكم فاعلموا أنمـا أنزل بعلم الله) وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له ، فان جميع الأشياء معلومة له ، وليس فى ذلك ما يدل عـلى أنهـا حق ؛ لـكن المعنى أنزله فيه علمه ، كما يقال فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ، فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) ولم يقل تكلم به بعلمه ؛ لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض .

فاذا قال : (أنزله بعلمه) تضمن أن القرآن المـنزل الى الأرض فيه علم الله ، كما قال : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ؛ لأن غير الله لا يعلم ما فى نفس الله من العـلم ــ ونفسه هي ذاته

المقدسة — إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح عليـه السلام : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت عـلام الغيوب) ، وقالت الملائـكة : (لا علم لنا إلا ما علمتنا) وقال : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقال : (فلا يظهر على غيبه أحداً ، الا من ارتضى من رسول) فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى مـن رسول ، والملائـكة لا يعـلمون غيب الرب الذي اختص به .

وأما ما أظهره لعبـاده فانه يعلمه من شـاء ، وما تتحدث بـه الملائـكة فقد تسترق الشياطين بعضه ؛ لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل هذا قد أظهر عليه مـن شاء من خلقه ، وهو سبحانه قال : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه) فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التى تدل عـلى أنه كلامـه ، وأن الرسول صادق .

وكذلك قال فى هود : (فائتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) لما تحداهم بالاتيـان بمثله في قوله : (فاليأتوا بحديث مثله) ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فان الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثـله ؛ وإذا كان

الخلق كلهم عاجزين عن الاتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله .

وقوله : (قل أنزله الذي يعلم السر فى السموات والأرض) لأن فيه [من] الأسرار التى لا يعلمها الا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الاخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه الا الله . فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدلالنا بذلك على ان خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته ، وذلك كاخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر ، وكاخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها ، كما قال : (وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً) الى قوله : (نبأني العليم الخبير) فقوله : (أنزله الذي يعلم السر فى السموات والأرض) استدلال باخباره ؛ ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال هو (إفك افتراه ، وأعانه

عليه قوم آخرون) وقوله : (أنزله) استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ؛ ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي، وظهور عجز الخلق عن الاتيان بمثله .

فصـــــل

ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن من ذلك ، كما في الصحيح أن النبي صلى الله عليـه وسـلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال : « وجبت ، وجبت » ومر عليـه بجنازة فأثنوا عليها شراً ، فقال : « وجبت ، وجبت » قالوا يا رسول الله ! ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال : « هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » فقوله : « شهداء الله » أضافهم الى الله تعالى .

والشهادة تضاف تارة الى من يشهد له . والى مـن يشهد عنده فتقبل شهادته كما يقـال : شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل فى ذلك من يشهد عليه بمـا تحمله

مـن الشهادة ، ليؤديهـا عند غـيره ، كالذين يشهد الناس عليهـم بعقودهم أو أقاريرهم .

فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله وفعله ، ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقيـاً يشهدون أن الله جعـله كذلك ، ويؤدون عنه الشهـادة ، فهم شهداء الله فى الأرض ، وهو سبحـانه الذي أشهدهم بأن جعلهـم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته.

وقد قال تعالى : (لهـم البشرى فى الحياة الدنيا وفي الآخـرة) وفسر النبي صلى الله عليه وسلم البشرى بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم ، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهـادة بالبشرى من شهادة الله تعالى . والله سبحانه أعلم .

وسئل رحمه الله

عن قوله تعالى : (ومن دخله كان آمناً)

المراد به أمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان ؟ أم المراد به اذا أحدث حدثاً لا يقتص منه ما دام فى الحرم ؟ .

فأجاب : التفسير المعروف فى ان الله جعل الحرم بلداً آمنا قدراً وشرعا ، فكانوا فى الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم ، فاذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمته ففي الاسلام كذلك وأشد .

لكن لو أصاب الرجل حداً خارج الحرم ثم لجأ اليه فهل يكون آمنا لا يقام عليه الحد فيه ام لا ؟ فيه نزاع . واكثر السلف على انه يكون آمنا ، كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما ، وهو مذهب أبي حنيفة والامام أحمد بن حنبل وغيرهما .

وقد استدلوا بهذه الآية وبقول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله

حرم مكة يوم خلق الله السموات والأرض ، وانها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وانما أحلت لي ساعة مـن نهار ، وقد عادت حرمتهـا . فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسـلم . فقولوا : انما أحلها الله لرسوله ولم يحلها لك».

ومعلوم أن الرسول انما أبيـح له فيها دم من كان مباحا فى الحل، وقد بين ان ذلك أبيـح له دون غيره .

والمراد بقوله (ومن دخله) الحرم كله .

وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض، ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الاسـلام ، كما جاء في الحديث « من ملك زاداً وراحلة تبلغه الى بيت الله ثم لم يحج فليمت ان شـاء يهوديا أو نصرانيا » والله أعلم .

وللشيخ رحمه الله

في قوله تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين : كابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والنخعي ؛ وأهل اللغة كالفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وابن الأنباري ، وعبارة الفراء : يخوفكم بأوليائه ، كما قال : (لينذر بأسا شديداً من لدنه) بباس شديد . وقوله : (لينذر يوم التلاق) وعبارة الزجاج : يخوفكم من أوليائه .

قال ابن الأنباري : والذي نختاره فى الآية يخوفكم أولياءه . تقول العرب : أعطيت الأموال : أي أعطيت القوم الأموال ، فيحذفون المفعول الأول ويقتصرون على ذكر الثاني . وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفا مطلقا ، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة ، فحذف الأول ليس مقصوداً ، وهذا يسمى حذف اختصار ، كما يقال : فلان يعطى الأموال والدراهم .

وقد قال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين ، ونقل هذا

عن الحسن والسدى . وهذا له وجه سنذكره ؛ لكن الأول أظهر ، لأن الآية انما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، كما قال قبلها : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ؛ فزادهم ايمانا) الآيات . ثم قال : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فهي انما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس . وقد قال : (يخوف أولياءه) ثم قال : (فلا تخافوهم) والضمير عائد الى أولياء الشيطان الذين قال فيهم : (فاخشوهم) قبلها .

واما ذلك القول فالذي قاله فسرها من جهة المعنى . وهو أن الشيطان انما يخوف أولياءه بالمؤمنين ؛ لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائما ، فالمخاوف منصبة اليهم محيطة بقولهم ، وان كانوا ذوي هيئات وعَدد وعُدد فلا تخافوهم .

وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار ، او انهم أرادوا المفعول الأول : أي يخوف المنافقين أولياءه ، والا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين ، ولو أنه أريد أنه يخوف أولياءه : أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : (فلا تخافوهم) .

وأيضا فهذا فيه نظر ؛ فان الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم ، كما قال :

تعالى : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم) وقال تعالى : (يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غروراً) .

ولكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله) وقال : (اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وقال : (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله) . وفي حديث قرطبة أن جبريل قال : « اني ذاهب اليهم فمزلزل بهم الحصن » فتخويف الكفار والمنافقين وارعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين .

ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الاسلام ، فهم يوالون العدو ، فصاروا بذلك منافقين ، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى : (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) وقال تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم ، كالذي يغشى عليه من الموت) الآيات . إلى قوله : (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب يسألون عن أنبائكم) فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ؛ لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه سياق

الآية ولفظها . والله أعلم .

واذا جعلهم الشيطان مخوفين فانما يخافهم من خوفه الشيطـان منهم فجعله خائفاً .

فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم . ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخـاف الناس . كما قال تعالى : (فلا تخشوا النـاس واخشون) بل يجب عليه أن يخاف الله ، فخوف الله أمر به ، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه .

وقال تعالى : (لئلا يكون للناس عليـكم حجة ، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون) فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، والذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وقال : (فاياي فارهبون) .

وبعض الناس يقول : يارب اني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهذا كلام ساقط لا يجوز ؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحداً لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله ؛ فان من لا يخـاف الله أخس وأذل أن يخاف ، فانه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه والله أعلم .

وقال شيخ الاسلام

فى الكلام على قوله تعالى : (ويريدوا الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) فذكر ما يتعلق بشهوات الآدميين من سائر ما تشتهيه أنفسهم حتى النساء والمردان ، وقال : العبد يجب عليه إذا وقع فى شيء من ذلك أن يجاهد نفسه وهواه ، وتكون مجاهدته لله تعالى وحده .

ثم قال : وميل النفس إلى النساء عام فى طبع جميع بني آدم ، وقد يبتلي كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان ، وان لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة ، وان لم تكن كان بالنظر ، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فاذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه فى طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا الجهاد ، وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو أمر حرمة الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فتكون المجاهدة للنفس فى طاعة الله ورسوله .

وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا « من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات فهو شهيد » وأبو يحيى فى حديثه نظر ؛ لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة ، فان الله أمره بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعف عن كل ما حرم الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل . والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله فان هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

« أحدهما » أن يكتم بثه وألمه ، ولا يشكو الى غير الله ، فتى شكى إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ؛ لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين . فان شكى ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الايمان فهو بمنزلة المستفتى ، وهذا حسن ، وان شكى الى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وان شكا الى غيره لما فى الشكوى من الراحة كما ان المصاب يشكي مصيبته إلى الناس من غير ان يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ؛ لكن لا يأثم مطلقاً الا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط .

و « الثاني » ان يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ؛ لما فى ذلك

من إظهار السوء والفاحشة ، فان النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتيمت ، والانسان متى رأى او سمع او تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعيا له الى الفعل ، والنساء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منها على الاناث ملن الى الباءة ؛ والمجامعة والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء او رأى ذلك او تخيله فى نفسه دعاه ذلك الى الفعل ، وإذا ذكر الانسان طعاما اشتهاه ومال اليه ، وان وصف له ما يشتهيه من لباس او امرأة او مسكن او غير ذلك مالت نفسه اليه . والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن اليه .

فكلما كان فى نفس الانسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب ، الى ذلك المحبوب المطلوب ، إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع والرؤية او التفكر فى بعض الأمور المتعلقة به ؛ فاذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخرى فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس الى الحج اذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلى ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهبا الى المحبوب ، فصار ذكرها يذكر المحبوب . وكذلك إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تذكر به ، وتحركت محبته .

فالمبتلى بالفـاحشة والعشق . إذا ذكر مـا به لغيره تحركت النفوس الى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة عـلى حب الصور الجميـلة ؛ فاذا تصورت جنس ذلك تحركت الى المحبوب ؛ ولهـذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة .

وسئل الشيخ رحمه الله :

عن قوله تعالى : (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) ، وقوله تعالى : (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) الى قوله تعـالى : (والله بمـا تعملون خبير) يبين لنا شيخنا هــذا النشوز من ذاك ؟

فأجاب : الحمــد لله رب العــالمين « النشوز » فى قوله تعــالى : (تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضــاجع) هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه ، بحيث لا تطيعه إذا دعاهـا للفراش ، أو تخرج من منزله بغير اذنه ، ونحو ذلك مما فيه امتنـاع عما يجب عليها من طاعته .

وأما النشوز فى قوله : (إذا قيل انشزوا فانشزوا) فهو النهوض والقيام والارتفاع ، وأصل هــذه المادة هو الارتفاع والغلظ ، ومنــه النشز من الأرض وهو المكان المرتفع الغليظ ، ومنــه قوله تعـالى : (وانظر الى العظام كيف ننشزها) أي نرفع بعضهـا إلى بعض ، ومن قرأ (ننشرها) أراد نحييها ، فسمى المرأة العاصية ناشزاً لمـا فيها من الغلظ والارتفاع عن طاعة زوجها ، وسمى النهوض نشوزاً ، لان القاعد يرتفع عن الأرض . والله أعلم .

وقال

فصـــــل

قوله تعالى : (إن الله لا يحب مـــن كان مختـــالا فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) فى النســـاء ، وفى الحـــديد انـــه (لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) قد تؤولت فى البخل بالمال والمنع ، والبخل بالعلم ونحوه ، وهي تعم البخل بكل ما ينفع فى الدين والدنيـــا من علم ومال وغير ذلـــك ، كما تأولوا قوله : (ومما رزقناهم ينفقون) النفقـــة من المال ، والنفقـــة من العلم . وقال معاذ فى العلم : تعلمـــه لمن لا يعلمه صدقـــه . وقال أبو الدرداء : ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بهـــا جماعـــة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها . أو كما قال . وفى الأثر نعمة العطية ونعمت الهدية الـكلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له ، أو كما قال :

وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء ؛ ولهذا كان الله ، وملائكته وحيتان البحر ، وطير الهواء ، يصلون على معلم النـــاس الخير ، كما أن

كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون ، وبسط هذا كثير فى فضل بيـان العلم وذم ضده .

والغرض هنا ان الله يبغض المختــال الفخور البخيل به ، فالبخيل به الذي منعه ، والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله ، واما ان يختال على بعض الناس فلا يبذله ، وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس انه يبخل بما عنده من العلم ، ويختال به ، وانه يختــال عن أن يتعدى من غيره ، وضد ذلك التواضع فى طلبه ، وبذله ، والتكرم بذلك .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل ، كما فى قوله : (إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) في النساء والحديد وضد ذلك الاعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع ، كما قال : (فأما من أعطى واتقى) وقال : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهذان الأصلان هما جماع الدين العام ، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع ، وذلك اصل التقوى والرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم ، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة ، فان الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له ، والتواضع له ، والذل له وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر . والزكاة متضمنة لنفع الخلق والاحسان إليهم ، وذلك مضاد للبخل .

ولهذا وغيره كثر القران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله .

وقد ذكرنا فيا تقدم ان الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاء له ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت فى صلاة ولو كنت فى السوق ، وهذا المعنى ــ وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع ــ هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة ، كصلاة القائم والقاعد والمضطجع . والقارىء والأمي والناطق والأخرس ، وان تنوعت حركاتها وألفاظها ، فان اطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطىء المنا فى للاشتراك والمجاز ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ، ومنهم من ادعى المجاز ، بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي ، أو مزيدة ، أو على غير ذلك ، وليس الأمر كذلك ؛ بل اسم الجنس العام المتواطىء المطلق إذا دل على نوع أو عين ، كقولك هذا الانسان وهذا الحيوان ، أو قولك : هات الحيوان الذي عندك وهى غنم ، فهنا اللفظ قد دل على شيئين : على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد ، وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين . فاللفظ المشترك الموجود فى جميع التصاريف على القدر المشترك ، وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلا أو غيرها دل على الخصوص والتعيين ، وكما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود له فى

الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة .

فان الكلام انما يفيد بعد العقد والتركيب ، وذلك تقييد وتخصيص كقولك اكرم الانسان ، أو الأنسان خير من الفرس . ومثله قوله : (أقم الصلاة) ونحو ذلك ومن هنا غلط كثير من الناس فى المعانى الكلية ، حيث ظنوا وجودها في الخارج مجردة عن القيود ، وفي اللفظ المتواطىء ، حيث ظنوا تجرده فى الاستعمال عن القيود . والتحقيق : انه لا يوجد المعنى الكلي المطلق فى الخارج إلا معيناً مقيداً ، ولا يوجد اللفظ الدال عليه فى الاستعمال إلا مقيداً مخصصاً ، واذا قدر المعنى مجرداً كان محله الذهن ، وحينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود فى الاستعمال مجرداً .

و « المقصود هنا » ان اسم الصلاة فيه عموم واطلاق ، ولكن لا يستعمل الا مقروناً بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا ، وصلاة الملائكة ، والصلاة من الله سبحانه وتعالى ، وانما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون ان صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا ، مع علمهم بان هذا ليس مثل هذا ، فاذا لم يكن مثله لم يجب ان تكون صلاته مثل صلاته ، وان كان بينهما قدر متشابه ، كما قد حققنا هذا فى الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم .

ومن هذا الباب اسماء الله وصفاته التى يسمى ويوصف العباد بما يشبهها ، كالحي والعليم والقدير ونحو ذلك .

وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : كل معروف صدقة ، ولهذا ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « على كل مسلم صدقة » وأما الزكاة المالية المفروضة فانما تجب على بعض المسلمين فى بعض الأوقات ، والزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : فان لم يجد ؟ قال : « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قالوا : فان لم يستطع ؟ قال : « يعين صانعاً او يصنع لأخرق » قالوا فان لم يستطع ؟ قال : « يكف نفسه عن الشر » .

واما قوله في الحديث الصحيح حديث ابي ذر وغيره : « على كل سلامى من احدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وامر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة » فهذا — إن شاء الله — كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق ، فانه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى ، فيكون ذلك من الصدقة على الخلق .

ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي

ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقـة ، ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقـة ؟ وكذلك كل دعاء للغير واستغفـار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضـاً ، كما قال النبي صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الصحيح : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا ، كلما دعا له بدعـوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » .

وقال

فصل

قول الناس : الآدمي جبار ضعيف ، او فلان جبار ضعيف ؛ فان ضعفه يعود الى ضعف قواه ، من قوة العلم والقدرة ، واما تجبره فانه يعود الى اعتقاداته واراداته ، اما اعتقاده فان يتوهم فى نفسه انه امر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك ، وهذا هو الاختيال والخيلاء والمخيلة ، وهو ان يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له . ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظما ونثراً وطلبه للمدح الباطل ، فانه يورث هذا الاختيال .

واما الارادة فارادة ان يتعظم ويعظم ، وهو ارادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو ان يريد من العلو ما لا يصلح له ان يريده ، وهو الرئاسة والسلطان ، حتى يبلغ به الأمر الى مزاحمة الربوبية كفرعون ، ومزاحمة النبوة ، وهذا موجود فى جنس العلماء والعباد والامراء وغيرهم .

وكل واحد من الاعتقاد والارادة يستلزم جنس الآخر ؛ فان من تخيل انه عظيم اراد ما يليق بذلك الاختيـال ، ومن اراد العـلو فى الأرض فلا بد ان يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك ، ففي الارادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجـوداً ، ويطلب توابعه من الارادات .

وقد قال الله تعالى : (ان الله لا يحب كل مختـال فخور) وقال النبي صلى الله عليه وسـلم : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » فالفخر يشبه غمط النـاس ، فان كلاهما تكبر على النـاس . واما بطر الحق ــ وهو جحده ودفعه ــ فيشبه الاختيال البـاطل ، فانه تخيل ان الحق باطل بجحده ودفعه .

ثم هنا وجهان :

« احدهما » ان يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقـادات وهو ان يجعل الحق باطلا والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها ، ويتخيل البـاطل الذي يوافق هواها وعلوهـا ، ويجعل الفخر وغمط النـاس من باب الارادات ، فان الفاخر يريد ان يرفع نفسه ويضع غيره ، وكذلك غامط الناس.

يؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمـار المجاشعي

عن النبي صـلى الله عليه وسلم انه قال : « انه اوحى الي ان تواضعوا حتى لا يفخر احـد على احد ، ولا يبغي احـد على احد » فبين ان التواضع المأمور به ضد البغي والفخر . وقال في الخيلاء التى يبغضها الله : « الاختيـال فى الفخر والبغي »[1] فـكان فى ذلـك ما دل عـلى ان الاستطالة على الناس ، ان كانت بغير حق فهي بغي ؛ اذ البغي مجاوزة الحد . وان كانت بحق فهي الفخر ؛ لكن يقال على هذا : البغي يتعلق بالارادة ، فلا يجوز ان يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمـه من باب الارادة ، بل البغي كانه فى الأعمـال والفخر في الأقوال ، او يقـال : البغي بطر الحق والفخر غمط الناس .

« الوجه الثاني » ان يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والارادة ، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق فى نفسه ، الذي هو حق الله وان لم يكن يتعلق به حـق آدمي ، والفخر وغمط النـاس يعود الى حق الآدميين ؛ فيكون التنويع لتمييز حق الآدميين مما هو حق لله لا يتعلق الآدميين ؛ بخلاف الشهوة فى حال الزنا ، واكل مال الغير : فلما قال سبحـانه : (ان الله لا يحب كل مختـال فخور ، الذين يبخـلون ويأمرون الناس بالبخل) والبخل منع النافع : قيد هذا بهذا ، وقـد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق : الـكلام في التواضـع والاحسان ، والـكلام فى التـكبر والبخل .

---

(۱) خرم بالاصل .

وقال شيخ الإسلام

قوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية بعد قوله : (كل من عند الله) لو اقتصر على الجمع أعرض العاصي عن ذم نفسه ، والتوبة من الذنب ، والاستعاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده الا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالا حين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا) .

ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والايمان بالقدر ، واللجاء الى الله في الهداية ؛ كما فى خطبته صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره » فيشكره ويستعينه على طاعته ، ويستغفره من معصيته ، ويحمده على إحسانه . ثم قال : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » الى آخره . لما استغفر من المعاصي استعاذه من الذنوب التى لم تقع . ثم قال : « ومن سيئات أعمالنا » أي ومن عقوباتها . ثم قال « من يهد الله فلا مضل له » الخ . شهادة بأنه المتصرف فى خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين ، فانما يتحققان بحمد الله وإعانته ، واستغفاره واللجاء إليه ،

والايمان بأقداره . فهذه الخطبة عقد نظام الاسلام والايمان .

وقال كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :

« الأول » ان النعم تقع بلا كسب .

« الثاني » أن عمل الحسنات من إحسان الله الى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب إليهم الايمان . وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل الا من نفسك تبت فزال.

« الثالث » ان الحسنة تضاعف .

« الرابع » ان الحسنة يحبها ويرضاها ، فيحب ان ينعم ويحب ان يطاع ؛ ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم اليه والشر الى محله ، كما قال امام الحنفاء : (الذي خلقني فهو يهدين) الى قوله : (واذا مرضت فهو يشفين) .

« الخامس » ان الحسنة مضافة اليه ؛ لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها الا لحكمة .

« السادس » ان الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة ؛

لأنها اما فعل مأمور او ترك محظور ، والترك أمر وجودي ، فتركه لما عرف انه ذنب وكراهته له ومنع نفسه منه أمور وجودية ، وانما يثاب على الترك على هذا الوجه .

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم البغض في الله من أوثق عرى الايمان ، وهو أصـــل الترك . وجعل المنع لله من كمال الايمـــان وهو أصـــل الترك . وكذلك براءة الخليل من قومـــه المشركين ومعبوديهم ليست تركا محضاً ؛ بل صادراً عن بغض وعداوة . واما السيئات فمنشأها من الظلم والجهل . وفي الحقيقة كلهـــا ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ؛ فان هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هـــذا كله بقوة وارد الشهوة ، والغفلة ، والشهوة أصل الشر ، كما قال تعـــالى : (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) الآية .

« السابع » ان ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه .

« الثامن » أنما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه ؛ فيرجع في ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هو ؛ فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره ، وانما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه؛ ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله ، فانه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق ، ونعم المخلوق

منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فاذا عرف أن (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له[1] ، والشر انحصر سببه فى النفس ؛ فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال بعض السلف : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه . وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره : انما أصابهم يوم أحد مطلقاً كان بذنوبهم لم يستثن أحد ، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ؛ لئلا يظن أنه عام مخصوص .

« التاسع » أن السيئة إذا كانت من النفس والسيئة خبيثة : كما قال تعالى : (الخبيثات للخبيثين) الآية . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثات للخبيثين ، وقال : (ومثل كلمة خبيثة) وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب) والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل ، فاذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها ، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح ؛ بل إذا كان فى النفس خبث طهرت حتى

---

(١) بياض بالاصل .

تصلح للجنـــة ، كما فى حديث أبي سعيد الذي فى الصحيح ، وفيه : « حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة »

فاذا علم الانسان أن السيئة من نفسه لم يطمع فى السعادة التـامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : (من يعمل سوءاً يجز به) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) الخ . وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العـدل والاحسـان ، كما فى الصحيح « يمين الله ملآى » إلى قوله : « والقسط بيده الأخرى » وعلم فســاد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل .

إلى أن قال : ومن سلك مسلـكهم غايته إذا عظم الأمر والنهي أن يقول ـــ كما نقل عن الشاذلي ـــ يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، كما يوجد في كلامـه وكلام غيره أقوال وأدعيـة تستلزم تعطيل الأمر والنهي، مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، ويدعون بأدعيـة فيهـا اعتداء ، كما فى حزب الشاذلي . وآخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر وكافر ، ويقولون : هـذه موهبة ، ويظنونها من الـكرامات وهي من الأحوال الشيطانيـة التى يكون مثلهـا للسحرة والكهان ، كما قال تعالى : (ولمـا جاءهم رسول من عنـد الله مصدق لما معهـم) إلى قوله : (هاروت وماروت) ، وضـح قوله :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم » .

فعدل كثير من المتسبين إلى الاسلام إلى أن نبذ القرآن وراء ظهره ، واتبع ما تتلوا الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ونهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ؛ بل يعظم من يأتي ببعض الخوارق .

ثم منهم من يعرف أنه من الشياطين ؛ لكن يعظمه لهواه ، ويفضله على طريقة القرآن ، وهؤلاء كفار ، قال الله تعالى فيهم : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت) الخ .

قال : وفى قوله تعالى : (من نفسك) من الفوائد : ان العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولايشتغل بملام الناس وذمهم ؛ بل يسأل الله ان يعينه على طاعته ؛ ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحاجات مالا يمكن حصره ، ويبينه ان الله سبحانه لم يقص علينا قصة فى القرآن إلا لنعتبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ؛ فلولا أن فى النفوس مافي نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ؛ ولكن الأمر كما قال تعالى : (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) وقوله : (أتوا صوابه ؟) وقوله : (تشابهت قلوبهم) ؛ ولهذا

فى الحديث : « لتسلكن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكا له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم ما من نفس إلا وفيها مافي نفس فرعون ، وذلك ان الانسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل مادعا اليه موسى ؛ ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون .

وقال الشيخ الامام العالم العلامة

شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى . تغمده الله تعالى برحمته .

الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

فى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وبعض ماتضمنته من الحكم العظيمة .

هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . فانفروا ثبات ، أو انفروا جميعاً ـ الآيات) إلى أن ذكر صلاة الخوف ، وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول ، والتحاكم إلى الله وإلى الرسول . ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول . وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبييناً للايمان بالله وبالرسول . ولهذا قال فيها : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت . ويسلموا تسليما) .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول . وقد قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) وقال تعالى (قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقال (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله . والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم

أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات ـ الآية) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن . ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين . يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني اسرائيل ، وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم . فأصبحوا ظاهرين) .

وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونهيه عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته فى حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه مالم يكن يعلم . وذم من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لا يغفره . ولكن يغفر مادونه لمن يشاء ـ إلى أن بين ان أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً . بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التى شرعها .

لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا (واتخذ الله ابراهيم خليلا) .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة ابراهيم . وهو اخلاص الدين لله ، وان يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة . وبين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت . بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا فى بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة . بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى (ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية . وقالوا : ربنا ، لما كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتيلا) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جبن وفشل . فكان فى قلوبهم مرض . كما قال تعالى : (فاذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال :

رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت . فأولى لهم . طاعة وقول معروف ـ الآية) وقال تعالى (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . وان تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟) .

فالضمير فى قوله « وان تصبهم » يعود إلى من ذكر . وهم « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر . كما في مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود . وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعم كل من كان كذلك . ولكن تناوله لمن أظهر الاسلام وأمر بالجهاد: أولى .

ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لا يظهرون الاسلام أولى وأحرى .

والذي عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » يراد بهما النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد ما يفعله الانسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

ولفظ « الحسنات » و « السيئات » فى كتاب الله : يتناول هذا وهذا قال الله تعالى عن المنافقين (إن تمسسكم حسنة تسؤهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال تعالى : (إن تصبك حسنة تسؤهم . وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) وقال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (وإذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها . وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ، فان الانسان كفور) وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه : (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) ذكر هذا بعد قوله : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) .

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها : ففي مثل قوله تعالى : (من

جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها)
وقوله تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين)
وقوله تعالى : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله
غفوراً رحيما) .

وهنا قال (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن
نفسك) ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت . كما قال : (وما أصابكم من
مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى : (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم
ببعض ذنوبهم) وقال تعالى : (قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين
ونحن نتربص بكم . أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال
تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً
من دارهم) وقال تعالى : (فأصابتكم مصيبة الموت) وقال تعالى : (وبشر
الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا اليه راجعون) .

فلهذا كان قول « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول
لما يصيب الانسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب
التي تسوءه .

فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية : (إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله)

قال : هذه في السراء (وان تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) قال : وهذه فى الضراء .

وقال السدى : (إن تصبهم حسنة) قالوا والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان (قالوا هذه من عند الله . وان تصبهم سيئة) قالوا ـــ والسيئة : الضـــرر فى أموالهم ، تشاءما بمحمد ـــ قالوا : (هذه من عندك) يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء . فأنزل الله (قل كل من عند الله) الحسنة والسيئة (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟) قال : القرآن .

وقال الوالبي عن ابن عباس (ما أصابك من حسنة فمن الله) قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس « من حسنة » قال : ما أصاب من الغنيمة والفتح فمن الله . قال : « والسيئة » ما أصابه يوم أحـــد . إذ شج في وجهه ، وكسرت رباعيته .

وقال : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك ، وأمـــا « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح فمن « نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشخير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء (إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) ؟ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أمروا به . واليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس « ان تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجدب والبلاء .

وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنة النعمة . والسيئة البلية .

وقد ذكر ابو الفرج فى قوله «ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة» ثلاثة أقوال .

أحدها : أن «الحسنة» ما فتح الله عليهم يوم بدر . و «السيئة» ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه بن أبى طلحة ـ وهو الوالبى ـ عن ابن عباس .

قال : والثاني «الحسنة» الطاعة . و «السيئة» المعصية . قاله أبو العالية .

والثالث «الحسنة» النعمة . و «السيئة» البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبى العالية نحوه . وهو أصح .

قلت : هذا هو القول المعروف بالاسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبى جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهي تتناوله قطعا . كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله اليه من الطاعة : هو نعمة في حقه من الله أصابته . وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة . وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذي أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه .

فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك . وانا قدرتها عليك » .

فصل

والمعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى . فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم — فى الحديث المتفق على صحته —

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق . فان الصدق يهدى إلى البر . والبر يهدى الى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب . فان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار . ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد ذكر فى غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . واذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً) وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال تعالى : (والذين قاتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا : السوأى) وقال تعالى : (كتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . ويجعل لكم نوراً تمشون به . ويغفر لكم) وقال تعالى : (وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)

وقال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر . وهو عليهم عمى) وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغي . ثم لا يقصرون) وقال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) وقال تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً . وكذلك نجزى المحسنين) وقال تعالى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد — وهو الحق من ربهم — كفر عنهم سيئاتهم . وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل . وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

قال أبو عثمان النيسابوري : من أمر السنة على نفسه — قولا وفعلاً — نطق بالحكمة . ومن أمر الهوى على نفسه — قولا وفعلا — نطق بالبدعة . لأن الله تعالى يقول « وإن تطيعوه تهتدوا » .

قلت : وقد قال فى آخر السورة (فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقال تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) وقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذونني ؟ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدي القوم الفاسقين — إلى قوله — ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال تعالى (وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم . فقليلا ما يؤمنون) وقال تعالى أيضاً (وقولهم قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم . فلا يؤمنون إلا قليلا) وقال تعالى (فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . وعذب الذين كفروا) وقال تعالى فى النوعين (إذ يوحى ربك الى الملائكة : أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا . سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق ،

واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) وقال تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً . ومأواهم النار . وبئس مثوى الظالمين) وقال تعـالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الـكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا . وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فان الله شديد العقـاب) وقال تعالى (لن يضروكم إلا أذى . وإن يقـاتلوكم يولوكم الأدبار . ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس . وباءوا بغضب من الله . وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبيـاء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وقال تعالى (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم . وفى العـذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون) وقال تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهـم قسيسين ورهباناً . وأنهم لا يستكبرون) وقال تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا

فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله . فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفــلا يتدبرون القرآن ؟ أم عــلى قلوب أقفالها ؟ ان الذين ارتدوا على أدبارهم ، من بعد ما تبين لهم الهدى : الشيطان سول لهم، وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم اسرارهم) وقال تعالى (ومنهم مــن عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنــكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبمــا كانوا يكذبون) وقال تعــالى (فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج . فقل : لن تخرجوا معي أبداً . ولن تقاتلوا معي عدواً . انــكم رضيتم بالقعود أول مرة . فاقعدوا مع الخالفين) وقال تعالى فى ضد هذا (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها . فعجل لكم هذه . وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين . ويهديكم صراطــاً مستقيماً — الى قوله — ولو قاتلــكم الذين كفروا لولوا الأدبار . ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التى قد خلت من قبل . ولن تجد لسنة تبديلا) .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم. وهذا باب واسع .

فصل

واذا كانت السيئات التى يعملها الانسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت — وهي مضرة — جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التى يعملها : هى من نفسه . وان كانت مقدرة عليه . فانه اذا كان الجزاء الذي هو مسبب عنها من نفسه فعمله الذي هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء . فقال « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه . أشهد أن لا اله الا أنت . أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره الى مسلم . قله اذا أصبحت ، واذا أمسيت ، واذا أخذت مضجعك » .

فقد بين أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال . مع أن الكل بقدر الله .

فصـــــل

وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد — حسنة كان ، أو سيئة — هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات ، والسيئات . لكن هـذا عندهم : أحدث ارادة فعـل بها الحسنات . وهذا أحدث ارادة فعل بهـا السيئات . وليس واحد منها من احداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنـات والسيئات . وهم لا يفرقون فى الأعمال بين الحسنات والسيئات ، الا من جهـة الأمر . لا مـن جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عنـدهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمـال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاءاً . كما يقوله أهل السنة .

لـكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات . بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك فى الأعمـال . بل في الجزاء . وقوله ـــ بعد هذا ـــ « ما أصابك من حسنة » و« من سيئة » مثل قوله « وان تصبهم حسنة » وقوله « وان تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية أريد بهـا : النعم ، والمصائب . كما تقـدم . وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التى استحقوا بها العقاب . فان قوله « كل من عند الله » هو النعم والمصائب . ولأن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم . وبيان أن الانسان هو فاعل السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب . والله ينعم عليه بالحسنات ـــ عملها وجزائهـا ـــ فانه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . وإذا كانـت جزاء ـــ وهي من الله ـــ : فالعمل الصالح الذي كان سببها : هو أيضاً من الله . أنعم بها الله على العبد . وإلا فلو كان هو من نفسه ـــ كما كانت السيئات من نفسه ـــ لـكان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين فى الـكتاب والسنة . كما فى الحديث الصحيح الالهي : عن الله « ياعبادي ، إنما هي أعمالـكم

أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياهـا . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه » وقال تعـالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند انفسكم) وقال تعـالى (وإن تصبهم سيئة بمـا قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) وقال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بمـا كسبت أيدي النـاس . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وقال تعـالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وقال تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال تعـالى للمؤمنين (ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينة فى قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون) وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فصل

وقد ظن طائفة : أن فى الآية إشكالا ، أو تناقضاً فى الظاهر حيث قال « كل من عند الله » ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وهــذا من قلة فهمهم، وعــدم تدبرهم الآية . وليس في الآية تناقض . لا في ظاهرها، ولا في باطنها . لا في لفظها ولا معناها . فانه ذكر عن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، الناكصين عن الجهاد . ما ذكره بقوله (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا : هــذه من عنــد الله، وإن تصبهم سيئــة يقولوا : هذه من عندك) هــذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليــه وسلم، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك، والرجوع عما كنا عليــه : أصابتنا هذه السيئات . لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة، لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهــة التشاؤم، والتطير . أي هـــذا عقوبة لنا بسبب دينــك . كما كان قــوم فرعون يتطيرون بموسى ومن معه . وكما قال أهل القرية للمرسلين (إنا تطيرنا بكم) وكما قال الكفار من ثمود لصالح، ولقومه : (اطيرنا بك ومــن معك) فــكانوا يقولون عما يصيبهم ـــ من الحرب، والزلزال والجراح والقتل، وغير ذلك مما يحصل من العدو ـــ : هو منك . لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هــذا، وعن المصــائب السمائية : إنها منك . أي بسبب طاعتنــا لك، واتباعنا لدينك : أصابتنا هـــذه

المصائب ، كما قال تعالى : (ومن الناس من يعبـد الله على حرف . فان أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة) .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به : مسبباً لشر أصابه : إما من السماء . وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها . فانهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض . بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لا يناقض قوله « كل من عند الله » بل هو محقق له . لأنهم — هم ومن أشبههم الى يوم القيامة — يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب . وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به . ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون فى الأصل . لكن يقدحون فى القضية المعينـة . فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبـد الله بن أبي بن سلول يوم أحد ـــ إذ كان رأيه مع رأي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يخرجوا من المدينـة ـــ فسأله صـلى الله عليه وسلم ناس ممن كان لهم رغبة فى الجهاد : أن يخرج . فوافقهم ، ودخل بيتـه ولبس لأمته . فلما لبس لأمته ندموا . وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أنت أعلم . فان شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عـدوه» يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه الا عند العجز بالاحصار في الحج .

فصـــــل

والمفسرون ذكروا فى قوله « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » هذا وهذا .

فعن ابن عبـاس ، والسدى ، وغيرهمـا : أنهم يقولون هــذا ، تشاؤماً بدينه .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال : بسوء تدبيرك ـــ يعني

كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد — وهم كالذين « قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا » .

فبكل حال : قولهم « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الايمان والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم . فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين « إنا تطيرنا بكم » وكما قال تعالى عن آل فرعون « فاذا جاءتهم الحسنة ، قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقال تعالى عن قوم صالح « قالوا : اطيرنا بك وبمن معك . قال : طائركم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون »

ولما قال أهل القرية « إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم . أئن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » .

قال الضحاك : في قوله « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابكم من أمر فمن الله ، بما كسبت أيديكم .

وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : « معايبكم » وقال قتادة « عملكم عند الله » .

وفى رواية غير على : عملكم عند الله « ولكنكم قوم تفتنون » أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواها ابن أبي حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل « طائركم معكم » أي أعمالكم .

فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه : أن طائرهم — وهو الأعمال وجزاؤها — هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وهو من الله ؛ لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم . فمن عنده تتنزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفى هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال فى هذه الآية — لما كان المنافقون والكفار ومن فى قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة

دينية وصل إلينا ـــ بين سبحـانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا تصيبه تلك المصائب . وعلى من انتسب الى الايمـان بالرسول ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

فصـــــل

والمقصود : أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابهـــا بخيري الدنيـا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما اطاعوا فيـه الله والرسول ، كما لحقهم يوم احد بسبب ذنوبهم . لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به فى السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر

وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنـار ، ليتميز طيبه من خبيثه . والنفوس فيها شر . والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخـذ منكم شهـداء . والله لا يحب الظـالمين . وليمحص الله الذين آمنـوا ، ويمحق الكافرين) وقال تعـالى (وليبتلى الله ما فى صدوركم . وليمحص مافى قلوبكم) ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه « طائركم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون » .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فانـه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفى الصحيح عـن النبى صلى الله عليه وسـلم قال « ما من غازية يغزون فى سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم . وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح . كما قال تعالى (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عـدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

وشواهد هذا كثيرة .

فصـــــل

والمقصود : أن قوله « إن تصبهم حسنة يقولوا : هــذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عنـد الله » فانهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التى تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هــذا « فما لهؤلاء القــوم لا يكادون يفقهون حديثــاً ؟ » قال : السدى وغيره : هو القرآن . فان القرآن إذا هم فقهوا ما فيــه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل ، والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فلنهم إذا فهموا ما فى القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به : يعلم بالأمر به حسنه ونفعــه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فانه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

ومما يوضح ذلك : أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال بعدها « وأرسلناك للناس رسولاً . وكفى بالله شهيداً » فانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته بما ذكروه من الشبه التي هي عليهم لا لهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا . فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم : إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال ، بعد هذا « من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

فصل

وكان فيما ذكره ابطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول : ان الله قد يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم . فان فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وان لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .

والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهي حجة على الفريقين .

فان قال نفاة القدر : انما قال فى الحسنة « هى من الله » وفي السيئة « هي من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية . فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا « الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أي بسبب دينك . فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

واذا كان قد أريد : ان الطاعة والمعصية — مما قد قيل — كان

قوله « كل من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لا ينافي ذلك . بل « الحسنة » أنعم الله بها وبثوابها و « السيئة » هي من نفس الانسان ناشئة ، وان كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى « من شر ما خلق » فمن المخلوقات ماله شر ، وان كان بقضائه وقدره .

وانتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من احداث الانسان ، بدون ان يجعل الله هذا فاعلا وهذا فاعلا ، وبدون ان يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ؟ وهذا مخالف للقرآن .

فصل

فان قيل : اذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فلم فرق بين الحسنات ، التى هي النعم ، والسيئات ، التى هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الانسان ؟ .

قيل : لفروق بينهما :

«الفرق الأول» : ان نعم الله واحسانه الى عباده يقع ابتداء بلا . بب منهم أصلا . فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط . وينشيء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة . وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

« الفرق الثانى » : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والايمان ، كما قال أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

وفى الحديث الصحيح « ياعبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به : هو من نعمته .

وإلهامهم الايمان، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل

لهم بها الايمان دون الكافرين : هو من نعمته . كما قال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الايمان ، وزينه فى قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة) .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه . بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصل

فاذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله . فشكر الله . فزاده الله من فضله عملا صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه .

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب . فزال عنه سبب الشر . فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً . فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه . كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة . ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ، ومن عقوبة عمله . فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا . ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعانه على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله « قل كل من عند الله » .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها فى « من عند الله » .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير : من

نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر : من ذنوبكم . فاستغفروه ، يدفعه عنكم .

قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال تعالى (الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير : أن لا تعبدوا إلا الله . إنني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى . ويؤت كل ذي فضل فضله) .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره . وإذا أصر ، واحتج بالقدر : فقد تأسى بالأشقياء ، كابليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الانسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله . والدعاء بذلك فى الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي

وشر الشيطـان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » .

فيستغفر ممـا مضى . ويستعيذ ممـا يستقبل . فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله ــ الجزاء والعمل ــ سأله أن يعينه على فعل الحسنات . بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وبقوله (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله (ربنـا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا) ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق فانه يحصل من هذا التسوية . فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه وعن التوبة من ذنوبها ، والأستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه : أن يحتج على الله بالقدر . وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال (فبما أغويتني لأقعـدن لهم صراطك المستقيم) وقال (رب بمـا أغويتني لأزينن لهـم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) .

وكالذين يقولون يوم القيـامة (لو أن الله هـداني لكنت مـن

المتقين) وكالذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس فى الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على الهم بها . والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهم بها . فيعطى صاحب الحسنة : من الحسنات فوق ما عمل . وصاحب السيئة : لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلى مثلها . وهم لا يظلمون) .

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها : إلا وهو يقتضي الاضافة إليه .

وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من احسانه . فان الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح « والخير بيديك . والشر ليس اليك » فانه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه : ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئي اضافي . فأما شر كلي ، أو شر مطلق : فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس اليه .

وأما الشر الجزئى الاضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لايضاف الشر اليه مفرداً قط . بل اما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، كقوله (وخلق كل شيء).

واما أن يضاف الى السبب كقوله (من شر ما خلق) .

واما أن يحذف فاعله ، كقول الجن (وانا لا ندري أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟) .

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل.

فرقة كذبت بهذا ، وقالت : انه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون . لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح . وارادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت : اذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما ثم فعل تنزه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل ايمان وطاعة ، وصدق وعدل . وأن يعذب الأنبياء ، وينعم الفراعنة والمشركين وغير ذلك . ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . قال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون؟) وقال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟) ونحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن

والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما : فقد أتى بقول منكر وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة . بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع فى المخلوقات ما هو شر جزئي بالاضافة : يكون شراً كلياً عاما . بل الأمور العامة الكلية : لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد . كالمطر العام وكارسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التى أيد بها أنبياءه الصادقين . فان هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فان الملك الظالم : لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بامام ظالم : خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه : فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون اليه . وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول — أي يدعى — أنه نبي : فلو أيده الله تأييد الصادق : للزم أن يسوى بينه وبين الصادق . فيستوى الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا مما يوجب الفساد العام للناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم . ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبؤن الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لابد أن يهلكهم . لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذبا . فان يشأ الله يختم على

قلبك) فأخبر : أنه — بتقدير الافتراء — لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الاضافي ، والشر المطلق . ولم يجعلوا فى الشر الاضافى حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فانا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو يفعل مايفعل : بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فهما قدر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس فى نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون بعض . بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم — مع الكفر بالأنبياء — أن لا يعلم الفرق ، لا بسمع ولا بعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهما في الجبر — ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها — هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصـــــل

والمقصود هنا : الكلام على قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأن هذا يقتضي ، أن العبد لايزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا عـلى أحـد الوجوه الثلاثة . وقد تضمت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانـه : الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

فارادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه (وما بكم من نعمة فمن الله) .

وقد قال سبحانه (نبيء عبادي : أني أنا الغفور الرحيم) ثم قال (وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقال تعالى (اعلمـوا ان الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) فالمغفرة والرحمـة من صفاتـه المذكورة

بأسمائه . فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالانسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

وقوله « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم — كما قال ابن عباس وغيره — وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك (وأرسلناك للناس رسولا) .

وإما أن تكون لكل واحد واحد من الآدميين ، كقوله (يا أيها الانسان ، ما غرك بربك الكريم ؟) .

لكن هذا ضعيف . فانه لم يتقدم هنا ذكر الانسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : لقيل « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى . كما في مثل قوله (اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقوله تعالى (لئن أشركت

ليحبطن عملك) وقوله (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك . فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به لكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله (ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ؟) ثم قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) .

ونوع : قد يكون خطابه خطابا به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له والمراد غيره .

وليس المعنى : أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم. فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمر للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أي أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون فى

هذا الخطاب بالعموم، وبطريق الأولى . بخلاف قوله « وأرسلناك للناس رسولا » فان هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم « بلغوا عني ولو آية » وقال « نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقد قال تعالى فى القرآن (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) .

والمقصود هنا : أن « الحسنة » مضافة اليه سبحانه من كل وجه . و « السيئة » مضافة اليه لأنه خلقها . كما خلق « الحسنة » فلهذا قال « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف اليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التى تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة اليها . فانها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل فى هذا سيئات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله « ما أصابك من حسنة — ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه — لأنه أذنب — فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله

« كل من عند الله » كما تقدم. لأنها لا تضاف إلى الله مفردة . بل إما فى العموم ، كقوله « كل من عند الله » .

وكذلك الأسماء التى فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع ، المعطي المانع ، المعز المذل » أو مقيـدة ، كقوله (إنـا من المجرمين منتقمون) .

وكل ما خلقه ـــ مما فيه شر جزئي إضافى ـــ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون . فانه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه . وذلك شر بالاضافة اليهم . لكن حصل به ـــ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامـة ، والاعتبار بقصة فرعون ـــ ماهو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به . كما قال تعـالى (فلما آسفونـا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعـين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين) وقال تعالى بعد ذكر قصته (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

وكذلك محمد صلى الله عليـه وسـلم : شقي برسالته طائفـة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن

يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم. فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم . لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التى حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلا ، بل هو شر بالاضافة .

فصل

الفرق الخامس : أن ما يحصل للانسان من الحسنات التى يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس فى الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى

الله . بل كلها أمر وجودي . وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودي . فترك الانسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات — كالعدل والصدق — حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الانسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الايمان ، وزينه فى قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) وقال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) وقال تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله . ومن كان يكره

أن يرجع فى الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار ».

وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم « أوثق عرى الايمان : الحب فى الله ، والبغض فى الله ».

وفيها عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان ».

وفى الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأي منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان ».

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه — لما ذكر الخلوف — قال « من جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » وقد قال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه . إذ قالوا لقومهم : إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لاستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء) .

وقال على لسان الخليل (إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرنى فانه سيهدين) وقال (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فانهم عدو لي ، إلا رب العالمين) وقال (فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إنى وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هي أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول « لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلا صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته . فلا يعبد الا الله . ويحب أن يعبده ، ويبغض عبادة غيره . ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ويبغض التوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة فى القلب . وهي الحسنات التى يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر

الجمادات التى لا يحبها ولا يبغضها — فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات . ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها . فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل والمجنون والبهيمة . لا ثواب ولا عقاب .

ولكن اذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها . فان لم يعتقد تحريمها ويكرهها والا عوقب على ترك الايمان بتحريمها .

فصل

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟. والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة — كأبي هاشم بن الجبائي — إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه . ويسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على

ترك يقوم بنفسه . وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي . ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره . فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أن يكون عابداً لغيره . يعبد غيره فيكون مشركا . وليس في بني آدم قسم ثالث . بل إما موحد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل : النصارى ومن أشبههم من الضلال المتنسبين الى الاسلام . قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقد قال تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) لما قال إبليس (لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) .

فابليس لا يغوي المخلصين . ولا سلطان له عليهم . انما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحـــد . فـكل من تولاه فهو بـه مشرك ، وكل من أشرك بـه فقـد تولاه .

قال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم : أن لا تعبدوا الشيطـان ؟ انه لـكم عدو مبين . وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم) .

وكل من عبد غير الله فانما يعبد الشيطـــان ، وان كان يظن انه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينـا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون) .

ولهـــذا تتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصـــالحين ويخاطبونهم فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى ، أو ولي ، وانما هو شيطان ، جعل نفسه ملـكا من الملائكة ، كما يصيب عبـــاد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات . يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكة مثل منططرون وغيره ، وانما هي اسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائـكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبي ، أو الصالح الذي دعاه . وانمـا

هو شيطان تصور فى صورته ، او قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين الى الاسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم . ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : انه ذلك المستغاث به فى صورة آدمي اما راكباً ، واما غير راكب . فيعتقد المستغيث : انه ذلك النبي ، والصالح ، او انه سره ، او روحانيته ، او رقيقته او المعنى تشكل ، او يقول : انه ملك جاء على صورته . وانما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره : الميت فمن دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبي ، او الصالح ، او الملك . وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته . وانما هو الشيطان ، ليزيده غلواً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم اما عابد للرحمن ، واما عابد للشيطان . قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً . فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى اذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين . ولن

ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) وقال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة . ان الله على كل شهيد) .

فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة . وبسط هذا له موضع آخر .

فصل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب انما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك أمر وجودي ، وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله أمر وجودي . قال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وان أسأتم فلها) وقال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . وترهقهم ذلة — الى قوله — أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا : السوأى ، أن كذبوا بآيات الله . وكانوا بها يستهزئون) .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ، ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم ان الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف — حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه — فاذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلك — مع دعاء النفس اليه — أثيب ثوابا آخر ، كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فيناهـا كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاهـا ، والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى هي ضدها . فاذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذي حبب الايمان إلى المؤمنين ، وزينه في قلوبهم . وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم . فان أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه اليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفى الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع الجهل . وإلا فلو كان عالماً علما نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ولم يفعله . فان هذا خاصية العاقل . ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضراراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ؛ أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ؛ أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله فى البحر ونحو ذلك :

لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هـــذا يضره ـــ كالصبي ، والمجنون ، والساهي والغافل ـــ فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على مايضره ـــ مع علمه بما فيه من الضرر عليه ـــ فلظنه أن منفعته راجحة .

فاما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما فى الظن وإما فى المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح . فانه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجـــح عنده السلامة والربـــح ، وإن كان مخطئاً فى هذا الظن .

وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق . وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن . والشارب يختلف حاله . فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك . ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بـل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك . كما جاءت بذلك الأحاديث . كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنـــه يحصل له بـه

الضرر الراجح لم يفعله . بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله . ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً فيبقى غافلا . غير مستحضر للتحريم . والغفلة من أضداد العلم .

فصـــل

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فرطاً) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل . وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع . فان الله تعالى جعل فى النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها . فــلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى ، وذو حجى .

ولهذا كان البــلاء العظيم من الشيطان . لامن مجرد النفس . فان

الشيطان يزين لها السيئات . ويأمرها بهـا ، ويذكر لهـا ما فيها من المحاسن . التي هي منافـع لا مضار . كما فعل ابليس بآدم وحواء . فقال (يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبـلى ؟ فأكلا منهـا فبدت لهما سوآتهما) (وقال : ما نهاكما ربكما عن هـذه الشجرة إلا أن تكونا ملـكين ، أو تكونا من الخالدين) .

ولهذا قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعـالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنـاً ؟) وقال تعـالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زينا لـكل أمـــة عملهم . ثم الى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون) .

وقوله « زينا لـكل أمـة عملهم » هو بتوسيط تزيين الملائـكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير . وتزيين شياطين الجن والانس للشر . قال تعـــالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتـل أولادهم شركاؤهم ليردوهم . وليلبسوا عليهم دينهم)

فأصل ما يوقع الناس فى السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونهـا تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال

الصحـــابة رضي الله عنهم « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . ثم يتوبون من قريب) كقوله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل : سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة : انه من عمل منكم سوءاً بجهالة . ثم تاب من بعده واصلح . فأنه غفور رحيم) ولهـذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فانه يصاحبها حالٌ من حال جاهلية .

قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هـذه الآية ؟ (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهـالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهـل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال « اجمع اصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان كل من عصى ربه فهو فى جهالة ، عمداً كان او لم يكن . وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهـد : من عمل ذنباً ــــ من شيخ ، او شـاب ــــ فهو بجهالة . وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عـن معصيته . وقال ايضاً : هو إعطاء الجهالة العمد . وقال مجاهد أيضـاً : من عمل سوءاً خطأً ، أو إثماً عمداً : فهو جاهل . حتى ينزع منه . رواهن ابن

ابي حاتم . ثم قال : وروى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري . ونحو ذلك « خطأ ، أو عمداً » .

وروى عن مجاهـد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما . ولكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقـال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فانها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى (إنمـا يخشى الله من عبـاده العلماء) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم . فانه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول في الثانى . وهو مطرد ، وحصر الثانى فى الأول نحو قوله (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) وقوله (إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم . وهذا كالاستثناء . فانه من النفي : إثبات ، عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » وقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر . ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك فى صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون : نفي الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور . أن هـذا كقوله (قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن . والاثم والبغي بغير الحق) فانه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتهـا للجنس . أو لـكل واحد واحد من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟.

ففي هذه الآية وأمثالهـا : هو مقتض . فهو عام . فان العلم بمـا أنذرت به الرسل يوجب الخوف . فاذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات . وترك السيئـات . وكل عاص فهو جاهـل . ليس بتام العلم . يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعـدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عـدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنمـا الشيء الموجود . والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض الى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فاذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه الى الحسنات ، وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة . فانها حية . والارادة والحركة الارادية من

لوازم الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « أصدق الأسماء : حارث وهمام » فكل آدمي حارث وهمام . أي عامل كاسب ، وهو همام . أي يهم ويريد . فهو متحرك بالارادة .

وقد جاء فى الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً » .

فلما كانت الارادة والعمل من لوازم ذاتها . فاذا هداها الله : علمها ما ينفعها وما يضرها . فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصـــــل

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين . هما أصل السعادة . أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم (فطرة الله التى فطر الناس عليها) » قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : خلقت عبادي حنفاء . فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية ، محبة له ، تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) .

وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) وقال تعالى (الرحمن علم القرآن . خلق الانسان . علمه

البيان) وقال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى) وقال تعالى (وهديناه النجدين) .

ففي كل أحد ما يقتضى معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل فى فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الانسان ـــ بجاهليته وغفلته ـــ عن طلب علم ما ينفعه .

وكونه لا يطلب ذلك . ولا يريده : أمر عدمي ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

لكن النفس كما تقدم : الارادة والحركة من لوازمها ، فانها حية حياة طبيعية ؛ لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحى الحياة النافعة الكاملة . وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها . فلا هي حية متنعمة بالحياة . ولا هي ميتة مستريحة من العذاب . قال تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فالجزاء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التى خلق لأجلها .

بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الاحساس : كان في الآخرة كذلك . فان مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به . والحي لا بد له من لذة أو ألم . فاذا لم تحصل له اللذة : لم يحصل له مقصود الحياة . فان الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حي فى الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الارادة والعمل ، إذ هو حارث همام . فان عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته : فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

والقدرية يعترفون بهذا جميعه . وبأن الله خلق الانسان مريداً . لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول . أي قابلا لأن يريد هذا وهذا .

وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله وغلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً . فان الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فان الله خالق كل شيء . وهو الذي ألهم النفس — التى سواها — فجورها وتقواها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلية .

أما الغائية : فان الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير ، لا شر . وإن كان شراً إضافياً . فاذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم : أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد لا لحكمة ولا رحمة . والاخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما انه اذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض : كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلا . واذا قيل : يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فاذا قيل : ان الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين . أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والخير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل الا خيراً . وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة — كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما اذا قيل : إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد . ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحا للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما فى خلق جهنم وإبليس والسيئات : من الحكمة

والرحمة . وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين . الأحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . الذي لا يحصى العباد ثناء عليه . بل هو كما أثنى على نفسه الذي له الحمد فى الأولى والآخرة . وله الحكم وإليه ترجعون . الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولاحسانه الى عباده . سبحانه وتعالى . يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والاحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

وقد ذكرنا — فى غير هذا الموضع — ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من آلائه . ولهذا قال فى آخر سورة النجم (فبأي آلاء ربك تتمارى ؟) وفى سورة الرحمن يذكر (كل من عليها فان) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزي (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي من هذه الأشياء المذكورة . لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلالتها إياكم على وحدانيته ، وفي رزقه إياكم مابه قوامكم .

وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا في قـوله « فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ » فبأي نعم ربـك التى تدل على وحـدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟.

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فان التماري : تفاعل من المراء . يقال : تمارينا فى الهلال . والمراء فى القرآن كفر وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتمارى » أي يتمارون . ولم يقل : تميرا . فان التفاعل يكون بـين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للانسان . قيل للوليد بن المغيرة . فانه قال (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذي وفى : أن لا تزر وازرة وزر أخرى) ثم التفت إليه فقـال « فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ » تكذب . كما قال (خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عبـاده ، يحمد عليه حمـد شكر . وله فيـه حكمة تعود اليه ، يستحق لأجلها أن يحمـد عليـه حمـداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام عـلى العباد ، كالثقلـين المخاطبين بقوله

« فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم ــ كما ذكره في سورة النجم (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى) ــ تدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد . ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك (هذا نذير من النذر الأولى) قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فان الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال تعالى (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا) وقال تعالى فى القرآن (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً) وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أي من جنسها . أي رسول من

الرسل المرسلين .

ففي المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والايمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

فأفضل النعم : نعمة الايمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) .

وما يصيب الانسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه . ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وقد قال فى الحديث « والله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان

خيراً له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وان أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهـذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيهـا . فان فتنة السراء أعظم من فتنـة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى » .

والفقر : يصلح عليـه خلق كثير . والغنـا : لا يصلح عليـه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنـة المساكين . لأن فتنـة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لما كان في السراء : اللذة . وفى الضراء : الألم . اشتهر ذكر الشكر فى السراء ، والصبر في الضراء . قال تعالى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، إنـه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته : ليقولن ذهب السيئات عني ،

إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) ولأن صاحب السراء : أحـــوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر . فان صبر هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقـــد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات . وقد يكون واجباً ، ولكن لاتيانـه بالشكر ـــ الذي هو حسنات ـــ يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضـــراء : لا يكون الشكر فى حقــه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقـــد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتي بــه من الصبر . فان اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهـــذا حال يعسر عـــلى كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الله تعالى منعم بهذا كلــه ، وإن كان لا يظهر الانعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فان الله يعلم وأنتم لاتعلمون . فكل مايفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الانسان : فهي من نفسه . ومع هذا فهي ـــ مـــع

حسن العاقبة — نعمة ، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والايمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني » .

وفي دعاء القرآن (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) (ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا) كما فيه (واجعلنا للمتقين إماماً) أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و « الآلاء » فى اللغة : هي النعم ، وهي تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة — سورة الرحمن — نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم فى صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة — فبأي آلاء ربكما تكذبان — إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد » .

والله تعالى يذكر فى القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ويذكر بآياته التى فيها نعمه وإحسانه إلى عباده . ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى . وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما فى سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر . من جهة أسبابه . فانه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعه . فانه يكون بالقلب واللسان واليد .

فاذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال . لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما فى المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة اليه . بل ماثم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل مالا ينتفع به ، ولا ينفع به أحداً . فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم فى معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام . إذ كان عندهم يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمــاً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فله الوحدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهــم . فمن قصر عن معرفــة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلا ولا حكمة ، ولا توحيد إلهيــة . بل توحيد ربوبيته .

والمعتزلي أيضاً لا يثبت فى الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلا فى الحسنات والسيئات . ولا عزة ولا حكمة فى الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمــة من فعل لا لأمر يرجع اليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمــد لا يقع إلا عــلى نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر . فهو أول الشكر .

والحمد ــ وإن كان على نعمته وعلى حكمته ــ فالشكر بالأعمال :

هو على نعمته . وهو عبادة له لالهيته التى تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر .

ولهذا عظّم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد — الذي هو الشكر المقول — أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد . والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله . والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .

وقد قال تعالى (فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل فى الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

وفى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « ربنا ولك الحمد . ملء السماء . وملء

الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد — وكلنا لك عبد — لا مانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لفظ الحديث . « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فان العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى (فالحق والحق أقول) .

ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أي الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا — وهو الحمد — أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فاذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم

بعباده ، أرحم بعبـاده من الوالدة بولدهـا : أوجب ذلك أن يحبـه عباده ويحمدوه .

وأما اذا قيل : بل يخلق ماهو شر محض . لا نفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلا على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعـذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للاحسان الى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو — مع هذا — يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة — ونحو ذلك . مما يقوله الجهمية — : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهـذا فان كثيراً مـن هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم مـن يذكر فى كلامه ما يقتضي هذا . ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء بـه ، لكن يرى أن ليس فى ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم

وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وقوله (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله (وما ربك بظلام للعبيد).

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم الى بعض ، أو قصر فى حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلا إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فاذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر . فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر .

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تلك حسنة يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير

والاحسان ، الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى . وإن كان العباد لا يعلمون .

وهو سبحانه خلق الانسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فاذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟ .

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الانسان . وكانت الحكمة التى خلقها بخلق الانسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) وما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الانسان خلقت كما قال الله تعالى (إن الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً) وقال تعالى (خلق الانسان من عجل) .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة . فكان ذلك خيراً ورحمة . وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فان هذا الشر إنما وجد لعدم

العلم والارادة التى تصلح النفس . فانهـا خلقت بفطرتهـا تقتضي معرفة الله ومحبته . وقد هديت الى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله واحسانه . لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات — من شياطين الانس والجن — مالت الى ذلـك ، وفعلت السيئات . فـكان فعلهـا للسيئات . مركبـاً من عدم ما ينفـع وهو الأفضـل . ووجود هـؤلاء الذين حيروهـا . والعـدم لا يضـاف الى الله . وهـؤلاء : القول فيهـم كالقول فيهـا : خلقهم لحـكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذي لا خير فيه : هو العـدم المحض ، والعدم لا يضـاف الى الله . فانه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء : كانت السيئات منها باعتبار [أن] ذاتها فى نفسها مستلزمـة للحركة الارادية التى تحصل منها — مع عدم ما يصلحها — تلك السيئات .

والعبد اذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين.

إن اعترف به اقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته الى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال . وان لم يتب عليـه فهو مصر . وان لم يغفر له فهو هالك : خضـع لعزته وحكمته . فهـذا حال

المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وان قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه ، واقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول . وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك الا شراً . وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه ولاحسانه الى خلقه . ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولاحسانه الى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه . لأن حكمه عدل لا يفعل الا خيراً وعدلا . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء الا كان خيراً له « ان اصابته سراء شكر . فكان خيراً له . وان اصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه ـ من الحمد والثناء ـ ولأنه محسن الى المؤمن .

ومما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل فى الحديث . انما دخل فيه

ما يصيب الانسان من النعم والمصائب ، كما فى قـوله (ما أصابك مـن حسنة فمـن الله وما أصابك مـن سيئة فمن نفسك) ولهـذا قال « ان اصابته سراء شكر . فـكان خيراً له . وان اصابته ضراء صبر . فـكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث . فلا اشكال عليه .

الوجه الثانى : أنه اذا قدر أن الأعمال دخلت فى هذا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فاذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

واذا قضى عليـه بسيئة : فهي انمـا تـكون سيئة يستحق العقوبـة عليها ، اذا لم يتب منها . فان تاب أبدلت بحسنة . فيشكر الله عليها . وان لم يتب ابتلى بمصائب تـكفرها ، فصبر عليها . فيكون ذلك خيراً له . والرسول صلى الله عليه وسلم قال « لايقضي الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : ان العبد ليعمل الذنب فيدخل بـه الجنة بعمله . لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبـد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره اياه ، وشهوده بفقره وحاجته اليه ، وأنه لا يغفر الذنوب الا هو .

فيحصل للمؤمن ــ بسبب الذنب ــ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك . فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو فى ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ؛ تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء فى بعض الأحاديث يقول الله تعالى « أهل ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيادتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى . وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى . إن تابوا فأنا حبيبهم » أي محبهم فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

وفى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها . فان الشر لا يجيء إلا منها . ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه . فان ذلك من السيئات التى أصابتـه . وهي إنما أصابته بذنوبه . فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها . ويستعيـذ

بالله من شر نفسه وسيئات عمله . ويسأل الله أن يعينـــه على طـاعته . فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة (اهــدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهــم ولا الضالين) فانه إذا هداه هــذا الصراط : أعانه على طــاعته وترك معصيته . فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الانسان . وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هــداه . فلماذا يسأل الهـــدى ؟ .

وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحــواله . وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمـــور فى كل يوم . وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك

فانه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه . وإلا

كان العلم حجة عليه . ولم يكن مهتدياً . والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الارادة الصالحة .

فانه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ إلا بهذه العلوم والارادات والقدرة على ذلك .

ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم اليه .

فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الانس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى ما فى النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها فى الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله ــ بفضله ورحمته ــ جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد

إلا لنعتبر بها، لما فى الاعتبار بها من حاجتنا اليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثانى بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم .

فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لانشبهه قط . ولكن الأمر كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) وكما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون) وقال تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم تشابهت قلوبهم) وقال تعالى (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى؟ قال : فمن ؟ » .

وقال « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين فى الصحيحين .

ولما كان فى غزوة حنين كان للمشركين شجرة ــ يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين فقال بعض الناس « يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . إنها السنن . لتركبن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس . وإن كانت بقدر الله .

فأعظم السيئات : جحود الخالق . والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلها من دونه . وكلا هذين وقع فان فرعون طلب أن يكون إلها معبوداً دون الله تعالى . وقال (ما علمت لكم من إله غيرى) وقال (أنا ربكم الأعلى) وقال لموسى (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) و (استخف قومه فأطاعوه).

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله . فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الانس والجن : شعبة من هذا وهذا . إن لم يعن

الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الامكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر . وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الانسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته.

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه . وإنما معبوده : ما يهواه ويريده . قال تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والناس عنده فى هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « ياربامى » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركا . ومن لم يوافق هواهم : كان عدوا ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هى حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه

لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الالهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء — وإن كانوا يقرون بالصانع — لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده . فان كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله . ويكون من أطاعه في هواه : أحب اليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً — أو شيخاً — أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتابا واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس . فانه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به : اكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا اليه موسى . قال تعالى (وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقا لما معهم) وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما

جاءتهم البينة) وقال تعالى (وما تفرقوا إلا من بعـــد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) .

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون (إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفـة منهـم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين) وقال تعالى عنهم (وقضينـا إلى بني اسرائيل في الكتاب : لتفسدن في الأرض مرتين . ولتعلن علواً كبيراً) ولهذا قال تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلهـا للذين لا يريدن علواً في الأرض ولا فساداً)

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ويشكروه . ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليــه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعل من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال (إن

هذه أمتكم أمـة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون) وقال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم . فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً . كل حزب بما لديهم فرحون) .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد . وربكم رب واحد . والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هـذه أمتكم أمـة واحدة » أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد ابن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

و « الأمة » الملة . والطريقـة . كما قال تعالى (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ــ مقتدون) كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذي يأتم به الناس . كما أن « الامام » هو الذي يأتم به الناس . وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر أنه (كان أمة) .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرقون فيه كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « انا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقد قال الله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين . ولا تتفرقوا فيه) ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً . لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

فمن كان من المطاعين — من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك — متبعاً للرسل : أمر بما أمروا به . ودعا الى ما دعوا اليه . وأحب من دعا الى مثل ما دعا اليه . فان الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده في نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو الى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب ان يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً

يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد الا اياه ، وأن لا يكون الدين الا له ، وأن تكون الموالاة فيه . والمعاداة فيه . وأن لا يتوكل الا عليه ، ولا يستعان الا به

فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله ، لا له . واذا أمر أحد غيره بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه .

واذا أحسن الى الناس ، فانما يحسن اليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى. ويعلم أن الله قد من عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب ، التى ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم الى أي شيء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور ولم ينزل فى التوراة ، ولا في الانجيل ، ولا فى الزبور ، ولا في القرآن مثلها . فان فيها (إياك نعبد وإياك نستعين) .

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله . لأنه

إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً . لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار (إنما نطعمكم لوجه الله . لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه . فانه قد علم أن الله هو المان عليه ، إذ استعمله فى الاحسان . وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص . فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسره لليسرى . وعلى ذلك : أن يشكر الله . إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن الى غيره ليمن عليه ، أو يرد الاحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمن عليه . فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه . ولا عمل لله ، ولا عمل بالله . فهو المرائى .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذي ينفق ماله رئاء الناس . ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب . فأصابه وابل فتركه صلداً . لا يقدرون على شيء مما كسبوا . والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتاً من أنفسهم : كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين . فان لم يصبها وابل فطل . والله بما تعملون بصير) .

قال قتادة « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم . وكذلك قال الكلبي . قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم . على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بوعد الله له : طالب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمن عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك . لا سيما إذا كان يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالاعطاء .

فصل

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية — وإن كانت خلقاً لله — فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له . وفطره عليه . فان الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له . ودله على الفطرة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به — من معرفة الله وحده . وعبادته وحده — عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان (اذهب . فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً — الى قوله — ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا . وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون) .

وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) .

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التى توجب العذاب . كما قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) .

فاذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه :

تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات . وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي . لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي . لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات — التى يستحقها بعد إقامة الحجة عليه — بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك . وهذا أمر وجودي .

وطائفة — منهم : أبو هاشم — قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر فى هذا الوجه : هو أمر وسط . وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها . ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فاذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولا : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره . بأن يتوب منه .

أو بأن لا تقوم عليه الحجة . وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه . بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الاثم حتى يبلغ . فاذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوده من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب الا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

وعلى هذا : فالشر ليس الى الله بوجه من الوجوه . فانه ــ وان كان الله خالق أفعال العباد ــ فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو ــ مع هذا ــ عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه . وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل . كقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم . لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بد لهم من حركة وإرادة . فلما لم يتحركوا بالحسنات: حركوا بالسيئات ، عدلا من الله . حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له — وهو القلب الذي لا يكون الا عاملا — فاذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه — إذا حقق — يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خالق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فاذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم : عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به . فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون فى نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون جزاء على ذلك : فالله محدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال الا من هذه الجهة .

وهذا الذى ذكرناه : يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلما .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شيء . فما حدث شيء

الا بمشيئته وقدرتـه . لكـن أول الذنوب الوجودية : هــو المخلوق . وذاك عقوبـة على عـدم فعـل العبد لمـا خلق له ، ولمـا كان ينبغي له أن يفعـله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته الى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنـا « الله خالق كل شيء » وما أحدثه مـن الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم . وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص لله العمل : فلا يزال مشركا . ولا يزال الشيطان مسلطا عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه ــــ بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله ــــ هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيـــم) ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عـــدم القوة قـــد تحصل له أمراض وجودية ، وغــير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

فصل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الايمان : قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم في طغيانهم يعمهون) وهذا من تمام قوله (وما يشعركم : أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الايمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الايمان ، وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ،لكن الموجب للعذاب : هو عدم الايمان . وما ذكر شرط فى التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول . فانه قد يشتغل عن الايمان بما جنسه مباح — من اكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك — وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الايمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الايمان هو تركه . وهو أمر وجودي ، لا ضد له إلا ذلك .

فصـــــل

الفرق السابـع : مــن الحسنــات والسيئــات الـتى تتناول الأعمال والجزاء في كون هــذه تضاف إلى النفس . وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات الـتى تصيب الانسان ـــ وهي مصائب الدنيــا والآخرة ـــ ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه . فانحصرت فى نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فانه لا تنحصر أسبابه . لأن ذلك من فضل الله واحسانه ، يحصل بعمله وبغــير عمله . وعمله نفسه من إنعام الله عليه . وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفـه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه. فيرجع فيها إلى الله . فـلا يرجو إلا الله . ولا يتوكل إلا عليــه . ويعـلم أن النعم كلهــا من الله . وأن كل ما خلقــه فهو نعمـــة ، كما تقـــدم . فهــو يستحق الشكر المطلق العــام التــام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخـير

كشكر الوالدين وشكر من أحسن اليك من غيرهما . فانه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لكن لا يبلغ من حق أحـد وإنعامه : أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله . فان الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التى لا يقدر عليها مخلوق . ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً . قال تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) وقال تعالى (وسخر لـكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وجزاوه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يجز أن يطـاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعـالى (ووصينا الانسان بوالديه حسناً . وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) وقال في الآية الأخرى (وإن جاهـداك عـلى أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيـا معروفا . واتبع سبيل من أناب الي) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلـم فى الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع والطاعة فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، مالم يؤمر بمعصية . فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفى الصحيحين عنـه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما الطاعـة فى المعروف » وقال « من أمركم بمعصيـة الله فـلا تطيعوه » وقال « لا طاعـة لمخـلوق في معصية الخالق » .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنــه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فــلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو . وأنه (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فــلا مرسل له من بعـــده) صار توكلــه ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا عــلم ما يستحقه الله من الشكر ـــ الذي لا يستحقه غيره ـــ صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنهـــا من نفسه لـكان غلطاً . لأن منهـــا ما ليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيـــه مدخل : فان الله هو المنعم بـــه . فانـــه لاحول ولا قـــوة إلا بالله . ولا ملجـــأ ولا منجى منه إلا اليـــه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس . فضبط ذلك وعــلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لا يرجون عبد إلا ربه . ولا يخافن عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذابا دائماً أبداً بلا ذنب .

فان هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فاذا صدق العبد بقوله تعالى « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف — ابن عباس وغيره — أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل : إنما كان بذنوبهم . لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم — حتى الشوكة يشاكها — إلا كفر الله بها من خطاياه » .

فصـــــل

الفرق الثـامن : أن السيئة إذا كانت من النفس . والسيئة خبيثة مذمومـة ، وصفهـا بالخبث فى مثـل قوله (الخبيثـات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى (ضرب الله مثلا : كلمة طيبة ـــ ومثل كلمة خبيثة) وقال الله (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعـه) والأقوال والافعال صفات القائل الفاعل .

فاذا كانت النفس متصفة بالســوء والخبث لم يكن محلهـا ينفعـه إلا مـا يناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير : لم يصلح .

ومن أراد : أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلا عن الناس . أو يجعل الأحمق الذى لا يعرف شيئا سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد في العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التى ليس فيها من الخبث شيء . فان ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان فى النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن المؤمنين إذا نجوا من النار ــ أي عبروا الصراط ــ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . فاذا هذبوا ونقوا : أذن لهم فى دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخلص المؤمنون من النار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم فى دخول الجنة . فو الذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فاذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة . فانها من إنعام الحي القيوم الباقى ، الأول الآخر . فسببها دائم . فيدوم بدوامه .

وإذا علم الانسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع فى السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى (من يعمل سوءاً يجز به) وقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وعلم أن الرب عليـم حليم ، رحيـم عـدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والاحسان . وكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يمين الله ملأى . لا يغضيها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فانه لم يغض مافى يمينـه . والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها . فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد (أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ولهذا يقولون : لا ندري ما يفعل بمن فعل السيئات . بل يجوز عندهم : أن يعفو عن الجميع . ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع . ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة . بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده . كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر ابن الباقلاني وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان في القدر وفى الوعيد . وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إنا الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل يكون عذابه مؤبداً . فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته — عندهم — لا يرحمه الله أبداً . بل يخلده في النار . فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر . وناقضهم جهم فى هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث

واتباع السلف . وكذلك سلكوا فى الايمان والوعيد مسالك المرجئة الغلاة كجهم وأتباعه .

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع فى الأسماء والصفات . فغلا فى نفي الأسماء والصفات . ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنة والفلاسفة ونحوهم . ووافقه المعتزلة فى نفي الصفات دون الأسماء .

والكلابية ــ ومن وافقهم من السالمية . ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ــ وافقوه على نفي الصفات الاختيارية دون نفي أصل الصفات .

والكرامية ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك . وهو امتناع دوام ما لا يتناهى . وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعالاً لما يشاء إذا شاء . لامتناع حوادث لا أول لها . وهو عن هذا الأصل ــ الذي هو نفى وجود ما لا يتناهى فى المستقبل ــ قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا . لكن قال : بتناهى الحركات .

فالمعتزلة فى الصفات : مخانيث الجهمية .

واما الكلابية : فيثبتون الصفات في الجملة . وكذلك الأشعريون . ولكنهم ــ كما قال الشيخ أبو اسماعيل الانصاري ــ : الجهمية الاناث . وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا . لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنها مخانيثهم من بعض الوجوه . وإلا فان مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستانى يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة . لأن الشهرستانى إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية فى الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث . فان مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفى الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية . وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة ، وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس — رضي الله عنهم — وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير . وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون فى القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة — بعد موت الحسن ، وتكلم فى المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بانفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد فى النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب — ضموا إلى ذلك القدر . فان به يتم التغليظ على أهل الذنوب . ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحاياكم . فانى مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا

ولم يكلم موسى تكليما . تعالى الله عما يقول الجعـد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ . ومنهـا ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلامـاً فى رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل ابراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم ـــ وقـد تكلم فى ذمهم ـــ وابن الماجشون وغيرها وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم .

وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الامام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فانهم فى امارة المأمون قووا وكثروا . فانه كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثماني عشرة ومائتين . وفيها مات . وردوا أحمد بن حنبل الى الحبس ببغداد الى سنة عشرين . وفيهـا كانت محنتـه مع المعتصم ومناظرته لهم في الـكلام . فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وإمتحانهم اياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة

ضر به ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم فى العامة ، وخافوا الفتنة . فأطلقوه .

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف . فجمع له مثل أبى عيسى محمد بن عيسى برغوث ، ومن اكابر النجارية اصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة — كابن المبارك ، واحمد بن اسحاق ، والبخاري وغيرهم — يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين — من اصحاب احمد وغيرهم — يظنون ان خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون ان بشر بن غياث المريسي — وإن كان قد مات قبل محنة احمد ، وابن ابى دؤاد ونحوهما — كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق . وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما :

نفي الصفات . والثاني : الغلو فى القدر والارجاء . فجعل الايمـان مجرد معرفة القلب . وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة فى خلافه فيهما .

وأما الأشعري : فوافقـه على أصـل قوله، ولكن قـد ينـازعه منازعات لفظية .

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات ـــ لا الارادة ولا غيرهـا ـــ فهو إذا قال : إن الله يحب الطـاعات ، ويبغض المعاصي . فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات ـــ كالأرادة ـــ فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الارادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالي الجويني : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهـل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك فى بعضهم .

وشاع هذا القول فى كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة . فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له فى مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فانه من المبالغين فى ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ فى ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس ـــ بحضرة نظام الملك ـــ أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس فى السموات إله ، ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القبر نبي . وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو فى مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية . لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق ـــ عنده ـــ هو من يصل إلى مقام الفناء . فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق . وجميع الكائنات مرادة له . وهذا هو الحكم عنده . و « الحسنة » و « السيئة » يفترقان فى حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه . والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه الا مشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك فى غير موضع .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني . وهو أنهم – مع مشاهدة المشيئة العامة – لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه . وبين لهم الجنيد ، كما قال فى التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة ، كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك فى القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق . فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء وهذه الأعمال . ولا يبغض هؤلاء وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعري . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون . وهؤلاء يعذبون .

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا – بالنسبة إلى المخلوق – كان أعقل منهم .

فان هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا .

وهم غلطوا فى حق العبد وحق الرب .

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوى عنـده جميع الحوادث . وهذا محال قطعاً . وهم قـد تمر عليهم أحوال يفنون فيهـا عن أكثر الأشياء . أما الفنـاء عن جميعها : فممتنع . فانه لا بـد أن يفرق كل حي بـين ما يؤلمـه وبين ما يـلذه . فيفرق بـين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الايمانى الرحمانى الذي به فرق الله بين أوليائه وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدري .

وعلى هذا : فان تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبـد من أن يفرق . فان لم يفرق بالفرق الشرعي — فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطـه — وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطـانه . فيحب ما تهواه نفســه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصي . وآخرون فى الفسوق . وآخرون فى الكفر . حتى جوزوا عبادة الأصنام .

ثم كثير منهم مـن ينتقل إلى وحـدة الوجود . وهم الذين خالفوا

الجنيد وأئمة الدين في التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، والتلمساني ، والبلياني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب في القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين وافقوا جهماً في هذا الأصل . وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الارجاء . فانه منسوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم : غير معظم للامر والنهي ، والوعد والوعيد بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه . فانهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته : أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عنـــدهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظـور . بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـــ كالأشعري ـــ فى أنه فى نفس الأمر: لا حسن ولا سيء . وإنمـا الحسن والقبح : مجرد كونه مأمـوراً بـه ومحظوراً . وذلك فرق يعود إلى حظ العبـد . وهؤلاء يدعون الفنـاء عن الحظوظ .

فتارة : يقولون فى امتثال الأمر والنهي : إنه من مقـام التلبيس ، أو ما يشبه هــذا . كما يوجد فى كلام أبي إسمـاعيل الهروي صـاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة . كما يقوله الشيخ المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلـكهم : غايتــه ـــ إذا عظم الأمر والنهي ـــ أن يقول ، كما نقل عن الشاذلي : يكون الجمع فى قلبك مشهوداً . والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد فى كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي . مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصـاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل

الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم . ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد فى جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء . ما هي متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التى يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم . كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر . وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم — ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الاسلام — إلى أن نبذ كتاب الله

وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشيــاطين . فلا يعظم أمر القــرآن ولا نهيه . ولا يوالى من أمر القرآن بموالاته . ولا يعادي من أمر القرآن بمعــاداته . بــل يعظم من رآه يأتى ببعض خوارقهم ، التى يأتى بمثلهـا السحرة والكهان . باعانة الشياطين . وهي تحصل بما تتلوه الشياطين.

ثم منهم من يعرف : أن هــذا من الشيطان . ولكن يعظم ذلــك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به الى تقديس العامة. وهؤلاء كفار . كالذين قال الله تعالى فيهم (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؟ ويقولون للذين كفروا : هــؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله . ومــن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

وهؤلاء ضاهوا الكفار الذين قال الله تعــالى فيهم (ولمــا جاءهم رسول من عنــد الله مصدق لمــا معهم ، نبذ فريق مــن الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشيــاطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكــن الشيــاطين كفروا) الآية .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع فى مثل هذا طوائف من أهل الـكلام ، والعلم ، وأهل

العبادة ، والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام . لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة . التى تعينهم عليها الشياطين . لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش . فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس . وتعظيمهم لهم . لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه . وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه . بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له فى الباطن . لأجل مصلحة الجمهور . كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل فى رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهوا به فارس والروم وغيرهم . فان فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا — قبل النصرانية — مشركين يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى . فان اولئك ضاهوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ . وهؤلاء ضاهوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ،

ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هي إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلها شريكان للرب وأن يعدلا به . ونفس الانسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول — إذا أصبح وإذا أمسى ، وإذا اخذ مضجعه — « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك . إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مع قوله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقوله (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)

وقد ظهرت دعوى النفس الالهية في فرعون . ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله او من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

واصـــل الشرك فى بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصـالحين المعظمين . فانهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا اول شرك كان فى بني آدم . وكان فى قوم نوح . فانه اول رسول بعث إلى اهل الأرض . يدعوهم الى التوحيـد . وينهاهم عن الشرك . كما قال تعـالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم . ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد اضلوا كثيراً) وهـذه اسماء قوم صالحين كانوا فى قوم نوح . فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما اغرق الله اهل الأرض ، ثم صارت الى العرب . كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره . ان لم تـكن اعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

واما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنـه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبـود المستحق للعبادة دون ما سواه . وانه يحب ان يعبد ، وانه امر ان يعبد وانه لا يعبد إلا بما احبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلا بد ان يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة الى الله سواء . لايحب

شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبـده وحـده لا يشرك به شيئاً . وبين من يعبد معه آلهة اخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة . ليس معها حكمة ولا رحمـة ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس فى نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

ثم اذا جوزوا الكرامـات لـكل من زعم الصلاح ، ولم يقيـدوا الصلاح بالعلم الصحيح والايمان الصـادق والتقوى ، بـل جعلوا علامـة الصلاح هـذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقـاً . وحكوا فى ذلك مكاشفات ، وقالوا اقوالا منكرة .

فقـال بعضهم : إن الولي يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهـذا قاله ابن عربى والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاتـه مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلـك . وزاد ابن عربى : ان الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات . والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمـــه الله . ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعوا ان هذا كان للنبي ، ثم انتقل الى الحسن بن علي ، ثم من الحسن الى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك الى ابي الحسن الشاذلي ، ثم الى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخـبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة ، فدخلا الـكعبة . فقال له ابن هود ــ وأشار الى وسط الـكعبة ــ هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقف شعري من هذا الـكلام وانخنست ـــ أو كما قال .

ومن الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة . قيـل له فى ذلك . فقـال : هـاه ، إن ببلدكم هـذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبـال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه :

أن لا يقيم القيامة لما أقامها . لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل — وهو الذي نختار أن يكون حقاً — أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك . بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد فى أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضي بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى — من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير — ما هو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله ابراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام سأله نجاة ابنه . فقيل له (يا نوح ، إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح . فلا تسألن ما ليس لك به علم) .

وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له فى شأن عمه أبي

طالب (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) وقيل له فى المنافقين (سواء عليهم استغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم) وقد قال تعالى عموماً (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وقال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟!.

وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . أخبر أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثنى عليه . فيقـال له : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع . وسل تعط . واشفع تشفع . قال : فيحد لي حداً . فأدخلهم الجنة » وقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين) .

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه (وإذا سألك عبـادي عني ؟ فإنى قريب . أجيب دعوة الداعي إذا دعان) وقال (وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عـن عبادتي سيدخـلون جهنم داخرين) .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من

داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها احدى خصال ثلاث : اما أن يعجل له دعوته . واما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها ».

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب أو مثله . وهذا غاية الاجابة . فان المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً . أو مفسداً للداعي أو لغيره . والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب . وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والكريم الرحيم إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له . فانه يعطيه من ماله نظيره . ولله المثل الاعلى .

وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم — لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم — فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روى في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

فصـــــل

ولما كان الأمر كما أخبر الله به فى قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هـذا : أن لا يطلب العبد الحسنات ــــ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ــــ إلا مــن الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لايستحقه غــيره . ويعــلم أنه لا إله إلا هو . كما قال تعـالى (وما بـكم مــن نعمة فمن الله) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال (ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون) وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والانسـان إنمـا يجأر إذا أصـابه الضر . وأما في حال النعمة : فهــو سـاكن ، إما شـاكراً وإما كفوراً (ثم اذا مسـكم الضر فاليـه تجـأرون . ثم إذا كشف الضر عنكـم إذا فريـق منـكم بربهم يشركون) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد ـ بعد ذلك ـ الانعام الى غيره . ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه . ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون) وقال تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب . ثم أنتم تشركون) وقال تعالى (وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلا . إنك من أصحاب النار) .

وقوله « نسي ما كان يدعو إليه » أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه ، كما قال في سورة الأنعام (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ، او أتتكم الساعة : أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . وتنسون ما تشركون) .

فذم الله سبحانه حزبين : حزباً لا يدعونه في الضراء . ولا يتوبون إليه . وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه . فاذا

كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه . وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان ـــ كالمعطلة ، والمشركة ـــ حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك . فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب . فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وقال تعالى (او لا يرون : أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لا يتوبون . ولا هم يذكرون) وقال تعالى (ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) وحزب يتضرعون اليه فى حال الضراء . ويتوبون اليه . فاذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وقال تعالى (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقال تعالى (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه . فلما نجاكم الى البر أعرضتم . وكان الانسان كفوراً) وقال فى المشركين ما تقدم « ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف

الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » .

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون اليه . ويثبتون على عبادته ، والتوبة اليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونـه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . فقال تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى فى الظلمـات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك : إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له . ونجينـاه من الغـم . وكذلك ننجي المؤمنين) وقال تعالى (ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً . ثم أناب . قال : رب اغفر لي . وهب لي ملـكا لا ينبغـى لأحـد من بعدي . إنك أنت الوهاب) وقال تعـالى (وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود . ففزع منهم . قالوا : لاتخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط . واهدنا الى سواء الصراط . إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة . وله نعجة واحدة فقال : اكفلنيها . وعزني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـــ وقيل ماهم ـــ وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه . وخر راكعـاً وأناب . فغفرنا له ذلك . وإن له عنـــدنا لزلفى وحسن مآب) وقال تعالى عن آدم وحواء (فدلاهما بغرور . فلما ذاقا

الشجرة بدت لهما سوآتهما . وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـة . وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنـا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال : (فتلقى آدم من ربه كلمات . فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم) .

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم (وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لمـا أصابهم فى سبيل الله . وما ضعفوا ومـا استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا . وثبت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين . فـآتاهم الله ثواب الدنيـا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) .

وقوله « قتل » أي النبي قتل . هـذا أصح القولـين . وقوله « معه ربيون كثير » جملة فى موضع الخبر ، صفة للنبي ـــ صفة بعـد صفة ـــ أي كم من نبي معه ربيون كثـير قتل ، ولم يقتلوا معـه . فانه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل فى الجملة . وأولئك الربيون (ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) .

و « الربيون » الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفان مات أو قتل : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزي الله الشاكرين » وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله ، فان الله حي لا يموت » .

فانه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس — المؤمنين والكافرين — وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين : إن هـذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وانه لو كان نبيا لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فان بنى اسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله فى غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير . فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا . وما استكانوا . والله يحب الصابرين ، ولكن استغفروا لذنوبهم التى بها

تحصل المصائب — فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم — وسألوا الله ان يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الايمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم فى أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فانه هو الناصر وحده . وما النصر إلا من عند الله . وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . ان الله عزيز حكيم) وقال تعالى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الانسان — وان كانت بقضاء الله وقدره — وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه . وأن لا يتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتى بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه فى الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينها ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك « اللهم لامانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية . هو المعطي المانع . لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الالهية — شرعا وأمراً ، ونهياً — وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكا وعظمة ، وبختا ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أي لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فانه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به اليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالي ، كالذين

أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء ، فقد يظن ذو الجد — الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده — أنه كذلك . فقال « ولا ينفع ذا الجـد منك » ضمن « ينفـع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب . بل يستحق بذنونه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه .

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد . وتحقيق قوله « إياك نعبـد وإياك نستعين » وقوله (فاعبده وتوكل عليه) وقوله (عليـه توكلت واليه أنيب) وقوله (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب . لا إله إلا هو . فاتخذه وكيلا) .

فقوله « لا مانع لما أعطيت . ولا معطـى لمـا منعت » توحيـد الربوبيـة الذي يقتضـى : أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعـى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الالهية ، ودليل عليه . كما يحتج بـه فى القرآن على المشركين . فان المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد — توحيـد الربوبية — ومع هـذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم اليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى (ويعبـدون من دون الله مالا

يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عنـد الله) وقال تعالى (والذين اتخـذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (ولقد أهلـكنا ما حولـكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ؟ بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه . وهو ما أمر بـه وشرعه عـلى ألسن رسله ـــ صلوات الله عليهم ـــ فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيـه غيره ، بل يقتضى : ان يكون رسوله صلى الله عليه وسـلم أحب اليه من نفسه .

فاذا كان الرسول ـــ لأجل أنـه رسول الله ـــ يجب ان يكون أحب الى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفى صحيح البخاري أن عمر قال « يا رسول الله ، والله إنـك لأحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقال: لا يا عمر ، حتى أكون

أحب اليك من نفسك . قال : فو الذي بعثك بالحق ، إنك لأحب إلي من نفسي . قال : الآن يا عمر » .

وقد قال تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

فان لم يكن الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال — على اختلاف أنواعه — فانه داخل تحت هذا الوعيد .

فهذا التوحيد — توحيد الالهية — يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ، كما قال تعالى فى النوعين (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال (فاعبده وتوكل عليه) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة . فمن لم يأت بـه كان من المشركين الخـالدين . فان الله لا يغفر أن يشـرك به ، ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مـع الله غيره ، ويحبونهم كما يحبونه . فكان ذلك التوحيـد ـــ الذي هو توحيد الربوبيـة ـــ حجـة عليهم . فاذا كان الله هو رب كل شيء ومليـكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غـيره معه ، وليس له عليهـم خلق ولا رزق ، ولا بيـده لهـم منع ولا عطـاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعـاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

فان قالوا « ليشفع » فقد قال الله (من ذا الذي يشفع عنـده إلا باذنه ؟) فلا يشفع من له شفاعة ـــ من الملائكة والنبيين ـــ إلا باذنه . وأما قبورهم ـ وما نصب عليها من قباب وأنصاب ـ أو تماثيلهم ـ التى مثلت على صورهم ، مجسدة او مرقومة ـــ فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا وشرعا . فانها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنـام التى عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا باذنه ، ولا يشفعون إلا لمـن ارتضى : فما بقي الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخـلوق عند المخـلوق . فان المخلوق يشفع عنده نظيره ـــ او من هو أعلى منه ، أو دونه ـــ بدون إذن المشفوع اليه . ويقبل المشفوع إليه ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعاوضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع : هي الـتى حركت إرادة المشفوع إليــه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لهـا ، كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور . فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فانه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع اليه فاعلا للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد . فلا يشفع عنده أحـد إلا باذنه

فالأمر كله إليه وحده . فلا شريك له بوجه . ولهذا ذكر سبحانه نفى ذلك فى آية الكرسي ، التى فيها تقرير التوحيد . فقال (له ما فى السموات وما فى الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه ؟) .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . إذ سجد وحمد ربه . يقال له « ارفع راسك . وقل يسمع . وسل تعطه ، واشفع تشفع فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال (قل : ان الأمر كله لله) وقال لرسوله (ليس لك من الأمر شيء) وقال (ألا له الخلق والأمر) .

فاذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا باذنه . فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفيع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه . كما يؤثر المخلوق في المخلوق . فانه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد . فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها . وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه . وهو الذي وفقه للدعاء . ثم أجابه . فما يؤثر فيه شيء

من المخلوقات . بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنـة المؤمنين بالقـدر . وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولا يكون شيء إلا بمشيئته . وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخـلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحـابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية . فانهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهـم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لمـا لم يكن فاعلاً له . فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلا للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلا للشفاعة .

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

فان « الاذن » نوعان : إذن بمعنى المشيئـة والخلق . وإذن بمعنى الاباحة والاجـازة .

فمن الأول : قوله فى السحر (وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله) فان ذلك بمشيئة الله ، وقدرته . وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هـذا « الاذن » وحقيقة قولهم : إن السحـر يضر بدون إذن الله ·

وكذلك قوله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله) فان الذي أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل · والهزيمة : إذا كان باذنه فهـو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين ·

والنوع الثـاني : قوله (انا أرسلناك شاهـداً ومبشراً ونذيراً · وداعياً الى الله باذنه) وقوله (ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها · فباذن الله) فان هـذا يتضمن اباحتـه لذلك ، واجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه ·

فقوله (من ذا الذي يشفع عنـده الا باذنه ؟) هو هـذا الاذن الـكائن بقدره وشرعه · ولم يرد بمجرد المشيئة والقـدر · فان السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الاذن ·

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقـاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وان كان قد اباح الشفاعة ·

وأما الـكفر ، والسحر ، وقتـال الـكفار : فهو عندهم بغير اذنه

لا هذا الاذن ولا هذا الاذن . فانه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين . وعندهم : انه لم يشأه ولم يخلقه . بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر يقولون : ان الشفعاء يشفعون بالاذن القدري ، وان لم يأذن لهم اباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر — مثل كثير من النصارى — يقولون : ان شفاعة الشفعاء بغير اذن ، لا قدري ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير اذن قدري .

ومن سأل الله بغير اذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير اذن قدري ولا شرعى .

فالداعي المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم . لكن باباحته .

والداعي غير المأذون له : اذا أجاب دعاءه ، فقد اثر فيه عندهم ، لا بهذا الاذن ولا بهذا الاذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟ »

فان قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون اذن الله الشرعي . وان

كان خالقاً لفعله — كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة ابراهيم لأبيه ، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن ابي بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته . وقوله « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟ » قد قلتم : انه يعم النوعين . فانه لو اراد الاذن القدري : لكان كل شفاعة داخلة في ذلك ، كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون باذنه ، وما لا يكون باذنه . ولو اراد الاذن الشرعي فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفعوا بغير اذن شرعي ؟ .

قيل : المنفى من الشفاعة بلا اذن : هي الشفاعة التامة ، وهي المقبولة ، كما فى قول المصلي « سمع الله لمن حمده » اي استجاب له . وكما فى قوله تعالى (هدى للمتقين) وقوله (انما انت منذر من يخشاها) وقوله (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ونحو ذلك .

فان الهدى ، والانذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم . فاذا تعلم حصل له التعليم المقصود . والا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل (واما ثمود : فهديناهم . فاستحبوا العمى على الهدى) فكذلك الشفاعة .

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع اليه . وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التى لا تكون الا باذنه . واما اذا شفع شفيع فلم تقبل

شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها . كما قال نوح (رب اني اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي بـه عـلم . والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين) وكما نهى الله النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقـين . وقال له (ولا تصل على احـد منهم مات ابداً . ولا تقم على قبره . انهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون) وقال له (سواء عليهم ، استغفرت لهـم ام لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم) . ولهذا قال على لسان المشركين (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) .

فالشفاعة المطلوبة : هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته . وهـذه ليست لأحـد عند الله إلا باذنه ، قـدراً وشرعا . فـلا بد أن يأذن فيها . ولا بد أن يجعل العبد شافعا . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما في الداعي : هو الذي أمره بالدعاء . وهو الذي يجعل الداعي داعياً فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً . كما قال (ألا له الخلق والأمر) .

وقد روي في حديث ـــ ذكره ابن أبي حاتم وغيره ـــ أنه قال « فمن يثق به ، فليدعه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

ولما كان المراد بالشفاعة المثبتة : هي الشفاعة المطلقة ، وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة . فان أحـداً لا يريدهـا ، لا

الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه . ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها . والشفاعة المقبولة : هي النافعة . بين ذلك في مثل قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) فنفى الشفاعة المطلقة وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له . وهو الاذن الشرعي بمعنى : أباح له ذلك . وأجازه . كما قال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وقوله (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) وقوله (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) ونحو ذلك .

وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له . فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد . بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه . قال تعالى (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن . فهو الذي تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره

لأنه لم يقل « لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال (لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له) فهي لاتنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا ، لقيل : لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فزع عن قلوبهم » لم يعد الى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين فى قوله « وما لهم فيهما من شرك . وما له منهم من ظهير » ثم قال « ولا تنفع الشفاعة عنده » ثم بين أن هذا منتف « حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ .

وهو سبحانه اذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الاذن هو الاذن المطلق . بخلاف ما اذا أذن للشافع فقط . فانه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له . إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهـذا يدل علـى أن الشفـاعة لا تنفع إلا المؤمنـين . وكذلـك قال السلف فى هذه الآية .

قال قتادة فى قوله « إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقـام المحمود الذي قال الله تعـالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » إن الله يشفع المؤمنـين بعضهم في بعض .

قال البغوي « إلا من أذن له الرحمـن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أي ورضى قوله . قال ابن عبـاس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوي : فهـذا يدل عـلى أنه لا يشفـع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين في قوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » وقدم طائفة هنـاك : أن المستثنى هو الشافـع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا .

منهم البغوي . فانه لم يذكر هنـا في الاستثناء إلا المشفوع له .

وقال هناك : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » فى الشفاعة، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين فى قوله (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، الا من شهد بالحق) وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » . و « الشفاعة » مصدر شفع شفاعة . والمصدر يضاف الى الفاعل تارة ، والى محل الفعل تارة . ويماثله الذي يسمى لفظه « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبني دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة الى العلم ، وتارة الى المعلوم . فالأول كقوله (ولا يحيطون بشيء من علمه) وقوله (أنزله بعلمه) وقوله (إنما أنزل بعلم الله) ونحو ذلك .

والثاني : كقوله (إن الله عنده علم الساعة) فالساعة هنا : معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون (فما بال القرون الأولى ؟)

قال موسى (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر ، لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فاذا قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة » نفى النوعين : شفاعة الشفعاء والشفاعة للمذنبين . فقوله « إلا من أذن له الرحمن » يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضى له قولا من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولا من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب . وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له (إلا من أذن له الرحمن وقال : صواباً) فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : م الذين يحصل لهم نفع الشفاعة . وهذا موافق لسائر الآيات .

فانه تارة يشترط فى الشفاعة اذنه . كقوله (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله (ولا يملك الذين

يدعون من دونه الشفاعة) ثم قال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال « الا من أذن له الرحمن » والاستثناء مفرغ . فانه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال « لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن » فاذا لم يكن فى الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة الا هذا النوع ، فانهم تنفعهم الشفاعة . ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وان جعل فيه حذف — تقديره : لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن — كان المصدر مضافاً الى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف الى بعضهم ، لكونه شافعاً ، والى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله (ولكن البر من آمن بالله) أي من يؤمن . و (مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق) أى مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أي الذي ينعق به . والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : ايجازه ، دون الاطناب فيه .

وقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة » اذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : ان الشافع تنفعه الشفاعة . وان لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى « ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له » من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الاذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، او ولا تنفع الا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء . فكما أن الاذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم بـه الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم : هو الشفاعة التى يختص بها . وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية الى حذف ، بل يكون معناها :

يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً (الا من أذن له الرحمن وقال صواباً).

ولذلك جاء فى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يا بني عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله من شيء . يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء » .

وفى الصحيح أيضاً « لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق . فيقول: أغثني، أغثني. فأقول : قد أبلغتك . لا أملك لك من الله من شيء » .

فيعلم من هذا : أن قوله « ولا يملكون من دونه الشفاعة » و « لا يملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله فى الآية « لا يملكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم « لا أملك لكم من الله من شيء » وهو كقول ابراهيم لأبيه (وما أملك لك من الله من شيء) .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً

لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن ، وقال صواباً) فان هذا مثل قوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » ففي الموضعين : اشترط اذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضي الله قوله . فان الله إنما يرضى بالصواب .

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة الا باذنه .

والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب الا باذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم — أو أعلم — التابعين بالتفسير .

قال الثوري : اذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفى قوله « لا يملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء. فان أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . اذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه فى قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام مطلق . فان أحداً — ممن يدعى من دونه — لا يملك الشفاعة بحال . ولكن الله اذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله « لا يملكون منه خطاباً » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم . قال ابن عطية : قوله « لا يملكون » الضمير للكفار . أي لا يملكون — من إفضاله وإكماله — أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها. وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى (وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً) وفي حديث التجلي الذي فى الصحيح — لما ذكر مرورهم على الصراط — قال صلى الله عليه وسلم « ولا يتكلم أحد إلا الرسل ، ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم » فهذا في وقت المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟ .

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم ، وكل يقول « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . واني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي ، نفسي » فاذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟ .

وأيضاً فان هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال (إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا) ثم قال (يوم يقوم الروح والملائكة صفا . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن . وقال : صوابا) فقد أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطابا » والعرب تقول : ماأملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً أي لا أقدر من أمره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الانسان من أمر غيره : خطابه ، ولو بالسؤال .

فهم فى ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب . فانه لا يتكلم أحد إلا باذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من

الله من شيء) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » قال : حقاً في الدنيا ، وعملا به . رواه — والذى قبله — عبد بن حميد . وروى عن عكرمة « وقال صوابا » قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله فى سورة طه « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » فاذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة . وهي الشفاعة فى الحسنات وفى دخول الجنة ، كما فى الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يرحنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذه شفاعة في أهل الجنة . ولهذا قيل : إن

هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموما ، وفى أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب . وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . انما قال « وقال صوابا » وقال « ورضى له قولاً » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضي » لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ، لكن نفس القول مرضي ، فقد قال الله (اليه يصعد الكلم الطيب) .

وقد ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما في قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع . ومحل « من » الرفع . والثاني : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان . أحدهما : أنه أراد بـ « الذين يدعون من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال « إلا من شهد بالحق » وهو شهادة أن لا إله الا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم . قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثانى أن المراد بـ « الذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهي كلمة الاخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيرا والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة . فانهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة . وعلى هذا تكون « من » فى محل رفع . وقيل « من » فى محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعنى : أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبى حاتم . روى باسناده المعروف — على شرط الصحيح — عن مجاهد قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزير والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعديا بنفسه وكذلك لفظ (١) .

وعلى هذا فيكون منصوبا ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي .

(١) بياض بالاصل .

فان الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال: شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و « شفــع » أي صار شفيعاً للطالب . أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » أن الله ربهم .

وروى باسناده عن قتــادة « إلا من شهد بالحـــق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير . أي انهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعــة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله . فانــه لم يقل : ولا يشفع أحد . ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة باذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله ؛

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم لم يعبــد كما عبــد المسيح. وهو ــــ مع هذا ــــ له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلا ، فان معنى كلامــه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهــد بالحق وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه . وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

وأيضاً فقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل فى ذلك الأصنام . فانهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا .

قال تعــالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضــرهم ولا ينفعهــم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا فى الأرض ؟) .

فاذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبيــاء ، كان فى هــذا اطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا ممــا يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فانه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان فى هذا إثبات شفاعـــة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا

صالحين . والقرآن كله يبطل هـذا المعنى . ولهذا قال تعـالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعـد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعـالى (وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً سبحانه . بل عبـاد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول . وهم بأمره يعملون . يعـلم مابين أيديهم وما خلفهم . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب . فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لايؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فان في القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقاً . فان قوله « من دونه » إما أن يكون متصلا بقوله « يملـكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعـة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونـه ان يشفعوا . وهـذا أظهر . لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونـه الشفاعـة » فأخر « الشفاعة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير فى القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) وقوله (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك) .

بخلاف ما إذا قيـل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونـه .

فان هذا لا نظير له في القرآن . واللفظ المستعمل فى مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا باذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك. لا يقال فى هذا المعنى « من دونه » فان الشفاعة هي من عنده . فكيف تكون من دونه ؛ لكن قد تكون باذنه ، وقد تكون بغير إذنه ..

وأيضاً ، فاذا قيل « الذين يدعون » مطلقاً . دخل فيه الرب تعالى . فانهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره . ولهذا قال (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) .

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه وهذا أجود من الذي قبله . لكن يرد عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفها : « أن الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها . بل قال « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفى ملكهم الشفاعة » مطلقاً . وهذا هو الصواب . وان كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة . فان المالك للشيء : هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته . والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا باذنه . فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال فى هذا « إلا باذنه » إنما يقال ذلك فى الفعل. فيقال (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه ؟) .

وأما فى الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالـكا لها . فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال . ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالـكا لهـا . بـل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً وربا . وهذا كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملـكون مثقال ذرة فى السموات ولا في الأرض . ومالهم فيهما من شرك . وما له منهم من ظهـير) فنفى الملك مطلقاً . ثم قال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن اذن له) فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت أن مخـلوقا يملك الشفاعة . بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له في الملك قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان عـلى عبده ليـكون للعالمين نـذيراً . الذي لـه ملك السموات والارض . ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك فى الملك . وخلق كل شيء فقدره تقديراً) .

ولهذا ــ لما نفى الشفعاء من دونه ــ نفـاهم نفياً مطلقاً بغـير استثناء . وإنما يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونـه . كما قال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) وكما قال تعالى (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت . ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) وكما قال تعالى (ما لـكم من دونه من ولي ولا شفيع) فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقـاً . وإذا ذكر « باذنـه » لم يقل « من دونـه » كقوله (من

ذا الذي يشفع عنـــده إلا باذنـه ؟) وقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) .

فمن تدبر القرآن : تبين له أنــه كما قال تعـالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً ، مثانى) يشبه بعضه بعضاً . ويصدق بعضه بعضا. ليس بمختلف ولا بمتناقض (ولو كان من عنـد غير الله : لوجدوا فيـه اختلافا كثيراً) .

وهو « مثانى » يثني الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة . وهي « المتشابه » وإما مماثــلة . وهي : الأصناف والأقسام والأنواع . وهي « المثانى » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غـير اقتصار عـلى اثنين فقط . كما فى قوله تعالى (ارجع البصر كرتين) يراد به : مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا . وان كان قد قال مرات ، كقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه « جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لي . رب اغفر لي » لم يرد : أن هـذا قال مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، ويردده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضي الله عنه فى الحديث الصحيح الذي رواه مسلم « إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم. سبحان ربي العظيم » وذكر أنه « سجد نحواً من قيامه ، يقول فى سجوده : رب اغفر لي . رب اغفر لي » .

وقد صرح فى الحديث الصحيح « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فانه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى » .

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين . فان « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد في كل خطاب .

ف « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « المثاني » فى الأنواع . وتكون التثنية فى المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثنى فى القرآن لفوائد أخر .

فـ « المثانى » تعم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هي « السبع المثانى » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة . ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون فى المعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فاذا لم يملكوها ، هل يشفعون في أحد ؟ فقال : نعم « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا . وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : « إن الرجل يسأل فى قبره ؟ « ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري . سمعت

الناس يقولون شيئاً فقلته » فلهذا قال « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعني من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصا من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون فى أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت فى صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة . لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال « لا إله إلا الله » خالصا من قبل نفسه » .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم (شهد الله أنه لا إله الا

هو . والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

فاذا شهدوا — وهم يعلمون — كانوا من أهل الشفاعة، شافعين، ومشفوعا لهم .

فان المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم فى بعض ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة . كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :— في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة — « حتى إذا خلص المؤمنون من النار . فوالذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين فى النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحرم صورهم على النار — وذكر تمام الحديث » .

وسبب نزول الآية — على ما ذكروه — مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى : سبب نزولها : أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا « إن كان ما يقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة . فهم أحق بالشفاعة من محمد . فنزلت هذه الآية قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذي يوجب أن يشفعوا لكم . فان أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن «من شهد بالحق وهم يعلمون» فان الله يشفع فيه .

فالذي تنال به الشفاعة : هى الشهادة بالحق . وهي شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولى غير الله ؛ لا الملائكة ، ولا الأنبياء ولا الصالحين .

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فان الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحدا من دون الله فهو مشرك ..

فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ــ ليشفعوا لهم ــ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم : به حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم . لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التى

فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظـن ذلك المشركون الأولون . وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الاسلام . الذين يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونـــه . فلا يملـكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته . ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة فبين الله أنهم لا يملـكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهـم لا يملـكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيـه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ثم قال « اولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » فبين أن هؤلاء المزعومين ، الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين وقد قال تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) .

وللناس فى الشفاعة أنواع من الضـــلال ، قد بسطت في غـــير هذا الموضع .

فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك ابو حامد الغزالى وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط . بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحدا — من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه — كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة : سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له فكل من كان أعظم اخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فان الشفاعة : من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها فلا يشفع أحد إلا باذنه . وهو الذي يأذن للشافع . وهو الذي يقبل شفاعته فى المشفوع له .

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والاخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون ــ الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم، فخفت موازينهم فاستحقوا النار ــ : من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فان النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النــار إلا موضــع السجود . ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله : على تحقيق كلمة الاخلاص، وهي « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعــد . أهل الثنــاء والمجد . أحق ما قال العبد ــــ وكلنا لك عبد ــــ : لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول « اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطــايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخــدري رضي الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم ــــ إذا رفع رأسه

من الركوع ــ قال : اللهم ربنــا لك الحمد ، ملء السموات ، ومــلء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبـد الله بن أبي أوفى رضي الله عنــه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ إذا رفع رأسه من الركوع ــ قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعـــد . اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم فى صحيحه أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم لك الحمد » وقال « وملء الأرض ، وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قــد يراد بها : العلو والسفل مطلقاً . فيدخل فى ذلك الهواء وغيره . فانه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقـد يجعل من السماء . كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال فى القرآن (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش)

ولم يقل « وما بينهما » كما يقول (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) .

فتارة يذكر قوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام . وتارة لا يذكره . وهو مراد . فان ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل في لفظ « السموات والأرض » ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم تارة يقول « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ما شئت من شيء بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فان ربنا غفور شكور . فالحمد بازاء النعمة . والاستغفار : بازاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

ففي سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي » وفى حديث أبي سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما في

أم القرآن . فأولها تحميد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها : دعاء . وكما في قوله (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

وفى حديث الموطأ « أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير . من قالها : كتب الله له الف حسنة . وحط عنه ألف سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد ، بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه . ومن قال فى يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر » .

وفضائل هذه الكلمات فى أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، فى مواضع مثل حديث كفارة المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ،

والتوحيد ، والاستغفار . من قالها فى مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفى حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

فنى الحديث الصحيح فى مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية . يدخل من أيها شاء » وفى حديث آخر أنه يقول « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، فى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي . انك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسي فارحمني . فأنت خير الراحمين . لا إله الا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب علي . انك انت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله . فانه لا يأتي بالحسنات الا هو .

والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد ، والاستغفار فى غير موضع كقوله (فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفى قوله (أن لا تعبدوا الا الله . انى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) وفى قوله (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد . فاستقيموا إليه ، واستغفروه) .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

و « لا إله إلا الله » تقتضي الاخلاص والتوكل . والاخلاص : [يقتضي] الشكر . فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الايمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « الايمان بضع

وستون ـــ أو بضع وسبعون ـــ شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » .

ف « لا إله إلا الله » هي قطب رحى الايمان ، وإليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) وهي معنى « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » فى معناها ، و « سبحان الله والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصـــــل

وقــد ظن بعض المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أي أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الانـكار ، ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهــذا القول يباين معنى الآية . فان الآية بينت أن السيئات من نفس الانسان . أي بذنوبه . وهــؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفســه .

ومن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فانه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

قلت : وإضمار الاستفهام — إذا دل عليه الكلام — لا يقتضى جواز إضماره فى الخبر المخصوص من غير دلالة . فان هذا يناقض المقصود . ويستلزم ان كل من اراد ان ينفي ما اخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر فى خبره استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام « هذا ربي » أهذا ربي ؟

قال ابن الانباري : هذا القول شاذ . لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الاخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله (أفان مت فهم الخالدون ؟) .

وهذا لا حجة فيه . لأنه قد تقدم الأستفهام فى أول الجملة ، فى الجملة الشرطية (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فلم يحتج إلى ذكره ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله (أفان مات او قتل

انقلبتم على اعقابكم ؟) وقوله (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ؟) وقوله (او كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟) وهذا من فصيح الكلام وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري ، وإن كنت دارياً

بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط

غلس الظلام من الرباب خيالا ؟

تقديره : أ كذبتك عينك ؟ .

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول . وأما الثانى : فان كانت « أم » هي المتصلة ، فكذلك . وإن كانت هي المنفصلة . فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها فى وجود السيئات .

وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : ان المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها . لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

والقرآن يبين فى غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه الا بذنب . فقال هنا (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) وقال لهم فى شأن احد (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم) وقال تعالى (وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير) وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) وقال تعالى (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟) وقال تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين) وقال تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا . وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) وقال تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا . لعلهم يرجعون) وقال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لعلهم يرجعون) وقال تعالى (أو يوبقهن بما كسبوا . ويعف عن كثير) وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك

العذاب (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله . ولكن أنفسهم يظلمون) وقال تعالى عن اهل سبأ (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم — الى قوله — ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازي إلا الكفور ؟) وقال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد) وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)

وفى الحديث الصحيح الالهي « ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم اوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومن إلا نفسه » .

وفى سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى (وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه

فصـــــل

قال الله تعالى : (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلا) فنفى ان يكون دين احسن من هذا الدين ، وانكر على من اثبت ديناً احسن منه ؛ لأن هذا استفهام انكار ، وهو انكار نهي وذم لمن جعل ديناً أحسن من هذا .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : ان المسلمين واهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله تعالى منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التى كانت قبله ، فأنزل الله تعالى : (ليس بامانيكم ولا أمانى اهل الكتاب) الآية .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق ، قال : لما نزلت هذه الآية : (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوء يجزبه) قال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء ، حتى نزلت (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية . ونزلت فيهم أيضاً (ومن أحسن ديناً) الآية .

وقد روى عن مجاهد قال قالت قريش : لا نبعث اولا نحاسب وقال أهل الكتاب : (لن تمسنا النار الا أياماً معدودة) فأنزل الله عز وجل : (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) وهذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأميين وأهل الكتاب ؛ لاعتقادهم انهم لا يعذبون العذاب الدائم ، والأول أشهر في النقل واظهر فى الدليل ؛ لأن السورة مدنية بالاتفاق ، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية .

وأيضاً : فانه قد استفاض من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى : (من يعمل سوء يجزبه) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ان مصائب الدنيا من الجزاء ، وبها يجزي المؤمن ؛ فعلم انهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار .

وأيضاً قوله بعد هذا : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو

انثى وهو مؤمن) الآية . وقوله : (ومن أحسن ديناً) يدل على ان هناك تنازعا في تفضيل الأديان ، لا مجرد انكار عقوبة بعد الموت .

وأيضاً : فما قبلها وما بعدها خطاب مع المؤمنين وجواب لهم ، فكان المخاطب فى هذه الآية هو المخاطب فى بقية الآيات .

فان قيل : الآية نص فى نفي دين أحسن من دين هذا المسلم ، لكن من أين انه ليس دين مثله ؟ فان الاقسام ثلاثة : اما ان يكون ثم دين أحسن منه . أو دونه ، أو مثله ، وقد ثبت أنه لا أحسن منه فمن أين فى الآية أنه لا دين مثله ؟ ونظيرها قوله : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال انني من المسلمين)

قيل : لو قلنا فى هذا المقام : إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا ؛ فان الخطاب له مقامات ، قد يكون الخطاب تارة باثبات صلاح الدين ، إذا كان المخاطب يدعى أو يظن فساده ، ثم في مقام بأن يقع النزاع فى التفاضل ، فيبين ان غيره ليس أفضل منه . ثم فى مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره . وهكذا إذا تكلمنا فى أمر الرسول ، ففي مقام نبين صدقه وصحة رسالته . وفى مقام بأن نبين أن غيره ليس أفضل منه ، وفى مقام ثالث نبين أنه سيد ولد

آدم ؛ وذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب .

ثم نقول : يدل على أن هذا الدين أحسن وجوه :

« أحدها » ان هذه الصيغة وان كانت فى أصل اللغة لنفي الأفضل لدخول النفي على أفعل ، فانه كثيراً ما يضمر بعرف الخطاب ، يفضل — المذكور المجرور بمن مفضلا عليه في الاثبات ، فانك إذا قلت : هذا الدين أحسن من هذا كان المجرور بمن مفضلا عليه ، والأول مفضلا ، فاذا قلت لا أحسن من هذا ، أومن أحسن من هذا ؟أو ليس فيهم أفضل من هذا ، أو ما عندي أعلم من زيد ، أو ما فى القوم أصدق من عمرو ، أو ما فيهم خير منه ، فان هذا التأليف يدل على أنه أفضلهم وأعلمهم وخيرهم ؛ بل قد صارت حقيقة عرفية فى نفي فضل الداخل في أفعل ، وتفضيل المجرور على الباقين ، وانها تقتضي نفي فضلهم واثبات فضله عليهم ، وضمنت معنى الاستثناء ، كأنك قلت : ما فيهم أفضل إلا هذا ، أو مافيهم المفضل الا هذا ، كما أن [إن] إذا كفت بما النافية صارت متضمنة للنفي والاثبات .

وكذلك الاستثناء ؛ وان كان فى الأصل للاخراج من الحكم ، فانه صار حقيقة عرفية فى مناقضة المستثنى منه ، فالاستثناء من النفي اثبات ،

ومن الاثبات نفي ، واللفظ يصير بالاستعمال له معنى غـير ما كان يقتضيه أصل الوضع .

وكذلك يكون في الاسماء المفردة تارة ، ويكون في تركيب الكلام أخرى ، ويكون فى الجمل المنقولة كالأمثال السائرة جمـلة ، فيتغير الاسم المفرد بعرف الاستعمال عما كان عليـه فى الأصل ، إما بالتعميـم واما بالتخصيص واما بالتحويل ؛ كلفظ الدابة والغائط والرأس . ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره ، كما فى زيادة حرف النفي فى الجمل السلبية ، وزيادة النفي فى كاد ، وبنقل الجملة عن معناها الأصـلي إلى غـيره كالجمل المتمثل بها ، كما فى قولهم : « يداك أو كتـا وفوك نفخ » و « عسى الغوير بؤساً » .

« الوجه الثاني » أنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير اما أن يكون مثله أو دونه ، ولا يجوز أن يكون مثـله ؛ لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه فى جميع الوجوه كان هو اياه ، وان تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفـين ، فان اختلافهما يمنع تماثلهما ؛ اذ الاختلاف ضد التماثل ، فـكيف يكونان مختلفين متماثلين ؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع ؛ فان أحـد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب ، والآخر يقول إنها باطل محرم . فمن المحال استواء هذين الاعتقادين .

وكذلك الاقتصادان ، فان هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه ، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم ؛ فان دينهم واحد ، كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر ، ويعبده بالدين الذي يعبده ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا ؛ بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لابد أن يكون أحدهما أحسن عند اللهفان هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل ، فذاك الصواب هو أحسن عند الله ، وان كان احدهما يقر الآخر . فالاقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولا مرجوحا ، وانما يمنع أن يكون محرما .

وإذا كان هذا فى دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول؟ فانه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء ان المصيب فى نفس الأمر واحد ، وإنما تنازعوا فى المخطىء هل يغفر له أولا يغفر ، وهل يكون مصيباً بمعنى أداء الواجب ؟ وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد ؟ فان هذا لا يقوله عاقل : أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صوابا .

فتلخيص الأمر أن هذا المقام انما فيه تفضيل قول وعمل على قول وعمل . فالأقوال والأعمال المختلفة لابد فيها من تفضيل بعضها على بعض

عند جمهور الأمة ؛ بل ومن قال بأن كل مجتهد مصيب قـد لا ينازع ان احدهما أحسن وأصوب ، ولا يدعى تماثلهماَ . وان ادعاه فـلم يدعه إلا فى دق الفروع ، مـع أن قوله ضعيف مخالف للـكتاب والسنـة واجماع السلف .

واما الحل فـلم يدع مدع تساوي الاقسام فيه ، وهذا بخـلاف التنوع المحض ، مثل قراءة سورة وقراءة سورة أخرى ، وصدقـة بنوع وصدقـة بنوع آخر . فان هـذا قد يتماثل ؛ لأن الدين واحـد في ذلك من كل وجه ، وانمـا كلامنا فى الأديان المختلفـة ، وليس هنا خلاف بحال .

وإذا ثبت ان الدينين المختلفين لايمكن تماثلهما لم يحتج الى نفي هذا فى اللفظ لانتفائه بالعقل . وكذلك لما سمعوا قوله : (ولا تكن كصاحب الحوت) كان فى هذا ما يخاف انتقاصهم اياه .

هذا مع ان نصوص الكتاب والسنة واجماع الأمـة شاهدة بتفضيل النبيين على بعض ، وبعض الرسـل على بعض ، قاضيـة لأولى العزم بالرجحان ، شاهدة بأن محمداً صلى الله عليه وسـلم سيد ولد آدم ، وأكرم الخلق على ربه ؛ لكن تفضيل الدين الحق أمر لابد من اعتقاده ؛ ولهذا ذكره الله فى الآية .

واما تفضيل الاشخاص فقد لا يحتاج اليه فى كل وقت ، فالدين الواجب لا بد من تفضيله ؛ اذ الفضل يدخل فى الوجوب ، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى .

واما الدين المستحب : فقد لا يشرع اعتقاد فعله الا فى حق من شرع له فعل ذلك المستحب ، والا فمن الناس من يضره اذا سلك سبيلا من سبل السلام الاسلامية ان يرى غيره أفضل منها ؛ لأنه يتشوف الى الأفضل فلا يقدر عليه ، والمفضول يعرض عنه .

وكما أنه ليس من مصلحته ان يعرف أفضل من طريقته اذا كان يترك طريقته ، ولا يسلك تلك ، فليس أيضا من الحق أن يعتقد أن طريقته افضل من غيرها ؛ بل مصلحته ان يسلك تلك الطريقة المفضية به الى رحمة الله تعالى ، فان بعض المتفقهة يدعون الرجل الى ماهو أفضل من طريقته عندهم ، وقد يكونون مخطئين فلا سلك الأول ولا الثاني ، وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض ، وطريقته أفضل الطرق . وكلاهما انحراف : بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه ، ولا ينقل من طاعة الله ورسوله بطريقته ، وان كان فيها نوع نقص أو خطأ ، ولا يبين له نقصها إلا إذا نقل الى ماهو أفضل منها ، والا فقد ينفر قلبه عن الأولى بالكلية حتى يترك الحق الذي لا يجوز تركه ، ولا يتمسك بشيء آخر .

وهـذا باب واسـع ليس الغرض هنا استقصاؤه ، وهو مبني عـلى أربعة أصول :

« أحدها » معرفة مراتب الحق والباطل ، والحسنات والسيئات ، والخير والشر ؛ ليعرف خير الخيرين وشر الشرين .

« الثاني » معرفة ما يجب من ذلك ومالا يجب ، وما يستحب من ذلك ومالا يستحب .

« الثالث » معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الامكان والعجز ، وان الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطاً بامكان العلم والقدرة .

« الرابع » معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم ؛ ليؤمر كل شخص بما يصلحه ، أو بما هو الاصلح له من طاعة الله ورسوله ، وينهي عما ينفع نهيه عنه ، ولا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شر من المنهى عنه مع الاستغناء عنه .

وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية — من أن دين من أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم ، هو أحسن الأديان ، أمر متفق عليه بين المسلمين — معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ؛

بـل من يتبع غـير الاسلام دينـا فلن يقبل منـه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيـه . ومبين وجه الحكم ؛ فانه بين بهذه الآية وجه التفضيل بقوله : (أسلم وجهه لله) وبقوله : (وهو محسن) فان الأول بيان نيتـه وقصده ، ومعبوده وإلهـه ، وقوله : (وهو محسن) فانتفـى بالنص نفي ما هو أحسن منه ، وبالعقل ما هو مثله ، فثبت أنه أحسن الأديان .

« الوجه الثالث » ان النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل ؟ فلم يقل لهما : ان الدينين سواء ، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما ؛ لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل مـن تفضيل أحد الدينين ؛ فان الانسان اذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك الى الكبر والخيلاء والفخر ؛ فقيل للجميع : (مـن يعمل سوء يجزبه) سواء كان دينه فاضلا او مفضولا ؛ فان النهي عـن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة [قال تعـالى] (والذاريات ذرواً) الى قوله : (لواقع) .

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون عـلى السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي صلى الله عليـه وسـلم ان الجزاء قد يكون

فى الدنيا بالمصائب ، بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او أنثى) الآية . فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الايمان ، وان كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا ايمان ، فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات ، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة الا مع الايمان ، ثم بين بعد هذا فضل الدين الاسلامي الحنفي بقوله : (ومن أحسن ديناً) فجاء الكلام فى غاية الاحكام .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نهى النبي صلى الله عليه وسلم ان يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول والغض منه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلوا بين الأنبياء » وقال : « لا تفضلوني على موسى » بيان لفضله ، وبهذين يتم الدين .

فاذا كان الله هو المعبود وصاحبه قد أخلص له وانقاد ، وعمله فعل الحسنات ، فالعقل يعلم انه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا ؛ بخلاف دين من عند غير الله وأسلم وجهه له ، أو زعم انه يعبد الله لا باسلام وجهه ؛ بل يتكبر كاليهود ، ويشرك كالنصارى ، أو لم يكن محسناً بل فاعلا للسيئات دون الحسنات ، وهذا الحكم

عـدل محض ، وقيـاس وقسط ، دل القـرآن العقـلاء على وجه البرهان فيه .

وهكذا غالب ما بينه القرآن فانه يبين الحق والصدق ، ويذكر أدلته وبراهينه ؛ ليس يبينه بمجرد الاخبار عـن الأمر ، كما قد يتوهمـه كثير من المتـكلمة والمتفلسفة ، ان دلالته سمعية خبرية ، وأنهـا واجبة لصدق المخبر ؛ بل دلالته أيضاً عقلية برهانية ، وهو مشتمل مـن الأدلة والبراهين على أحسنها وأتمها بأحسن بيان ، لمن كان له فهـم وعقل ؛ بحيث اذا أخذ ما فى القرآن من ذلك ، وبين لمن لم يعـلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول ، أو يظن فيه [ظنا] مجرداً عن ما يجب من قبول قول المخبر ، كان فيه ما يبين صدقـه وحقه ، ويبرهن عن صحته .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

فصـــــل

في قوله تعالى : (ولا تجادل عن الذين يختـانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) فقوله : (يختانون أنفسهم) مثل قوله فى سورة البقرة (علم الله أنـكم كنتم تختانون أنفسكم) قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين : معناه تخونون أنفسكم . زاد بعضهم : تظلمونها . فجعلوا الأنفس مفعول (تختانون) وجعلوا الانسان قد خان نفسه أي ظلمها بالسرقة كما فعـل ابن أبيرق ـــ أو بجماع امرأته ليـلة الصيام كما فعل بعض الصحابة ـــ وهـذا القول فيه نظر ؛ فان كـل ذنب يذنبه الانسان فقد ظلم فيه نفسه ، سواء فعله سراً أو علانية .

واذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتـكاب ما حرم عليها كان كل مذنب مختانـاً لنفسه ، وان جهر بالذنوب ، وكان كفر الـكافرين

وقتالهم للأنبيــاء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهــم ، وكذلك قطــع الطريق والمحاربة ، وكذلك الظلم الظاهر ، وكان ما فعله قوم نوح وهود ، وصالح وشعيب اختياناً لأنفسهم .

ومعلوم أن هــذا اللفظ لم يستعمل في هــذه المعاني كلها ، وإنمــا استعمل في خاص من الذنوب مما يفعل سراً ، وحتى قال ابن عباس في قوله : (تختانون أنفسكم) : عنى بذلك فعل عمر ، فانه روى أنــه لما جاء الأنصاري فشكى أنه بات تلك الليلة ولم يتعش لما نام قبــل العشاء ، وكان من نام قبل الأكل حرم عليه الأكل ، فيستمر صائماً ، فأصبح يتقلب ظهراً لبطن ، فلما شكا حاله الى النبي صلى الله عليــه وســلم قال عمر : يا رسول الله انى أردت أهلي الليلة فقالت انها قد نامت فظننتها لم تنم فواقعتهــا ، فأخــبرتنى أنها كانت قد نامت ، قالوا : فأنزل الله في عمر : (أحل لـكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) .

وقد قيل : إن الجماع ليلة الصيام كانوا منهيين عنه مطلقاً ، بخلاف الأكل ، فانه كان مباحاً قبل النوم . وقد روى أن عمر جامع امرأته بعد العشاء قبل النوم ، وأنه لما فعل أخذ يلوم نفسه ، فأتى النبي صلى الله عليــه وسلم فقال : يا رسول الله ! أعتذر الى الله مــن نفسي هذه الخائنة ، إني رجعت الى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما كنت

جديراً بذلك يا عمر » وجاء طائفة من الصحابة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية .

فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك ، ودعته إليه ، وأنه أخذ يلومها بعد الفعل ، فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة ، والانسان تدعوه نفسه فى السر إذا لم يره أحد الى أفعال لا تدعو إليها علانية ، وعقله ينهاه عن تلك الأفعال ، ونفسه تغلبه عليها .

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل الا فيما خفي عن المخون ، كالذي يخون أمانته فيخون من ائتمنه اذا كان لا يشاهده ، ولو شاهده لما خانه . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم ، وأنتم تعلمون) وقال تعالى : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم) وقالت امرأة العزيز : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) وقال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما قام : « أما فيكم رجل يقوم الى هذا فيضرب عنقه ؟ » فقال له رجل : هلا أو مضت إلي ؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » قال تعالى : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ،

يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ؛ اذ يبيتون ما لا يرضى من القول) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، وأذا اؤتمن خان » وفى حديث آخر « على كل خلق يطبع المؤمن الا الخيانة والكذب » ومثل هذا كثير .

واذا كان كذلك فالانسان كيف يخون نفسه . وهو لا يكتمها ما يقوله ويفعله سراً عنها ؟ كما يخون من لا يشهده من الناس ؟ كما يخون الله والرسول اذا لم يشاهده ، فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب ، ولم خصت هذه الأفعال بأنها خيانة للنفس دون غيرها ؟ فالأشبه — والله أعلم — أن يكون قوله : (تختانون أنفسكم) مثل قوله : (إلا من سفه نفسه) .

والبصريون يقولون فى مثل هذا : انه منصوب على أنه مفعول له ، ويخرجون قوله : (سفه) عن معناه فى اللغة ، فانه فعل لازم ؛ فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم الى التعدية بلا حجة .

وأما الكوفيون — كالفراء وغيره ومن تبعهم — فعندهم أن هذا منصوب على التميز ، وعندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة ، وذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام العرب ، مثل قولهم : ألم فلان

رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل سفهت نفسه ، ورشد أمره . ومنه قولهم : غبن رأيه ، وبطرت نفسه ، فقوله تعالى : (بطرت معيشتها) من هذا الباب ، فالمعيشة نفسها بطرت ، فلما كان الفعل (١) نصبه على التمييز قال تعالى : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس) فقوله : (سفه نفسه) معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة ، فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز كما فى قوله : (واشتعل الرأس شيباً) ونحو ذلك . وهذا اختيار ابن قتيبة وغيره ؛ لكن ذاك نكرة وهذا معرفة

وهذا الذي قاله الكوفيون أصح فى اللغة والمعنى ؛ فان الانسان هو السفيه نفسه ، كما قال تعالى : (سيقول السفهاء من الناس) (ولا تؤتوا السفهاء) فكذلك قوله : (تختانون أنفسكم) أي تختان أنفسكم ، فالأنفس هي التى اختانت ، كما انها هي السفيهة . وقال : اختانت ولم يقل خانت ؛ لأن الافتعال فيه زيادة فعل على ما فى مجرد الخيانة ، قال عكرمة : والمراد بالذين يختانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام والقماش ، وجعل هو وقومه يقولون : إنما سرق فلان لرجل آخر .

---

(١) بياض بالاصل .

فهؤلاء اجتهدوا في كتمان سرقة السارق ورمي غيره بالسرقة ، كما قال تعالى : (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ؛ إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) فكانوا خائنين للصاحب والرسول وقد اكتسبوا الخيانة .

وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل وهم يجتهدون في ان ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه ، وإن أظهروه فيما بعد عند التوبة ، أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك وإخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله : (تختانون أنفسكم) اي يخون بعضكم بعضاً ، كقوله : (فاقتلوا أنفسكم) وقوله : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) وقوله : (ولو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) فان السارق وأقواماً خانوا اخوانهم المؤمنين .

والمجامع إن كان جامع امرأته وهي لا تعلم انه حرام فقد خانها ، والأول أشبه . والصيام مبناه على الأمانة ، فان الصائم يمكنه الفطر ولا يدري به أحد ، فاذا افطر سراً فقد خان أمانته ، والفطر بالجماع المستور خيانة ، كما أن أخذ المال سراً واخبار الرسول والمظلوم ببراءة السقيم وسقم البريء خيانة ، فهذا كله خيانة ، والنفس هي التى خانت ؛ فانها تحب الشهوة والمال والرئاسة ، وخان واختان مثل كسب واكتسب فجعل الانسان مختاناً .

ثم بين أن نفسه هي التى تختان ، كما أنها هي الـتى تضر ؛ لأن مبدأ ذلك من شهوتها ، ليس هو مما يأمر به العقل والرأي ، ومبدأ السفه منها لخفتها وطيشها والانسان تأمره نفسه فى السر بأمور ينهاها عنه العقل والدين فتكون نفسه اختانته وغلبته ، وهـذا يوجد كثيراً فى أمر الجماع والمال ؛ ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس ، ويقصـد بالائتمان من لا تدعوه نفسه الى الخيانة فى ذلك . قال سعيد بن المسيب : لو ائتمنت على بيت مال لأديت الأمانة ، ولو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها . وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحـاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجـل ابتداء لا يقصد الخيانة ، فتحمله على الخيانة بغير أمره ، وتغلبه على رأيه ولهذا يلوم المرء نفسه على ذلك ويذمها ، ويقول هـذه النفس الفاعـلة الصانعة ؛ فانها هي التى اختانت .

فصـــــل

ودل قوله : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) انه لا يجوز الجدال عن الخائن ، ولا يجوز للانسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت

خائنة : لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها ، قال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقال تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) وقال تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقد قال تعالى : (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) فانه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها ، وهو يبصرها بخلاف ذلك ، وقال تعالى : (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) وقال تعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » فهو يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد : أي ميل واعوجاج عن الحق ، وهذا على نوعين : أحدهما أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس ، و « الثاني » فيما بينه وبين ربه ، بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسناً ، وهي خائنة ظالمة ، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر ، قال شداد بن أوس إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية ، قال أبو داود : هي حب الرياسة .

وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ،

استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين اشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

وقد جاءت الأحاديث بأن الانسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ، ولا أبصاركم ، ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والأيمان الفاجرة ، وصفهم الله بذلك في غير موضع . وفي قصة تبوك لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وجاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، فلما جاء كعب قال : والله يارسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه : إني أوتيت جدلاً ؛ ولكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

أما هذا فقد صدق . يعني والباقي يكذبون ثم إنه هجره مدة ، ثم تاب الله عليه ببركة صدقه .

فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز ؛ بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه فانه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحا تاب فى الباطن من القبيح ، فمن أساء سراً أحسن سراً ، ومن أساء علانية أحسن علانية ، (فان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) .

سورة المائدة

وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه

فصل

سورة المائدة اجمع سورة فى القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم ، والأمر والنهي ؛ ولهذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : هي آخر القرآن نزولاً فاحلوا حلالها وحرموا حرامها ؛ ولهذا افتتحت بقوله : (أوفوا بالعقود) والعقود هي العهود ، وذكر فيها من التحليل والتحريم والايجاب مالم يذكر فى غيرها ، والآيات فيها متناسبة مثل قوله : (ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ماأحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

وقد اشتهر فى التفسير أن هذه الآية نزلت بسبب الذين أرادوا

التبتل من الصحابة ، مثل عثمان بن مظعون والذين اجتمعوا معه . وفى الصحيحين حديث أنس فى الأربعة الذين قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام . وقال: الآخر اما أنا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكني أصوم وأفطر ، وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » فيشبه والله اعلم أن يكون قوله : (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) فيمن حرم الحلال على نفسه بقول او عزم على تركه ، مثل الذي قال : لا أتزوج النساء ولا آكل اللحم . وهي الرهبانية المبتدعة ، فان الراهب لا ينكح ولا يذبح .

وقوله : (لا تعتدوا) فيمن قال : أقوم لا أنام ، وقال أصوم لا أفطر ؛ لأن الاعتداء مجاوزة الحد ، فهذا مجاوز للحد في العبادة المشروعة ، كالعدوان في الدعاء فى قوله : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور ، فالاعتداء فى « العبادات ، وفى الورع » كالذين تحرجوا من أشياء ترخص فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى « الزهد » كالذين حرموا الطيبات وهذان القسمان ترك ، فقوله : (ولا تعتدوا) إما أن يكون مختصاً بجانب الأفعال العبادية ، وإما أن

يكون العدوان يشمل العدوان فى العبادة والتحريم ، وهـذان النوعان هما اللذان ذم الله المشركين بهما فى غـير موضع ، حيث عبدوا عبادة لم يأذن الله بها ، وحرموا مالم يأذن الله به ، فقوله : (لا تحرموا) (ولا تعتدوا) يتناول القسمين .

والعدوان هنا كالعدوان فى قوله : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) اما ان يكون اعم من الاثم ، واما ان يكون نوعا آخر ، وامـا ان يكون العدوان فى مجاوزة حدود المأمورات واجبها ومستحبها ، ومجاوزة حد المباح ، وإما أن يكون فى ذلك مجاوزة حد التحريم أيضاً ، فانها ثلاثة أمور : مأمور به ومنهى عنه ومباح .

ثم ذكر بعد هذا قوله : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته) الآية ، ذكر هذا بعد النهي عن التحريم ، ليبين المخرج من تحريم الحلال إذا عقد عليـه يميناً بالله أو يميناً أخرى ، وبهذا يستدل على أن تحريم الحلال يمين .

ثم ذكر بعد ذلك ما حرمه من الخمر والميسر ، والأنصاب والازلام فبين به ما حرمه ، فان نفي التحريم الشرعي يقع فيه طائفة من الاباحية كما يقع فى تحريم الحـلال طائفـة من هؤلاء يكونون فى حال اجتهادهم ورياضتهم ، تحريمية ، ثم إذا وصلوا بزعمهم صاروا إباحيـة ، وهاتان

آفتان تقع فى المتعبدة والمتصوفة كثيراً ، وقرن بينهما حكم الأيمـان فان كلاهما يتعلق بالفم داخلا وخارجا ، كما يقرن الفقهـاء بين كتاب الأيمـان والاطعمة ، وفيه رخصة فى كفارة الأيمان مطلقاً ، خلافا لمـا شدد فيه طائفة من الفقهاء ، من جعل بعض الأيمان لا كفارة فيها ، فان هـذا التشديد مضاه للتحريم ، فيكون الرجـل ممنوعا من فعـل الواجب أو المباح بذلك التشديد ، وهذا كله رحمة من الله بنا دون غيرنا من الأمم التى حرم عليهم أشياء عقوبة لهم ولا كفارة في أيمانهم ، ولم يطهرهم من الرجس كما طهرنا ، فتدبر هذا فانه نافع .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــــل

قوله : (سماعون للـكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) قيل : اللام لام كي ، اي يسمعون ليـكذبوا ويسمعون لينقـــلوا إلى قـــوم آخرين لم يأتوك ، فيكونون كذابين ونمامين جواسيس ، والصواب انها لام التعدية ، مثل قوله : « سمع الله لمن حمـده » فالسماع مضمن معنى لقبـــول اي قابلون للـكذب ويسمعون من قـــوم آخرين لم يأتوك ويطيعونهم ، فيكون ذما لهم على قبول الخبر الـكاذب ، وعلى طاعة غيره من الكفار والمنافقين ، مثل قوله : (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) اي هم يطلبون ان يفتنوكم وفيكم من يسمع منهم ، فيكون قد ذمهم على اتبـاع الباطل فى نوعي الـكلام خبره وانشائه ، فان باطـــل الخبر الكذب ، وباطـــل الانشاء طاعة غـــير الرسل ، وهـــذا بعيد .

ثم قال : (سماعون للـكذب أكالون للسحت) فـذكر أنهم فى

غذائي الجسد والقلب يغتذون الحرام ، بخلاف من يأكل الحلال ولا يقبل إلا الصدق ، وفيه ذم لمن يروج عليه الكذب ويقبله ، أو يؤثره لموافقته هواه ويدخل فيه قبول المذاهب الفاسدة ؛ لأنها كذب لا سيما إذا اقترن بذلك قبولها لاجل العوض عليها ، سواء كان العوض من ذي سلطان أو وقف أو فتوح او هدية او أجرة أو غير ذلك ، وهو شبيه بقوله : (إن كثير من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) [1] أهل البدع وأهل الفجور الذين يصدقون بما كذب به على الله ورسوله وأحكامه ، والذين يطيعون الخلق في معصية الخالق .

ومثله : (هل أدلكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون) فانما تنزلت بالسمع الذي يخلط فيه بكلمة الصدق الف كلمة من الكذب على من هو كذاب فاجر ، فيكون سماعا للكذب من مسترقة السمع .

ثم قال في السورة : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار من قولهم الاثم واكلهم السحت) فقول الاثم وسماع الكذب واكل السحت اعمال متلازمة في العادة ، وللحكام منها خصوص ، فان الحاكم إذا

---

(١) بياض بالاصل

ارتشى سمع الشهادة المزورة ، والدعوى الفاجرة ، فصار سماعا للكذب اكالا للسحت قائلا للاثم .

ولهذا خير نبيه صلى الله عليه وسلم بين الحكم بينهم وبين تركه ؛ لأنه ليس قصدهم قبول الحق وسماعه مطلقاً ؛ بل يسمعون ما وافق أهواءهم وإن كان كذبا ، وكذلك العلماء الذين يتقولون الروايات المكذوبة .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد فى طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ .

منها قوله : (وعبد الطاغوت) والصواب عطفه على قوله : (من لعنه الله) فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية ؛ لكن المتقدمة الفاعل الله مظهراً أو مضمراً ، وهذا الفعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير فى عبد ، ولم يعد حرف (من) لأن هذه الأفعال لصنف واحد وهم اليهود .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــــل

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ؛ ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) الآية .

ومن المشهور فى التفسير : أنها نزلت بسبب جماعة من الصحابة كانوا قد عزموا على الترهب ، وفى الصحيحين عن أنس : « أن رجالاً سألوا ازواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن عبادته فى السر ، فتقالوا ذلك » وذكر الحديث .

وفي الصحيحين عن سعـــد قال : « رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » . وعن عكرمة أن علي بن أبى طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون والمقداد ، وسالما

مولى أبي حذيفة فى اصحاب لهم تبتلوا ، فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا الطيبات من الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس اهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء ، واجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية . وكذلك ذكر سائر المفسرين ما يشبه هذا المعنى .

وقد ذم الله الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . وذم الذين يتبعون الشهوات ، والذين يريدون ان تميلوا ميلا عظيما ، ويريدون ميل المومنين ميلا عظيما . وذم الذين اتبعوا ما اترفوا فيه ، والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام .

وأكثر الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات شربة الخمر ، كما قال تعالى : (إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) فجمعوا بين الشهوة المحرمة وترك ذكر الله وإضاعة الصلاة ، وكذلك غيرهم من اهل الشهوات .

ثم نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ، وعن الاعتداء فى تناولها ، وهو مجاوزة الحد . وقد فسر الاعتداء فى الزهد والعبادة بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم . فيكونوا قد تجاوزوا

الحـــد وأسرفوا . وقيل : لا يحملنـكم أكل الطيبـات على الاسراف وتناول الحرام من أموال الناس فان آكل الطيبات والشهوات المعتدى فيها لا بد أن يقع فى الحرام لأجل الاسراف فى ذلك .

والمقصود بالزهد ترك ما يضر العبد فى الآخرة ، وبالعبــادة فعل ما ينفع فى الآخرة ، فاذا ترك الانسان ما ينفعه فى دينـــه وينفعه فى آخرته وفعل من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف ، وإن ظن ذلك زهداً نافعاً وعبادة نافعة .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والنخعي : (ولا تعتـدوا) أي لا تجبوا أنفسكم ، وقال عكرمة لا تسيروا بغير سيرة المسلمين : من ترك النساء ، ودوام الصيام والقيام . وقال مقاتل : لا تحرموا الحلال ، وعن الحسن لا تأتوا ما نهى الله عنه.، وهـــذا ما أريد به لا تحرموا الحلال ولا تفعلوا الحرام ؛ فيكون قـد نهى عن النوعين ؛ لكن سبب نزول الآية وسياقها يدل على قول الجمهور ، وقد يقال هــذا مثل قوله : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقوله فى تمـام الآية : (وكلوا مما رزقـكم الله حلالا طيباً) الآية .

وكذلك الاحاديث الصحيحة كقول أحـــدهم : لا أتزوج النساء ،

وقول الآخر لا آكل اللحم . كما في حديث أنس المتقدم ، وهذا مما يدل على أن صوم الدهر مكروه ، وكذلك مداومة قيام الليل .

فصـــــل

وهذا الذي جاءت به شريعة الاسلام هـو الصراط المستقيم ، وهو الذي يصلح به دين الانسان ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعدل الصيام صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » وفي رواية صحيحة : « أفضل » والأفضل هو الأعدل الأقوم . وهذا القرآن يهدي للتى هي أقوم ، وهي وسط بين هذين الصنفين : أصحاب البدع وأصحاب الفجور أهل الاسراف والتقشف الزائد .

ولهذا كان السلف يحذرون مـن هذين الصنفين . قال الحسن : هو المبتدع في دينه والفاجر فى دنياه ، وكانوا يقولون : احذروا صاحب الدنيا أغوته دنياه ، وصاحب هوى متبع لهواه ، وكانوا يأمرون بمجانبة أهل البدع والفجور .

فـ « القسم الأول » أهل الفجور ، وهم المترفون المنعمون ،أوقعهم فى الفجور ما هم فيه .

و « القسم الثاني » المترهبون ، أوقعهم فى البدع غلوهم وتشديدهم. هؤلاء (استمتعوا بخلاقهم) وهؤلاء خاضوا كما خاض الذين من قبلهم وذلك أن الذين يتبعون الشهوات المنهي عنها أو يسرفون في المباحات ويتركون الصلوات والعبادات المأمور بها يستحوذ عليهم الشيطان والهوى فينسيهم الله والدار الآخرة ، ويفسد حالهم ، كما هو مشاهد كثيراً منهم .

والذين يحرمون ما أحل الله من الطيبات — وإن كانوا يقولون : ان الله لم يحرم هذا ؛ بل يلتزمون أن لا يفعلوه ، إما بالنذر وإما باليمين ، كما حرم كثير من العباد والزهاد أشياء — يقول أحدهم : لله علي أن لا آكل طعاماً بالنهار أبداً ، ويعاهد أحدهم ان لا يأكل الشهوة الملائمة ، ويلتزم ذلك بقصده وعزمه ، وإن لم يحلف ولم ينذر . فهذا يلتزم أن لا يشرب الماء ، وهذا يلتزم أن لا يأكل الخبز ، وهذا يلتزم أن لا يشرب الفقاع ، وهذا يلتزم أن لا يتكلم قط ، وهذا يجب نفسه ، وهذا يلتزم أن لا ينكح ولا يذبح . وأنواع هذه الأشياء من الرهبانية التى ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس ، وقهر الهوى والشهوة .

ولا ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها ، وكذلك قهر الهوى والشهوة ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد

الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » لكن المسلم المتبع لشريعة الاسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله ، فلا يحرم الحلال ولا يسرف فى تناوله ؛ بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح ، ويقتصد في ذلك ، ويقتصد فى العبادة ؛ فلا يحمل نفسه ما لا تطيق .

فهذا تجده يحصل له من مجاهدات النفس وقهر الهوى ما هو أنفع له من تلك الطريق المبتدعة الوعرة القليلة المنفعة ، التى غالب من سلكها ارتد على حافره ، ونقض عهده ، ولم يرعها حق رعايتها . وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكو به نفسه ، وتسير به الى ربه ، ويجد بذلك من المزيد فى إيمانه ما لا يجده أصحاب تلك الطريق ، فانهم لا بد أن تدعوهم أنفسهم الى الشهوات المحرمة ؛ فانه ما من بنى آدم الا من أخطأ أو هم بخطيئة الا يحيى بن زكريا وقد قال تعالى : (وخلق الانسان ضعيفاً) .

قال طاووس فى أمر النساء وقلة صبره عنهن كما تقدم ، فميل النفس الى النساء عام فى طبع جميع بني آدم ، وقد يبتلى كثير منهم بالميل الى الذكران ، كما هو المذكور عنهم ؛ فيبتلى بالميل الى المردان ، وإن لم يفعل الفاحشة الكبرى ابتلي بما هو دون ذلك من المباشرة والمشاهدة ، ولا يكاد أن يسلم أحدهم من الفاحشة إما في سره وإما

بينه وبين الأمرد ، ويحصل للنفس من ذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فاذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه ان يجاهد نفسه فى الله ، وهو مأمور بهذا الجهاد ليس أمراً أوجبه وحرمه هو على نفسه ، فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ؛ فيصير بالمجاهدة في طاعة الله ورسوله .

وفى حديث رواه أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً : « من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات فهو شهيد » وأبو يحيى في حديثه نظر ؛ لكن المعنى الذي ذكره دل عليه الكتاب والسنة ؛ فان الله أمر بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعف عن كل ما حرمه الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل ، ومن الصبر أن يصبر عن شكوى ما به الى غير الله عز وجل . فان هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

« أحدها » أن يكتم بثه وألمه ، فلا يشكو الى غير الله ، فمتى شكا الى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ؛ لكن هذا لا يقدر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على

وجهين : فان شكا ذلك الى طبيب يعرف طب الأديان ، ومضرات النفوس ومنافعها ؛ ليعالج نفسه بعلاج الايمان ؛ فهذا بمنزلة المستفتى ، وهذا حسن .

وإن شكا الى من يعينه على المحرم فهـذا حرام ، وإن شكا الى غيره لما في الشكوى من الراحة ، كما يشكو المصاب مصيبته الى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الأستعانة على مصيبته ، فهذا ينقص صبره ؛ ولكن لا يأثم مطلقـاً الا إذا اقترن به ما يحرم ، كالمصـاب الذي يتسخط .

و « الثانى » أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع النـاس ؛ لما فى ذلك من إظهـار السوء والفاحشة ، فان النفوس اذا سمعت مثل هـذا تحركت ، وتشهت وتمنت وتتيمت ، والانسان متى رأى او سمع او تخيل من يفعـل ما يشتهيه كان ذلك داعياً له الى الفعـل والتشبه به ، والنساء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منها على الاناث ملن الى الباءة والمجامعة ، والرجل اذا سمع من يفعل مع المردان والنساء ورأى ذلك أو تخيله فى نفسه دعاه ذلك الى الفعل ، واذا ذكر للانسان طعـام اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس او امرأة او مسكن او غـيره مالت نفسه إليه ، والغريب عـن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه ، وكل ما فى نفس الانسان محبته اذا تصوره تحركت

المحبة والطلب الى ذلك المحبوب المطلوب ؛ إما الى وصفه وإما الى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع أو الرؤية أو الفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فاذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت الى ما تخيلته فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس الى الحج اذا ذكر الحجاز ، او كان أوان الحج ، او رأى من يذهب الى الحج من أهله وأقاربه ، او أصحابه او غيرهم ، ولو لم يسمع ذلك ويراه لما تحرك ولا حدث منه داعية قوته الى ذلك ، فتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلى ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً الى محبوبه ، فصار ذكرها يذكره بالمحبوب .

وكذلك أصحاب المتاجر والأموال ، اذا سمع أحدهم بالمكاسب تحركت داعيته الى ذلك ، وكذلك أهل الفرج والتنزه إذا رأوا من يقصد ذلك تحركوا إليه ، وهذه الدواعي كلها مركوزة في نفوس بني آدم ، والانسان ظلوم جهول .

وكذلك ذكر آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم تذكر به وتحرك محبته ، فالمبتلى بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت نفس ذلك الغير الى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ،

فاذا تصورت جنساً تحرك اليها المحبوب .

ولهـذا نهى الله تعـالى عن اشاعة الفاحشة . وكذلـك أمر بستر الفواحش ، كما قال النبي صـلى الله عليـه وسـلم : « من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فاليستتر بستر الله ، فانه مـن يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » وقال : « كل أمتى معافى الا المجاهرين ، وان مـن المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يتحدث به » فما دام الذنب مستوراً فعقوبته على صاحبه خاصة ، وإذا ظهر ولم ينكر كان ضرره عاماً ، فـكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه .

ولهذا كره الامام أحمد وغيره إنشاد الأشعار : الغزل الرقيق ؛ لأنه يحـرك النفوس الى الفواحش ؛ فلهذا أمر مـن يبتلى بالعشق أن يعف ويكتم ويصبر ، فيكون حينئذ ممن قال الله فيه : (إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) .

والمقصود أنه يثاب على هذه المجاهدة ، والمجاهد من جاهد نفسه في الله . وأما المبتدعون فى الزهد والعبادة السالكون طريق الرهبان فانهم قد يزهدون فى النـكاح ، وفضول الطعام ، والمال ونحو ذلك . وهذا محمود ؛ لكن عامة هؤلاء لا بد أن يقعوا فى ذنوب من هذا الجنس ، كما نجد كثيراً منهم يبتلى بصحبة الأحداث ، وارفاق النساء ؛ فيبتلون بالميل

الى الصور المحرمة من النساء والصبيان ما لا يبتلى به أهل السنة المتبعون للشريعة المحمدية .

وحكاياتهم في هذا أكثر من أن يحكى بسطها في كتاب ، وعندهم من الفواحش الباطنة والظاهرة ما لا يوجد عند غيرهم ، وخيار من فيهم يميل الى الأحداث والغناء والسماع ؛ لما يجدون في ذلك من راحة النفوس ولو اتبعوا السنة لاستراحوا من ذلك .

قال أبو سعيد الخراز لما قال له الشيطان في المنام : لي فيكم لطيفتان السماع وصحبة الأحداث ، قال أبو سعيد : قل من ينجو منها من أصحابنا حتى لقوة محبة نفوسهم صار ذلك ممتزجاً بطريقهم الى الله ، فان أحدهم يجد في نفسه عند مشاهدة الشاهد من الرغبة فيما اعتاده من العبادة والزهادة ما لا يجدها بدون ذلك ، وعنده في نفسه عند سماع القصائد من الشوق والرغبة والنشاط ما لا يجده عند سماع القرآن ، فصاروا في شبهة وشهوة لم يكتف الشيطان منهم بوقوعهم في الأمور المحرمة ، التي تفتنهم حتى جعلهم يعتبرون ذلك عبادة ، كالذين قال الله فيهم : (واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها) الآية . وهؤلاء هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

واذا وقعوا في السماع وقعوا فيه بشوق ورغبة قوية ، ومحبة تامة ،

وبذلوا فيه أنفسهم وأموالهم . فقد يبذلون فيه نساءهم وأبناءهم، ويدخلون في الدياثة لأغراضهم ، فيأتي أحدهم بولده فيهبه للشيخ يفعل ما أراد هو ومن يلوذ به ، ويسمونه حواراً ، وإن كان حسن الصورة استأثر بـه الشيخ دونهم ، ويعد أهله ذلك بركة حصلت له من الشيخ ، ويرتفع الحياء بين أم الصبي وأبيه وبين الفقراء .

واذا صلوا صلوا صلاة المنافقين ، يقومون إليها وهم كسالى يراؤون النـاس ولا يذكرون الله الا قليلا . فقـد أضاعوا الصـلاة ، واتبعوا الشهوات ، ومع هذا فهم قد يزهدون فى بعض الطيبات التى أحلها الله لهم ، ويجتهدون فى عبادات واذكار ، لكن مع بدعة وأفعـال لا تجوز مما تقـدم ذكره ، فتلك البدعة هي التى أوقعتهم فى اتبـاع الشهوات ، وإضاعة الصلوات ؛ لأن الشريعة مثالها مثـال سفينة نوح ؛ مـن ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق . وهؤلاء تخلفوا عنها فغرقوا بحبهم ، ويتوب الله على من تاب .

والسالكون للشريعة المحمدية اذا ابتلوا بالذنوب لم تكن التوبة عليهم من الآصار والأغلال ؛ بل من الحنيفية السمحة ، وأما أهل البدع فقد تكون التوبة عليهم آصاراً وأغلالا ، كما كانت على من قبلنا من الرهبان فانهم اذا وقع أحدهم في الذنب لم يخلص من شره إلا ببـلاء شديد ، من أجل خروجه عن السنة .

وهـؤلاء قد يظن أحـدهم انه لا يمكنه السلوك الى الله تعالى الا ببدعة .

وكذلك أهل الفجور المترفين قد يظن أحدهم انه لا يمكنه فعل الواجبات الا بما يفعله من الذنوب ، ولا يمكنه ترك المحرمات الا بذلك ، وهذا يقع لبشر كثير من الناس .

منهم من يقول : انه لا يمكن أداء الصلوات واجتناب الكلام المحرم — من الغيبة وغيرها — الا بأكل الحشيشة .

ويقول الآخر : إن أكلها يعينه على استنباط العلوم وتصفية الذهن حتى يسميها بعضهم معدن الفكر والذكر ، ومحركة العزم الساكن ، وكل هذا من خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم ؛ وإنها لعمى الذهن ، ويصير آكلها أبكم مجنوناً لا يعي ما يقول .

وكذلك في هؤلاء من يقول : إن محبته لله ورغبته فى العبادة ، وحركته ووجده وشوقه وغير ذلك لا يتم إلا بسماع القصائد ، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم ، وسماع الأصوات والنغمات ، ويزعمون أنهم بسماع هذه الأصوات ورؤية الصور المحركات تتحرك عندهم من دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرك بدون ذلك ، وأنهم بدون ذلك قد يتركون

الصلوات ، ويفعلون المحرمات الكبار ، كقطع الطريق ، وقتل النفوس ، ويظنون أنهم بهذا ترتاض نفوسهم ، وتلتذ بذلك لذة تصدها عن ارتكاب المحارم ، والكبائر ، وتحملها على الصلاة والصوم والحج .

وهذا مستند كثير من الشيوخ الذين يدعون الناس الى طريقهم بالسماع المبتدع على اختلاف ألوانه وأنواعه . منهم من يدعو إليه بالدف والرقص ، ومنهم من يضيف الى ذلك الشبابات ، ومنهم من يعمله بالنساء والصبيان ، ومنهم من يعمله بالدف والكف ، ومنهم من يعمله بأذكار واجتماع ، وتسبيحات وقيام ، وإنشاد أشعار وغير ذلك من سائر أنواعه وألوانه .

وربما ضموا إليه من معاشرة النساء والمردان ونحو ذلك . ويقولون هؤلاء الذين توبناهم وقد كانوا لا يصلون ، ولا يحجون ، ولا يصومون بل كانوا يقطعون الطريق ، ويقتلون النفس ، ويزنون ؛ فتوبناهم عن ذلك بهذا السماع . وما أمكن أحدهم استتابتهم بغير هذا .

وقد يعترفون أن ما فعلوه بدعة منهي عنها او محرمة ؛ ولكن يقولون ما أمكننا الا هذا ، وإن لم نفعل هذا القليل من المحرم حصل الوقوع فيما هو أشد منه تحريماً ، وفى ترك الواجبات ما يزيد إثمه على إثم هذا المحرم القليل فى جنب ما كانوا فيه من المحرم الكثير .

ويقولون : إن الانسان يجد في نفسه نشاطاً وقوة في كثير من الطاعات إذا حصل له ما يحبه ، وإن كان مكروهاً حراماً . واما بدون ذلك فلا يجد شيئاً ، ولا يفعله . وهو أيضاً يمتنع عن المحرمات ، اذا عوض بما يحبه وان كان مكروهاً ، وإلا لم يمتنع ، وهذه الشبهة واقعة لكثير من الناس ، وجوابها مبنى على ثلاث مقامات :

« أحدها » ان المحرمات قسمان :

« أحدهما » ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئاً لا لضرورة ولا لغير ضرورة : كالشرك ، والفواحش ، والقول على الله بغير علم . والظلم المحض ، وهي الأربعة المذكورة فى قوله تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

فهذه الأشياء محرمة فى جميع الشرائع ، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ، ولم يبح منها شيئاً قط ، ولا فى حال من الاحوال ، ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية ، ونفي التحريم عما سواها ؛ فانما حرمه بعدها كالدم والميتة ولحم الخنزير حرمه فى حال دون حال ، وليس تحريمه مطلقاً .

وكذلك « الخمر » يباح لدفع الغصة بالاتفاق ، ويباح لدفع العطش في أحد قولي العلماء ، ومن لم يبحهـا قال : إنهـا لا تدفع العطش ، وهذا مأخذ أحمد . فحينئذ فالأمر موقوف على دفع العطش بها ، فان علم أنها تدفعه أبيحت بلا ريب ، كما يباح لحم الخنزير لدفع المجاعة ، وضرورة العطش الذي يرى أنه يهلكه أعظم من ضرورة الجوع ؛ ولهذا يباح شرب النجاسات عند العطش بلا نزاع ، فان اندفع العطش وإلا فلا إباحة فى شيء من ذلك .

وكذلك « الميسر » فان الشارع أباح السبق فيه بمعنى الميسر للحاجة فى مصلحة الجهاد . وقد قيل إنه ليس منه ، وهو قول من لم يبح العوض من الجـانبين مطلقـاً إلا المحلل ، ولا ريب أن الميسر اخف من أمر الخمر ، وإذا أبيحت الخمر للحاجة فالميسر أولى . والميسر لم يحرم لذاته إلا لأنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويوقع العداوة والبغضاء . فاذا كان فيه تعـاون على الرمي الذي هو من جنس الصلاة ، وعـلى الجهـاد الذي فيـه تعاون ، وتتألف به القـلوب على الجهاد زالت هذه المفسدة .

وكذلك بيع الغرر هو من جنس الميسر ، ويباح منه أنواع عند الحاجة ورجحان المصلحة .

وكذلك « الربا » حرم لما فيه من الظلم ، وأوجب أن لا يباع الشيء إلا بمثله ، ثم أبيح بيعه بجنسه خرصاً عند الحاجة ، بخلاف غيرها من المحرمات ، فانها تحرم فى حال دون حال . ولهذا — والله أعلم — نفي التحريم عما سواها ، وهو التحريم المطلق العام ، فان المنفي من جنس المثبت ، فلما أثبت فيها التحريم العام المطلق نفاه عما سواها .

و « المقام الثاني » أن يفرق بين ما يفعل فى الانسان ، ويأمر به ويبيحه ، وبين ما يسكت عن نهي غيره عنه وتحريمه عليه ، فاذا كان من المحرمات مالو نهى عنه حصل ما هو أشد تحريماً منه لم ينه عنه ، ولم يبحه أيضاً .

ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ؛ ولهذا حرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف ؛ لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات ، وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب ، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ، ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك ، ولم يمكن منعهم منه ، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينهوا عنه .

بخلاف ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق ؛ فان دعوتهم يحصل بها مصلحة راجحة على مفسدتها ، كدعوة موسى

لفرعون ونوح لقومه ، فانه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله ، وحصل لقومه من الصبر والاستعانة بالله ما كانت عاقبتهم به حميدة ، وحصل أيضاً من تفريق فرعون وقومه ما كانت مصلحته عظيمة .

وكذلك نوح حصل له ما أوجب أن يكون ذريته هم الباقين ، وأهلك الله قومه أجمعين ، فكان هلاكهم مصلحة .

فالمنهي عنه إذا زاد شره بالنهي ، وكان النهي مصلحة راجحة كان حسناً وأما إذا زاد شره وعظم وليس فى مقابلته خير يفوته لم يشرع ، إلا أن يكون فى مقابلته مصلحة زائدة ، فان أدى ذلك إلى شر أعظم منه لم يشرع مثل أن يكون الآمر لا صبر له ، فيؤذى فيجزع جزعا شديداً يصير به مذنباً ، وينتقص به إيمانه ودينه .

فهذا لم يحصل به خير لا له ولا لأولئك ؛ بخلاف ما إذا صبر واتقى الله وجاهد ، ولم يتعد حدود الله بل استعمل التقوى والصبر ؛ فان هذا تكون عاقبته حميدة .

وأولئك قد يتوبون فيتوب الله عليهم ببركته ، وقد يهلكهم ببغيهم ويكون ذلك مصلحة ، كما قال تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

وأما الانسان فى نفسه فلا يحل له أن يفعل ، الذي يعلم أنه محرم لظنه أنه يعينه على طاعة الله ، فان هذا لا يكون إلا مفسدة ، أو مفسدته راجحة على مصلحته ، وقد تنقلب تلك الطاعة مفسدة ؛ فان الشارع حكيم ، فلو علم أن فى ذلك مصلحة لم يحرمه ، لكن قد يفعل الانسان المحرم ثم يتوب ، وتكون مصلحته أنه يتوب منه ، ويحصل له بالتوبة خشوع ورقة ، وإنابة إلى الله تعالى ؛ فان الذنوب قد يكون فيها مصلحة مع التوبة منها ، فان الانسان قد يحصل له [بعدم] الذنوب كبر وعجب وقسوة ، فاذا وقع فى ذنب أذله ذلك وكسر قلبه ، ولين قلبه بما يحصل له من التوبة .

ولهذا قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، ويفعل السيئة فيدخل بها الجنة ، وهذا هو الحكمة فى ابتلاء من ابتلى بالذنوب من الأنبياء والصالحين ، واما بدون التوبة فلا يكون المحرم إلا مفسدته راجحة ، فليس للانسان ان يعتقد حل ما يعلم ان الله حرمه قطعاً ، وليس له أن يفعله قطعاً ، فان غلبته نفسه وشيطانه فوقع فيه تاب منه ، فان تاب فصار بالتوبة خيراً مما كان قبله ، فهذا من رحمة الله به حين تاب عليه ، وإلا فلو لم يتب لفسد حاله بالذنب ، وليس له أن يقول أنا أفعل ثم اتوب ، ولا يبيح الشارع له ذلك ، لأنه بمنزلة من يقول أنا أطعم نفسي ما يمرضني ثم أتداوى ، أو آكل السم ثم اشرب الترياق .

والشارع حكيم، فانه لا يدري هل يتمكن من التوبة أم لا؟ وهل يحصل الدواء بالترياق وغيره أم لا ؟ وهل يتمكن من الشرب أم لا ؟ لكن لو وقع هذا وكانت آخرته إلى التوبة النصوح كان الله قد أحسن إليه بالتوبة، وبالعفو عما سلف من ذنوبه، وقد يكون مثل هذا ليس صلاحه إلا فى أن يذنب ويتوب، ولو لم يفعل ذلك كان شراً منه لو لم يذنب ويتوب؛ لكن هذا أمر يتعلق بخلق الله وقدره وحكمته، لا يمكن أحد ان يأمر به الانسان؛ لأنه لا يدري أن ذلك خير له، وليس ما يفعله خلقاً ـ لعلمه وحكمته ـ يجوز للرسل وللعباد أن يفعلوه، ويأمروا به.

وقصة الخضر مع موسى لم تكن مخالفة لشرع الله وأمره، ولا فعل الخضر ما فعله لكونه مقدراً كما يظنه بعض الناس؛ بل ما فعله الخضر هو مأمور به فى الشرع بشرط أن يعلم من مصلحته ما علمه الخضر؛ فانه لم يفعل محرماً مطلقاً؛ ولكن خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، فان إتلاف بعض المال لصلاح أكثره هو أمر مشروع دائماً. وكذلك قتل الانسان الصائل لحفظ دين غيره أمر مشروع، وصبر الانسان على الجوع مع إحسانه إلى غيره أمر مشروع.

فهذه القضية تدل على أنه يكون من الأمور ما ظاهره فساد، فيحرمه من لم يعرف الحكمة التى لأجلها فعل، وهو مباح في الشرع

باطناً وظاهراً لمن علمه فيه من الحكمة التى توجب حسنه وإباحته .

وهذا لا يجيء في الأنواع الأربعة ، فان الشرك والقول على الله بلا علم ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والظلم : لا يكون فيها شيء من المصلحة ، وقتل النفس ، أبيح فى حال دون حال ؛ فليس من الأربعة . وكذلك إتلاف المال يباح فى حال دون حال ، وكذلك الصبر على المجاعة ؛ ولذلك قال : (قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين)

فاخلاص الدين له والعدل واجب مطلقاً في كل حال ، وفي كل شرع ؛ فعلى العبد أن يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويدعوه مخلصاً له ، لا يسقط هذا عنه بحال ، ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد ، وهم أهل « لا إله إلا الله » .

فهذا حق الله على كل عبد من عباده ، كما فى الصحيحين من حديث معاذ ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « يامعاذ ! أتدري ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حقه عليهم ان يعبدوه لا يشركوا به شيئا » الحديث .

فلا ينجون من عذاب الله إلا من اخلص لله دينه وعبادته ، ودعاه

مخلصاً له الدين ، ومن لم يشرك بـه ولم يعبده فهو معطـل عن عبادته وعبادة غيره : كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالا من المشرك ؛ فلا بـد من عبادة الله وحده ، وهذا واجب عـلى كل أحد ، فـلا يسقط عن احد البتة ، وهو الاسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره .

ولكن لا يعذب الله احداً حتى يبعث اليه رسولا ، وكما انه لا يعذبه فلا يدخل الجنـة الا نفس مسلمة مؤمنـة ، ولا يدخلهـا مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه ، فمن لم تبلغه الدعوة فى الدنيا امتحن فى الآخرة ، ولا يدخل النار الا من اتبع الشيطان ، فمن لاذنب له لا يدخل النار ، ولا يعذب الله بالنار أحداً إلا بعد أن يبعث اليـه رسولا ، فمن لم تبلغه دعوة رسول اليه كالصغير والمجنون ، والميت في الفترة المحضة ، فهـذا يمتحن فى الآخرة كما جاءت بذلك الآثار .

فيجب الفرق فى الواجبات والمحرمات ـــ والتمييز بينهما هو اللازم لـكل احد على كل حال ، وهو العدل فى حق الله وحق عبـاده بأن يعبدوا الله مخلصا له الدين ، ولا يظلم الناس شيئاً ، وماهو محرم على كل احد فى كل حال لا يباح منه شيء ، وهو الفواحش والظـلم والشرك ، والقول على الله بلا علم ـــ وبين ماسوى ذلك .

قال تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليـكم أن لا تشركوا

به شيئاً) فهذا محرم مطلقاً لا يجوز منه شيء ، (وبالوالدين إحساناً) ، فهذا فيه تقييد .فان الوالد إذا دعا الولد إلى الشرك ليس له أن يطيعه بل له ان يأمره وينهاه ، وهذا الأمر والنهي للوالد هو من الاحسان اليه . وإذا كان مشركا جاز للولد قتله ، وفي كراهته نزاع بين العلماء .

قوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) فهذا تحريم خاص ، (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) هذا مطلق ، (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هي أحسن ، حتى يبلغ أشده) هذا مقيد ، فان يتامى المشركين أهل الحرب يجوز غنيمة أموالهم ؛ لكن قد يقال : هذا أخذ وقربان بالتى هي أحسن ، إذا فسر الأحسن بامر الله ورسوله ، (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) هذا مقيد بمن يستحق ذلك (وإذا قلتم فاعدلوا) هذا مطلق .

(وبعهد الله أوفوا) فالوفاء واجب ؛ لكن يميز بين عهد الله وغيره ، ويفرق بين ما يسكت عنه الانسان وبين ما يلفظ به ، ويفعله ويأمر به ، ويفرق بينها قدره الله ، فحصل بسببه خير، وبين ما يؤمر به العبد ، فيحصل بسببه خير .

قال شيخ الاسلام رحمه الله

فصل

قوله تعالى علواً كبيراً (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) لا يقتضى ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا نهياً ولا إذناً، كما فى الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا في تأويلها «إذا رأيت شحاً مطاعا، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك» وهذا يفسره حديث أبي سعيد فى مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان» فاذا قوى اهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى

البر ؛ بل يؤذون الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال ، وبقي بالقلب ، و « الشح » هو شدة الحرص التى توجب البخل والظلم ، وهو منع الخير وكراهته ، و « الهوى المتبع » فى إرادة الشر ومحبته و « الاعجاب بالرأي » فى العقل والعلم ، فذكر فساد القوى الثلاث التى هي العلم والحب والبغض . كما فى الحديث الآخر : « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » وبازائها الثلاث المنجيات : « خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا » وهي التى سألها في الحديث الآخر : « اللهم اني اسألك خشيتك فى السر والعلانية ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، واسألك القصد فى الفقر والغنى » .

فخشية الله بازاء اتباع الهوى ، فان الخشية تمنع ذلك ، كما قال : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) والقصد في الفقر والغنى بازاء الشح المطاع ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا بازاء اعجاب المرء بنفسه ، وما ذكره الصديق ظاهر ؛ فان الله قال : (عليكم انفسكم) اي الزموهاواقبلوا عليها ، ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي . وقال : (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وانما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وادى الواجب من الأمر والنهي وغيرهما ؛ ولكن فى الآية فوائد عظيمة .

« احدها » أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين فانهم لن يضروه إذا كان مهتديا .

« الثانى » أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم ، فان معاصيهم لا تضره إذا اهتدى ، والحزن على مالا يضر عبث ، وهذان المعنيان مذكوران فى قوله : (واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون) .

« الثالث » ان لايركن اليهم ، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات ، كقوله : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم) فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم فى آية ، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم فى آية ، فان الانسان قد يتألم عليهم ومنهم اما راغبا واما راهباً .

« الرابع » ان لا يعتدى على أهل المعاصي بزيادة على المشروع فى بغضهم أو ذمهم ، أو نهيهم أو هجرهم ، أو عقوبتهم ؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت ، كما قال : (ولا يجرمنكم شنآن قوم) الآية . وقال : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وقال : (فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) فان كثيراً من الآمرين الناهين قد يعتدى

حدود الله اما بجهل واما بظلم ، وهذا باب يجب التثبت فيه ، وسواء في ذلك الانكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين .

« الخامس » ان يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع ، من العلم والرفق ، والصبر ، وحسن القصد ، وسلوك السبيل القصد ، فان ذلك داخل في قوله : (عليكم انفسكم) وفى قوله : (إذا اهتديتم) .

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيها المعنى الآخر . وهو اقبال المرء على مصلحة نفسه علما وعملا ، واعراضه عما لايعنيه ، كما قال صاحب الشريعة : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء اليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه ، لاسيما ان كان التكلم لحسد أو رئاسة .

وكذلك العمل فصاحبه إما معتد ظالم ، واما سفيه عابث ، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، ويكون من باب الظلم والعدوان .

فتأمل الآية فى هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء ، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها وعبادها وأمرائها

ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل ، كما بغت الجهمية على السنة فى محنــة الصفات والقرآن ؛ محنة أحمد وغيره ، وكما بغت الرافضة على السنة مرات متعـددة ، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته ، وكما قد تبغى المشبهة على المنزهة ، وكما قد يبغى بعض السنة اما على بعضهم وإما عـلى نوع من المبتدعـة بزيادة على ما أمر الله به ، وهو الاسراف المذكور فى قولهم : (ربنـا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا) .

وبازاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا بــه من الحق ، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فى هـذه الأمور كلها ، فما أحسن ما قال بعض السلف : ما أمر الله بأمر الا اعـترض الشيطان فيه بأمرين ــ لايبالي بأيهما ظفر ــ غلو أو تقصير .

فالمعين على الاثم والعدوان بازائه تارك الاعانة على البر والتقوى ، وفاعل المأمور به وزيادة منهى عنها بازائه تارك المنهى عنه وبعض المأمور به ، والله يهدينا الصراط المستقيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــــل

الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله (فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً) أي بقولنا ، ولو كان ذا قربى ، حذف ضمير كان لظهوره ، اي ولو كان المشهود له ، كما في قوله : (وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى) وكما في قوله : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) إلى قوله : (إن يكن غنياً او فقيراً) اي المشهود عليه ونحو ذلك ؛ لأن العادة ان الشهادة المزورة يعتاض عليها ، إلا فليس احد يشهد شهادة مزورة بلا عوض — ولو مدح — او اتخاذ يد . وآفة الشهادة : إما اللي ، واما الاعراض : الكذب والكتمان فيحلفان لا نشتري بقولنا ثمناً : اى لا نكذب ولا نكتم شهادة الله ، او لا نشتري بعهد الله ثمناً ؛ لأنهما كانا مؤتمنين ، فعليهما عهـــد بتسليم المال إلى مستحقه ؛ فان الوصية عهد من العهود .

وقوله بعد ذلك (فان عثر على أنهما استحقا إثماً) أعم من ان يكون

في الشهادة او الأمانة . وسبب نزول الآية يقتضي انه كان في الامانة فانها استشهدا وائتمنا ، لكن ائتمانهما ليس خارجا عن القياس ؛ بل حكمه ظاهر ، فلم يحتج فيـــه الى تنزيل ، بخلاف استشهادهما ، والمعثور على استحقاق الاثم ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما بعد ان وجد ذكرها في الوصية ، وسئلا عنها فانكراها .

وقوله : (من الذين استحق عليهم) يحتمـل ان يكون مضمنـاً معنى بغى عليهم ، وعدى (عليهم) كما يقـال في الغصب : غصبت علي مالي ؛ ولهذا قيل : (لشهادتنا احق من شهادتهما ، وما اعتدينا) اي كما اعتدوا . ثم قوله : (ذلك ادنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها ، او يخافوا ان ترد أيمان بعد ايمانهم)

وحديث ابن عباس فى البخاري صريح فى ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم بمعنى ما فى القرآن ، فرد اليمين على المدعين بعـد أن استحلف المدعى عليهم لما عثر على أنهما استحقا إثما ، وهو إخبار المشترين انهم اشتروا « الجام » منهما بعد قولهما مارأيناه ، فحلف النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من المدعين الأوليان ، واخذ « الجام » من المشتري ، وسلم إلى المدعي ، وبطل البيع ، وهذا لا يكون مع إقرارهما بأنهما باعا الجام ؛ فانه لم يكن يحتاج إلى يمين المدعين لو اعترفا بانه جام الموصى ، وانهما

غصباه وباعاه ، بل بقوا على إنكار قبضه مع بيعه ، او ادعوا مع ذلك انه أوصى لهما به وهذا بعيد .

فظاهر الآية ان المدعى عليه المتهم بخيانة ونحوها ـ كما اتهم هؤلاء ـ إذا ظهر كذبه وخيانته كان ذلك لوثا يوجب رجحان جانب المدعي ؛ فيحلف ويأخذ ، كما قلنا فى الدماء سواء ، والحكمة فيهما واحدة ، وذلك انه لما كانت العادة ان القتل لا يفعل علانية بل سراً ، فيتعذر إقامة البينة ، ولا يمكن ان يؤخذ بقول المدعي مطلقا اخذ بقول من يترجح جانبه ؛ فمع عدم اللوث جانب المنكر راجح ، اما اذا كان قتل ولوث قوي جانب المدعي فيحلف .

وكذلك الخيانة والسرقة يتعذر إقامة البينة عليها فى العادة ، ومن يستحل أن يسرق فقد لا يتورع عن الكذب ، فاذا لم يكن لوث فالأصل براءة الذمة ، أما إذا ظهر لوث بأن يوجد بعض المسروق عنده فيحلف المدعي ويأخذ ، وكذلك لو حلف المدعى عليه ابتداء ثم ظهر بعض المسروق عند من اشتراه او اتهبه او أخذه منه ، فان هذا اللوث في تغليب الظن أقوى ؛ لكن فى الدم قد يتيقن القتل ويشك فى عين القاتل فالدعوى إنما هي بالتعيين .

وأما فى الأموال : فتارة يتيقن ذهاب المال وقدره ، مثل أن يكون

معلوما في مكان معروف . وتارة يتيقن ذهاب مال لا قدره ، بأن يعلم أنه كان هناك مال وذهب . وتارة يتيقن هتك الحرز ولا يدرى أذهب بشيء أم لا ؟ هذا فى دعوى السرقة ، وأما فى دعوى الخيانة فلا تعلم الخيانة ، فاذا ظهر بعض المال المتهم به عند المدعى عليه أو من قبضه منه ظهر اللوث بترجيح جانب المدعى ، فان تحليف المدعى عليه حينئذ بعيد .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم . ولكن اليمين على المدعى عليه » جمع فيه الدماء والأموال ، فكما أن الدماء إذا كان مع المدعى لوث حلف فكذلك الأموال ، كما حلفناه مع شاهده ، فكلما يغلب على الظن صدقه فهو بمنزلة شاهده ، كما جعلنا فى الدماء الشهادة المزورة لنقص نصابها أو صفاتها لوثا ، وكذلك فى الأموال جعل الشاهد مع اليمين ، فالشاهد المزور مع لوث وهو (١) لكن ينبغي أن تعتبر فى هذا حال المدعى والمدعى عليه فى الصدق والكذب ، فان باب السرقة والخيانة لا يفعله إلا فاسق فان كان من أهل ذلك لم يكن (١) إذا لم يكن إلا عدلا . وكذلك المدعى قد يكذب ، فاعتبار العدالة والفسق فى هذا يدل عليه قول الأنصاري : كيف نرضى بأيمان قوم كفار ؟ فعلم ان المتهم إذا كان فاجرا فللمدعى أن لا يرضى بيمينه ، لأنه من يستحل أن يسرق يستحل أن يحلف .

---

(١) بياض بالاصل .

سورة الانعام

سئل رضي الله عنه

عن قوله تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) وقوله تعالى : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وقوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) هل المحو والاثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح « إن الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده على عرشه » الحديث . وقد جاء : « جف القلم » فما معنى ذلك في المحو والاثبات ؟.

وهل شرع في الدعاء ان يقول : « اللهم ان كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا فانك قلت : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ؟ وهل صح ان عمر كان يدعو بمثل هذا ؟ وهل الصحيح عندكم ان العمر يزيد بصلة الرحم ، كما جاء في الحديث ؟ افتونا مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين .

أما قوله سبحانه : (ثم قضى اجلاً وأجل مسمى عنده) فالأجلْ الأول هو أجل كل عبد ؛ الذي ينقضي به عمره . والأجل المسمى عنده هو : أجل القيامة العامة .

ولهذا قال : (مسمى عنده) فان وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، كما قال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو) . بخلاف ما إذا قال : (مسمى) كقوله : (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى) إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده ، فقد يعرفه العباد .

وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد ، وأجله وعمله ، وشقى أو سعيد . كما قال فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : « حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو الصادق المصدوق ــ : ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث اليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : أكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده .

وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو .

وأما قوله : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره) فقد قيل ان المراد الجنس ، أي ما يعمر من عمر انسان ، ولا ينقص من عمر انسان ، ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان :

« أحدهما » ان هذا يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن المعمر يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما ان التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر .

وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب . وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وينسأله فى أثره فليصل رحمه » وقد قال بعض الناس : إن المراد به البركة فى العمر ، بأن يعمل فى الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا فى الكثير ، قالوا : لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان .

فيقال لهؤلاء تلك البركة . وهي الزيادة فى العمل ، والنفع . هي أيضاً مقدرة مكتوبة ، وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : أن الله يكتب للعبد أجلا فى صحف الملائكة ،

فاذا وصل رحمه زاد فى ذلك المكتوب . وان عمل مايوجب النقص نقص من ذلك المكتوب .

ونظير هذا مافى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه اياهم ، فرأى فيهم رجلا له بصيص ، فقال من هذا يارب ؟ فقال ابنك داود . قال : فكم عمره ؟ قال أربعون سنة . قال : وكم عمري ؟ قال : الف سنة . قال فقد وهبت له من عمري ستين سنة . فكتب عليه كتاب ، وشهدت عليه الملائكة ، فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة . قالوا : وهبتها لابنك داود . فأنكر ذلك ، فأخرجوا الكتاب . قال النبي صلى الله عليه وسلم فنسي آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته » وروى انه كمل لآدم عمره ، ولداود عمره .

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ، ثم جعله ستين ، وهذا معنى ماروى عن عمر أنه قال : اللهم ان كنت كتبتني شقياً فامحنى واكتبنى سعيداً ، فانك تمحو ما تشاء وتثبت .

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون ، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون ؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده اياه بعد ذلك ، والملائكة لا علم لهم الا ما علمهم الله ، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها ؛

فلهذا قال العلماء : ان المحو والاثبات فى صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له مالم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات .

واما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟ .

وقال ايضا :

فصـــــل

ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة منـاظرة إبراهيم ، وفى قصة احتيال يوسف ، ولهذا قال السلف : بالعلم ؛ فان سيـاق الآيات يدل عليه ، فقصة إبراهيم في العلم بالحجة ، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياســة والتدبير لتحصل منفعــة المطلوب ، فالأول علم بما يدفع المضار في الدين ، والثاني علم بما يجلب المنافع ، أو يقــال : الأول هــو العلم الذي يدفع المضــرة عن الدين ويجلب منفعته ، والثاني علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها ، أو يقال قصة إبراهيم فى علم الأقوال النافعة عنـــد الحاجة إليها وقصة يوسف فى علم الأفعال النافعة عند الحاجة اليها ، فالحاجة جلب المنفعــة ودفع المضرة قد تكون إلى القول ، وقد تــكون (١)

ولهــذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات ، وعلم السيـاسة

(١) خرم بالاصل .

والامارات مقهورين مع هذين الصنفين ، تارة بالاحتيـاج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل أو الدنيا بالظلم ، وتارة بالاحتيـاج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك ، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض فى الدين والدنيا ، وتارة يعيشون فى ظلهم فى مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم .

ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ، فان البدع والظلم لا تكون إلا فيهما : أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القدرية ، ولهذا قال طائفة من السلف كالثوري وابن عيينة وغيرهما ما معناه : أن من نجا من فتنـة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله ، وقد بسطت القول فى هذا في الصراط المستقيم عند قوله : (فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله :

هـــذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد فى طـائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ .

منها قوله : (وما يشعركم أنهـــا إذا جاءت لا يؤمنون) والآ ية بعدهـــا . أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآيـــة بعدها جملة مبتدأة ، وليس كذلك ؛ لكنها داخلة فى خبر أن . والمعنى : إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا : لم يكن قسمهم صدقا ؛ بل قد يكون كذبا ، وهو ظاهر الـكلام المعروف أنها « أن » المصدرية ، ولو كان . (ونقلب) الخ كلاماً مبتـدءاً لزم ان كل مـــن جاءته آ ية قلب فؤاده ، وليس كذلك بل قـــد يؤمن كثير منهم .

قال شيخ الاسلام رحمه الله :

فصـــــل

قال تعـالى : (وتمت كلمة ربك صدقـاً وعدلا لا مبدل لـكلماته وهو السميع العليم) ذكر هذا بعد قوله : (وكذلك جعلنا لـكل نبي عدواً شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون ؛ ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ماهم مقترفون أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذي أنزل اليـكم الكتاب مفصلا ؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل مـن ربك بالحق ؟ فلا تكونن مـن الممترين) ثم قال : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) وقال تعـالى : (واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحداً) .

فأخبر فى هاتين الآيتين أنه لا مبدل لـكلمات الله ، وأخـبر في الأولى انها تمت صدقاً وعدلا . وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات · وفى بعض الأحاديث «التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر» .

وقال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحـزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهـم البشرى فى الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لـكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) . وقال تعالى : (ولقد كذبت رسل مـن قبلك فصبروا عـلى ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . ولا مبدل لـكلمات الله ، ولقد جاءك من نباء المرسلين) فأخبر في هذه الآية أيضاً انه لا مبدل لـكلمات الله ؛ عقب قوله : (فصـبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) وذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التى لا مبدل لها ، لما قال فى أوليائه : (لهـم البشرى فى الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لـكلمات الله) فانه ذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . فوعدهم بنفي المخافة والحزن ، وبالبشرى في الدارين .

وقال بعد ذلك : (لا مبدل لـكلمات الله) فـكان فى هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده . كما قال : (ولا تحسبن الله مخلف وعـده رسله) . وقال : (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وقال المؤمنون : (ربنا وآتنـا ما وعدتنا عـلى رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد) . فاخلاف ميعاده تبديل

لكلماته ، وهو سبحانه لا مبدل لكلماته .

يبين ذلك قوله تعالى : (لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) فأخبر سبحانه انه قدم إليهم بالوعيد ، وقال : (ما يبدل القول لدي) وهذا يقتضي انه صادق في وعيده أيضاً ، وان وعيده لا يبدل .

وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار . وقد تكلمنا عليهم فى غير هذا الموضع ؛ لكن هذه الآية تضعف جواب من يقول : إن اخلاف الوعيد جائز . فان قوله : (ما يبدل القول لدي) بعد قوله : (وقد قدمت إليكم بالوعيد) دليل على ان وعيده لا يبدل ، كما لا يبدل وعده .

لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد ، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها ، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها . وقد قال تعالى : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله) والله أعلم .

آخر المجلد الرابع عشر

فهرس المجلد الرابع عشر

صفحة | الموضوع

تفسير سورة الفاتحة

صفحة	الموضوع
	توحيد الربوبية
١٥ ، ١٦	فصل جميع المخلوقات فقيرة الى الله ليس لها من نفسها خير أصلا
١٦ ، ١٧ ، ٢٣	العدم ليس شيئا يفتقر الى فاعل ولا يقال ابدعه عدم الفاعل ، معنى ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
١٨ ــ ٢٨	معنى : « والشر ليس اليك »
٢١	ليس في المخلوقات ما يؤلم الخلق كلهم ولا ما يؤلم جمهورهم وانما هى نعمة لهم أو لجمهورهم فى أغلب الاوقات
٢١	(الذى أحسن كل شىء خلقه) (صنع الله الذى أتقن كل شىء) (الا بالحق)
٢٢ ــ ٢٤	العبد انما يفعل المحرمات ــ من الكفر والفسوق والعصيان ــ لجهله أو لحاجته
٢٥ ، ٢٦	هل يجوز تعليل الحكم الوجودى بالوصف العدمى فى العلة الشرعية مع قولهم : العدمى يعلل بالعدمى
٢٧ ، ٢٨	كل شر فى العالم اما ألم واما سبب الالم، معنى «ومن سيئات أعمالنا»
٢٩ ــ ٣١	فصل العبد يتناول معنيين (١) بمعنى العابد كرها (٢) بمعنى العابد طوعا ، الاولى لازمة للانسان ، والثانية قد يخلو العبد منها
٣٠	(وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها)
٣١ ، ٣٢	العبد مفتقر الى الله من جهة الالهية أيضا
٣٢ ، ٣٣	السائل لله اما أن يسأله ما هو مأمور به أو ما هو منهى عنه أو ما هو مباح له
٣٣ ، ٣٤	(واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان)
٣٣ ، ٣٤	اجابة الدعاء تكون على حسب صحة الاعتقاد وعن كمال الطاعة ، اجابة الدعاء قد تكون منفعة وقد تكون مضرة
٣٥ ، ٣٦	فصل العبد فقير الى الله فى أن يعلمه ما يصلحه وهو العلم الشرعى ، وهو قد أنعم على المؤمنين بالاعانة والهداية
٣٧ ــ ٤١	« وقال : فصل ، والعبد مضطر الى الهداية للصراط المستقيم »

صفحة	الموضوع
٣٧ ، ٣٨	فساد قول من يقول قد هداهم فلا حاجة بهم الى سؤال ، وجواب من قال المطلوب دوامها
٣٨	الاصل فى الانسان عدم العلم والميل الى ما يهواه من الشر ، تفسير (ظلوما جهولا)
٣٩ ، ٤٠	تفسير (الصراط المستقيم) ضرورة العبد الى سؤاله أعظم من ضرورته الى سؤال الرزق والنصر

تفسير سورة البقرة

٤١ ــ ٤٨	« وقال فصل قد ذكرت فى مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين وتناسب آياتها وارتباط بعضها ببعض »
٤٨ ــ ٥١	« وقال فى تفسير (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) »
٤٨	الصواب ذكر أقوال السلف ، وان كان فيها ضعيف فالحجة تبين ضعفه · (ان تبسل) (آتنا فى الدنيا حسنة) (والذين كسبوا السيئات)
٥١ ــ ٥٤	« وقال فصل قال تعالى : (وما كنا غائبين) »
٥١ ــ ٥٣	الذين يؤمنون بالغيب واذا أريد بالغائب الله ، والتحقيق فى ذلك الخلاف فى قياس الغائب على الشاهد
٥٤ ــ ٦٨	« وقال : فصل المثل فى الأصل هو الشبيه »
٥٤	القياس فى لغة السلف والفقهاء واصطلاح المنطقيين

الموضوع	صفحة
قياس التمثيل وقياس التكليل والشمول ، القياس عند ابن حزم ، اشتقاق القياس	٥٤ ــ ٥٨
ضرب الامثال فى المعانى نوعان (١) الامثال المعينة التى يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر ، وهى فى القرآن بضع واربعون مثلا منها قوله	٥٦ ، ٥٧
(٢) الامثال الكلية ، وهى تارة تكون صفات وتارة تـكون أقيسة ، جملة ما يضرب من الامثال ستة عشر	٥٨ ــ ٦٠
غالب الامثال والاقيسة انما يكون الخفى فيها احـــدى القضيتين	٦٠ ، ٦١
قد تحذف القضية الجلية والنتيجة فى القرآن كما فى قوله (لـو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا)	٦١ ، ٦٢
المؤلفون للاقيسة يتكلمون أولا فى المفردات ، ثم فـــى تاليف الكلمات ، ثم فى تاليف الامثال المضروبة ، وهى القياس ، والبرهان والدليل ، والآية ، والعلامة :	٦١ ، ٦٢
زعم بعض البيانيين والمنطقيين أن الطريقة البرهانية قليلة فـــى القرآن أو ليس فيه برهان تام	٦١ ــ ٦٤
مدار ضرب المثل ونصب القياس عـلى العموم والخصوص والسلب والايجاب وذلك فى القرآن على أبلغ نظام ، أمثلته	٦٢ ــ ٦٥
قد يعبر فى اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الالفاظ فيستفاد منه التعبير لكن لا يستفاد منه الدليل على الحكم نحـــو قولهم	٦٣ ــ ٦٥
ما يبحث فيه بعض من يتكلم فى علم بيان القرآن واعجازه ، الامثال فى القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلا ومنها ما لا يسمى	٦٤ ــ ٦٧
« وقال فى تفسير : (إن الذين آمنوا والذين هادوا) الآيتين ، سبب نزولها »	٦٨ ، ٦٩
« فصل قسم الله من ذمه من أهل الكتاب إلى محرفين وأميين فى قوله (أفتطمعون) الآيات »	٧٠ ــ ٧١

صفحة	الموضوع
٩٦ ، ٩٧	الاشفاع التى فى القرآن ان كانا عملين منفصلين نفع أحدهما ولو ترك الآخر وان كانا شرطين فى عمل لم ينفع أحدهما
٩٦ ، ٩٧	الاشفاع فى الذم ينال الذم احدهما مفردا ومقرونا ، تعليل ذلك
٩٧ ، ٩٨	اذا أمر بشيء اقتضى كماله واذا نهى عنه اقتضى النهى عن جميع أجزائه أمثلة ذلك

٩٩ ـ ١٢٩ « وقال فصل في قوله (وإن تبدوا ما فى أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) الآية »

صفحة الموضوع

صفحة	الموضوع
١٥٦	قوله (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)
١٥٦ ، ١٥٧	(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم)
١٥٧ ــ ١٥٩	لما كان الصحابة فى عهد الرسول وخلافة أبى بكر ملتزمين لطاعة الله مطلقا استجيب لهم هذا الدعاء ، ولما وقع منهم بعض الذنوب فى خلافة عمر اوجبت اجتهاده فى نوع من التشديد ، ثم حدث بعد ذلك فتن بسبب قتل عثمان والتوسع فى الدنيا
١٥٨ ، ١٥٩	(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)
١٥٩ ، ١٦٠	قد يكون النزاع فى بعض الاحكام رحمة
١٦٠ ، ١٦١	اذا كان العبد مقيما على طاعة الله كان فى نعيم الايمان فى جنة الدنيا « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »
١٦١ ــ ١٦٤	الجنة عند الباطنية لذة تتصف بها النفس من العلم والاخلاق الفاضلة ، والنار ألم تتصف به النفس من الجهل والاخلاق الذميمة، الرؤية عندهم
١٦٣ ــ ١٦٧	الجنة عند النصارى واليهود وعند المسلمين ، رؤية الله فى الجنة أعظم لذات الآخرة ، ما يذكره الغزالى فى ذلك
١٦٤ ــ ١٦٧	اذا أمر الفلاسفة والباطنية بالزهد فانما يقصدون .... حكم الواصل الى العلم المطلوب عندهم وعند الاتحادية
١٦٥ ، ١٦٦	قد يفرح الواحد من هؤلاء اذا قيل له لست بمسلم ، ما أشار به الطوسى على (هولاكو) ، كان هولاكو يعطى الفيلسوف والمنجم والطبيب اضعاف ما يعطى الفقيه
١٦٧	« اذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة » الخ « الذى يشرب فى آنية الفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم »

تفسير سورة آل عمران

١٦٨ ــ ٢٠١	« وقال فصل فى قوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآيات » .
١٦٨ ــ ١٧٣	عبارات المفسرين فى معنى (شهد) الشهادة تتضمن مرتبتين

صفحة	الموضوع
١٦٩ ، ١٧٠	(والذين لا يشهدون الزور) هل كان الصحابة يلتزمون لفظ الشهادة في التحديث والاقرار
١٧٣ ، ١٧٤	فصل وشهادة الرب وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة
١٧٥ ــ ١٧٩	فصل وقوله (قائما بالقسط) ، سبب نزول الآية
١٧٩ ، ١٨٠	فصل ثم قال (لا اله الا هو العزيز الحكيم)
١٨٠ ــ ١٨٣	فصل وقد نظمت هذه الآية ثلاثة أصول : التوحيد والعدل والحكمة والقدرة ففيها الرد على ۰۰۰۰
١٨٣ ، ١٨٤	فصل وقوله (وهو العزيز الحكيم) رد على الجبرية والقدرية
١٨٤ ، ١٨٥	فصل واثبات شهادة أولى العلم يتضمن أن غيره يوحده بخلاف قول الاتحادية « ما وحد الواحد الخ »
١٨٦	فصل واذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، فلا بد من تعريفهم أنه شهد ، (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله)
١٨٧ ــ ١٩٩	فصل قد بين الله شهادته للعباد : بالسمع والبصر
١٨٨ ــ ١٩٣	ما يعرف به صدق الانبياء ، معنى اسم الله (المؤمن) (سنريهم آياتنا في الآفاق)
١٩٠	(بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) (وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله) الآيات
١٩١ ــ ١٩٥	فصل وأما كونه سبحانه صادقا فهو معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد
١٩٢ ــ ١٩٥	(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)
١٩٣ ــ ١٩٥	(قل أى شيء أكبر شهادة قل الله) الآية (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)
١٩٦ ــ ١٩٨	فصل وكذلك قوله (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا)
١٩٩ ، ٢٠٠	فصل ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم وما تنطق به الالسن من ذلك كقوله « أنتم شهداء الله في أرضه »
٢٠٠	(لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة)

صفحة | الموضوع

صفحة		الموضوع

صفحة	الموضوع
	المشيئة ملازمة للامر فما أمر به فقدشاءه وما لم يأمر به لم يشأه الخ
٢٥٩	فصل فان قيل اذا كانت الطاعات والمعاصى مقدرة والنعم والمصائب مقدرة فلم فرق بين الحسنات التى هى النعم والسيئات التى هى المصائب فجعل هذه من الله وهذه من نفس الانسان ؟ قيل لفروق بينهما ...
٢٦١ ـ ٢٦٣ ، ٢٦٥	فصل وبهذا يعلم العبد أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فيشكره وأن الشر لا يحصل الا من نفسه بذنوبه فيستغفر ويتوب ، شرح حديث « خطبة الحاجة »
٢٦٦ ـ ٢٦٨	« والشر ليس اليك » لا يضاف الشر الى الله الا على أحد وجوه ثلاثة
٢٦٦ ـ ٢٦٨ ، ٢٧٥ ـ ٢٧٧	ضل فى هذا الموضع فريقان من القدرية لم يخلق الله ما هو شر من كل وجه ما حصل من الشر لمن كذب موسى ومحمدا فهو جزئى
٢٦٨ ، ٢٦٩	لا يجوز أن يطيل تمكن المتنبئين ولا يؤيدهم بالمعجزات التى أيد بها الانبياء
٢٧٠ ، ٢٧١	فصل وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس فرأت القدرية أنه اذا جاز ان يضل شخصا جاز أن يضل كل الناس الخ
٢٧٢ ، ٢٧٣	فصل والمقصود هنا الكلام على قوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية
٢٧٣ ، ٢٧٤	هل الخطاب فى قوله (ما اصابك) (ما غرك) (ولا تطع الكافرين) (لئن اشركت ليحبطن عملك) (فان كنت فى شك) للرسول أو لكل واحد من الامة
٢٧٤ ، ٢٧٥	الخطاب نوعان (١) يختص لفظه به لكن يتناول غيره بطريق الاولى (٢) قد يكون خطابه خطابا لجميع الناس والمراد غيره وهو المقدم
٢٧٥	الحسنة تضاف الى الله من كل وجه ، والسيئة مضافة اليه لانه خلقها كما خلق الحسنة
٢٧٧ ـ ٢٨٠	فصل ما يحصل للانسان من الحسنات أمور وجودية حصلت بقدرة الله ورحمته ....
٢٨١ ـ ٢٨٣	فصل وقد تنازع الناس فى الترك هل هو أمر وجودى أو عدمى ؟
٢٨٢ ـ ٢٨٥	(انما سلطانه على الذين يتلونه والذين هم به مشركون)

صفحة	الموضوع

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
٣٤٩ ـ ٣٥٢	متى حدثت المعتزلة والقدرية ، المريسى معتزلى
٣٥٤ ـ ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤	الهروى وافق جهما فى مسائل الافعال والقدر مع انكاره على الجهمية والاشاعرة ، من فرق تفريق الجنيد من الصوفية فهو مهتدى
٣٥٨ ، ٣٥٩	يوجد فى كلام الشاذلى وغيره أقوال وأدعية تستلزم تعطيل الامر والنهى كما يعتدون فى الدعاء
٣٥٩ ، ٣٦٠	يجوز بعض عوام هؤلاء أن يكرم الله بكرامات الاولياء من يكون فاجرا بل كافرا
٣٥٩ ـ ٣٦١	من هؤلاء من يعرف ان هذه الاحوال من الشياطين حتى يجوز عبادة الكواكب والاصنام لغرض يحصل له ومنهم من لا يعرف ذلك
٣٦١	فارس تعظم الانوار وتسجد للشمس والنار ، والروم ـ قبل النصرانية ـ يعبدون الكواكب والاصنام
٣٦١ ، ٣٦٢	مذهب الباطنية مأخوذ من قول المجوس بالاصلين ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس ، الظلمة عند المجوس
٣٦٢ ، ٣٦٣	أصل الشر عبادة النفس الشيطان ، أصل الشرك فى بنى آدم الشرك بالصالحين
٣٦٤ ، ٣٦٥	للولى عند ابن عربى وأشباهه من القدرة والعلم مثل ما لله ثم انتقل الى الشاذلى وابنه
٣٦٥ ـ ٣٦٨	حكى عن سهل بن عبد الله أنه قال : ان من الاولياء من لو سأل الله أن لا يقيم القيامة لما أقامها الخ
٣٦٩ ـ ٣٧٧	فصل اذا علم العبد أن ما أصابه من حسنة فمن الله أوجب على العبد شكره وعبادته وحده
٣٦٩ ـ ٣٧٢	(وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون) (نسى ما كان يدعو من قبل)
٣٧٠ ـ ٣٧٢	(ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) الآيات
٣٧٢ ، ٣٧٣	مدح تعالى الذين يعبدونه ويطيعونه فى السراء والضراء
٣٧٣ ـ ٣٧٥	(وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) الآيات

الصفحة　　　　　الموضوع

سورة المائدة

الصفحة	الموضوع
٤٥٧	(انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فـــى الخمر والميسر) الآيـــة
٤٥٩	فصل الشريعة جاءت فى الصيام والاكـل والنكاح بمـــا يصلح بـــه دين الانسان
٤٥٩ ، ٤٦٠	كان السلف يحذرون من المبتدع فى دينه والفاجر فى دنيـــاه ، سبب الوقوع فى الفجور والبدع
٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦	« المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والكيس من دان نفسه » الحديث
٤٦١ ــ ٤٦٥	(وخلق الانسان ضعيفا) « من عشق فعف وكتم وصبر ثم مـــات فهـو شهيـد »
٤٦٥	« من ابتلى بشىء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ٠٠٠٠ » ، كره أحمد انشاد الغزل الرقيق
٤٦٥ ــ ٤٧١	ابتلى كثير من المتصوفة باضاعة الصلاة واتباع الشهوات
٤٦٧ ، ٤٦٨	صعوبة التوبة على المبتدع وسهولتها على السنى
٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥	بعض أهل الفجور وبعض المتصوفة يظن أنـه يمكن فعل الواجبات وترك المحرمات والوصول الى الله بفعل بعض الذنوب كالغيبة والحشيشة والسماع المبتدع
٤٧٠ ــ ٤٧٩	جواب هذه الشبهة مبنى على ثلاث مقامات (١) أن المحرمات قسمان
٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧،	(قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منهـــا وما بطن) الآيات
٤٧١ ــ ٤٧٣	ما يباح من الخمر والميسر والغرر والربا ، لا يجوز انكار المنـــكر بما هو انكر منه
٤٧٢ ــ ٤٧٤	اهلاك المكذبين للرسل مصلحة كما أن دعوتهم مصلحة راجحة
٤٧٤ ، ٤٧٥	قد يكون الشخص بعد الذنب والتوبة خيرا مما كان قبلها
٤٧٧ ، ٤٧٨	(قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم) الآيات
٤٧٩ ــ ٤٨٤	« وقال فصل قوله (عليـكم أنفسكم لا يضركم مـن ضل

سورة الانعام

